التفسير الوسيط للقرآن الكريم

تفسير سور

مريم طه
الأنبياء الحج

الإمام الأكبر
الدكتور محمد سيد طنطاوى
شيخ الأزهر

المجلد التاسع

نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ **(١٢٧)**

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد فهذا تفسير لسورة «مريم» أكتبه بعد أن كتبت قبله تفاسير لسورة : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنعام ، الأعراف ، الأنفال ، التوبة ، يونس ، هود ، يوسف ، الرعد ، إبراهيم ، الحجر ، النحل ، الإسراء ، الكهف ...

والله ـ تعالى ـ أسأل ، أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، ونافعا لعباده ، وشفيعا لنا يوم نلقاه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. محمد سيد طنطاوى

تفسير

سورة مريم

تعريف بسورة مريم

١ ـ سورة مريم من السور المكية.

قال القرطبي : وهي مكية بالإجماع. وهي تسعون وثماني آيات [1].

وقال ابن كثير : وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة ، من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، أن جعفر بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ قرأ صدر هذه السورة على النجاشيّ [2].

وكان نزولها بعد سورة فاطر [3].

٢ ـ ويبدو أن تسميتها بهذا الاسم كان بتوقيف من النبي ﷺ ، فقد أخرج الطبراني والديلمي ، من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جده ، قال : أتيت النبي ﷺ فقلت : ولدت لي الليلة جارية. فقال : والليلة أنزلت على سورة مريم.

وجاء فيما روى عن ابن عباس ، تسميتها بسورة ﴿كهيعص﴾ [4].

وقد تكرر اسم مريم في القرآن ثلاثين مرة ، ولم تذكر امرأة سواها باسمها الصريح.

٣ ـ والذي يقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها زاخرة بالحديث عن عدد من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ..

فقد افتتحت بالحديث عن تلك الدعوات التي تضرع بها زكريا إلى ربه ، لكي يهب له وليا ، يرثه ويرث من آل يعقوب.

وقد استجاب الله ـ تعالى ـ دعاء زكريا ، فوهبه يحيى كما قال ـ تعالى ـ : ﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن قصة مريم ، بصورة فيها شيء من التفصيل ، فذكرت اعتزالها لقومها ومجيء جبريل إليها وما دار بينه وبينها من محاورات ، ومولدها لعيسى وإتيانها

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٧٢.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٠.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٢٧.

(٤) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٥٦.

به قومها ، وما دار بينها وبينهم في شأنه. ثم ختمت هذه القصة بالقول الحق في شأن عيسى ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ ، إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

٥ ـ ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن طرف من قصة إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس ، وختمت حديثها عن الرسل الكرام بقوله ـ تعالى ـ : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ، وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ. وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ. وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا ، إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾.

٦ ـ ثم حكت السورة الكريمة أنماطا من الشبهات التي تفوه بها الضالون ، ومن هذه الشبهات ما يتعلق بالبعث والنشور ، ومنها ما يتعلق بموقفهم من القرآن الكريم ومنها ما يتعلق بزعمهم أن لله ولدا ... وقد ردت على كل شبهة من هذه الشبهات بما يبطلها ، ويخرس ألسنة قائليها.

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا* أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً. أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً. كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا. وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً﴾.

وقوله ـ عزوجل ـ : ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا. تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً. وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾.

٧ ـ ومن هذا العرض الإجمالى لآيات السورة الكريمة ، يتبين لنا أن سورة مريم قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ ، وعلى نفى الشريك والولد عن ذاته ـ سبحانه ـ ، كما اهتمت ـ أيضا ـ بإقامة الأدلة على أن البعث حق ، وعلى أن الناس سيحاسبون على أعمالهم يوم القيامة.

كما زخرت السورة بالحديث عن قصص بعض الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ تارة بشيء من التفصيل كما في قصة زكريا وعيسى ابن مريم ، وتارة بشيء من الاختصار والتركيز كما في قصة إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس.

كما نراها بوضوح تحكى شبهات المشركين. ثم ترد عليها بما يبطلها ...

وقد ساقت السورة ما ساقت من قضايا ، بأسلوب عاطفى بديع ، يهيج المشاعر نحو الخير والحق والفضيلة ، وينفر من الشر والباطل والرذيلة ، ويطلع العقول على نماذج شتى من مظاهر رحمة الله ـ تعالى ـ بعباده الصالحين ترى ذلك في مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾.

وفي مثل قوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾.

٨ ـ قال بعض العلماء ما ملخصه : والظل الغالب في جو السورة هو ظل الرحمة والرضا والاتصال. فهي تبدأ بذكر رحمة ربك لعبده زكريا. ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها في ثنايا السورة كثيرا. ويكثر فيها اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾.

وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية. ودبيبها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال ، كما تحس انتفاضات الكون وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرته ...

كذلك تحس أن للسورة إيقاعا موسيقيا خاصا ، فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء ، وفيه عمق كألفاظ : رضيا ، سريا ، حفيا ، نجيا ...

فأما المواضع التي تقتضي الشدة والعنف ، فتجيء فيها الفاصلة مشددة في الغالب ، كألفاظ : ضدّا ، هدّا ، إدّا ، أزّا [1].

وبعد ؛ فهذا تعريف لسورة مريم ، نرجو أن يكون القارئ له ، قد أخذ صورة مركزة عن أهم المقاصد التي اشتملت عليها السورة الكريمة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

---

(١) من تفسير في ظلال القرآن ج ١٦ ص ٤٢٢ للمرحوم سيد قطب.

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (٣) قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾(٦)

سورة مريم من السور القرآنية التي افتتحت ببعض حروف التهجي.

وقد سبق أن تكلمنا بشيء من التفصيل ، عن آراء العلماء في المراد بهذه الحروف التي افتتحت بها بعض السور ، وذلك عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ..

ورجحنا أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن.

فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله ـ تعالى ـ ، هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون به كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله. أو عشر سور من مثله ، بل سورة واحدة من مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ...

فلما عجزوا . وهم أهل الفصاحة والبيان . ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن هذا القرآن من عند الله ﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾.

وقوله . تعالى . : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ خبر لمبتدأ محذوف. أى : المتلو عليك ذكر رحمة ربك عبده ذكريا.

ولفظ ﴿ذِكْرُ﴾ مصدر مضاف لمفعوله. ولفظ ﴿رَحْمَتِ﴾ مصدر مضاف لفاعله وهو ربك ، و ﴿عَبْدَهُ﴾ مفعول به للمصدر الذي هو رحمة.

و ﴿زَكَرِيَّا﴾ هو واحد من أنبياء الله الكرام ، وينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . عليهم‌السلام ..

والمعنى : هذا الذي نذكره لك يا محمد ، هو جانب من قصة عبدنا زكريا ، وطرف من مظاهر الرحمة التي اختصصناه بها ، ومنحناه إياها.

وقوله : ﴿إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا﴾ ظرف لرحمة ربك. والمراد بالنداء : الدعاء الذي تضرع به زكريا إلى ربه . عزوجل ..

أى : هذا الذي قرأناه عليك يا محمد في أول هذه السورة. وذكرناه لك ، هو جانب من رحمتنا لعبدنا زكريا. وقت أن نادانا وتضرع إلينا في خفاء وستر ، ملتمسا منا الذرية الصالحة.

وإنما أخفى زكريا دعاءه ، لأن هذا الإخفاء فيه بعد عن الرياء ، وقرب من الإخلاص ، وقد أمر الله . تعالى . به في قوله : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ويبدو أن هذا الدعاء قد تضرع به زكريا إلى ربه في أوقات تردده على مريم ، واطلاعه على ما أعطاها الله . تعالى . من رزق وفير.

ويشهد لذلك قوله . تعالى . : ﴿فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا ، كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً ، قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ. هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ﴾ (١).

ثم بين . سبحانه . ما نادى به زكريا ربه فقال : ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ...﴾

والوهن : الضعف. يقال : وهن الجسم يهن . من باب وعد . إذا ضعف.

وخص العظم بالذكر ، لأنه دعامة البدن ، وعماد الجسم ، وبه قوامه ، فإذ ضعف كان غيره من أجزاء الجسم أضعف. وإفراد لفظ العظم لإرادة الجنس.

---

(١) سورة آل عمران من الآيتان ٣٧ ، ٣٨.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ والمراد باشتعال الرأس شيبا : انتشار بياض الشيب فيه. والألف واللام في لفظ ﴿الرَّأْسُ﴾ قاما مقام المضاف إليه.

والمراد : واشتعل رأسى شيبا ، وهذا يدل على تقدم السن ، كما يشهد له قوله ـ تعالى ـ ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ...﴾.

قال صاحب الكشاف : «شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر .. باشتعال النار ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس ، وأخرج الشيب مميزا ولم يضف إلى الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا ، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة ...» [1].

وقوله : ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أى : ولم أكن فيما مضى من عمرى مخيب الدعاء وإنما تعودت منك يا إلهى إجابة دعائي ، وما دام الأمر كذلك فأجب دعائي في الزمان الآتي من عمرى ، كما أجبته في الزمان الماضي منه.

فأنت ترى أن زكريا ـ عليه‌السلام ـ قد أظهر في دعائه أسمى ألوان الأدب مع خالقه ، حيث توسل إليه ـ سبحانه ـ بضعف بدنه ، وبتقدم سنه ، وبما عوده إياه من إجابة دعائه في الماضي.

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعض الأسباب الأخرى لإلحاح زكريا في الدعاء فقال : ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي ، وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ..﴾.

والموالي : جمع مولى ، والمراد بهم هنا : عصبته وأبناء عمومته الذين يلون أمره بعد موته ، وكان لا يثق فيهم لسوء سلوكهم.

والعاقر : العقيم الذي لا يلد ، ويطلق على الرجل والمرأة ، يقال : امرأة عاقر ، ورجل عاقر.

أى : وإنى ـ يا إلهى ـ قد خفت ما يفعله أقاربى ﴿مِنْ وَرائِي﴾ أى : من بعد موتى ، من تضييع لأمور الدين ، ومن عدم القيام بحقه ﴿وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً﴾ لا تلد قط في شبابها ولا في غير شبابها ، ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أى : من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ أى : ولدا من صلبي ، هذا الولد ﴿يَرِثُنِي﴾ في العلم والنبوة ﴿وَيَرِثُ﴾ أيضا ﴿مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق بن إبراهيم العلم والنبوة والصفات الحميدة ﴿وَاجْعَلْهُ﴾ يا رب ﴿رَضِيًّا﴾ أى :

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤.

مرضيا عندك في أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته.

ففي هاتين الآيتين نرى زكريا يجتهد في الدعاء بأن يرزقه الله الولد ، لا من أجل شهوة دنيوية ، وإنما من أجل مصلحة الدين والخوف من تضييعه وتبديله والحرص على من يرثه في علمه ونبوته ، ويكون مرضيا عنده . عزّ وجلّ ..

قال الآلوسى ما ملخصه : «وقوله ﴿مِنْ وَرائِي﴾ المراد به من بعد موتى ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أى : خفت فعل الموالي من ورائي أو جور الموالي. وهم عصبة الرجل .. وكانوا على سائر الأقوال شرار بنى إسرائيل ، فخاف أن لا يحسنوا خلافته في أمته» (١).

وفي قوله ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ اعتراف عميق بقدرة الله . تعالى . لأن مثل هذا العطاء لا يرجى إلا منه . عزّ وجلّ . ، بعد أن تقدمت بزكريا السن ، وبعد أن عهد من زوجه العقم وعدم الولادة.

وقد أشار . سبحانه . في آية أخرى إلى أنه أزال عنها العقم وأصلحها للولادة فقال : ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ* فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ ...﴾ (٢) أى : وجعلناها صالحة للولادة بعد أن كانت عقيما من حين شبابها إلى شيبها ..

والمراد بالوراثة في قوله ﴿يَرِثُنِي﴾ وراثة العلم والنبوة والصفات الحميدة.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : «وقوله : ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي﴾ قرأ الأكثرون بنصب الياء من الموالي على أنه مفعول ، وعن الكسائي أنه سكن الياء ..

ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا. فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده ليسوسهم بنبوته .. لا أنه خشي من وراثتهم له ماله. فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى هذا الحد ، وأن يأنف من وراثة عصبته له ، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم.

وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : «لا نورث ما تركنا صدقة» وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح : «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

وعلى هذا فتعين حمل قوله ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾ على ميراث النبوة ولهذا قال : ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ كقوله : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ﴾ أى : في النبوة ، إذ

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٦١.

(٢) سورة الأنبياء الآيتان ٨٩ ، ٩٠.

لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك ، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة ، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل ، أن الولد يرث أباه ، فلو لا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها ، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث : «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة» (١).

وقال بعض العلماء ما ملخصه : ومعنى ﴿يَرِثُنِي﴾ أى : إرث علم ونبوة ، ودعوة إلى الله والقيام بدينه ، لا إرث مال ، ويدل لذلك أمران :

أحدهما قوله : ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ومعلوم أن آل يعقوب انقرضوا من زمان ، فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين.

والأمر الثاني ما جاء من الأدلة أن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لا يورث عنهم المال ، وإنما يورث عنهم العلم والدين ، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى بكر الصديق أن رسول الله ﷺ قال : «لا نورث ما تركنا صدقة» (٢).

ثم بين القرآن الكريم أن الله ـ تعالى ـ قد أجاب بفضله وكرمه دعاء عبده زكريا. كما بين ما قاله زكريا عند ما بشره ربه بغلام اسمه يحيى فقال ـ تعالى ـ :

﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (٩) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (١١)

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١١.

(٢) راجع تفسير اضواء البيان ج ٤ ص ٢٠٦ للشيخ الشنقيطى ـ رحمه‌الله ـ.

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ ﴿يا زَكَرِيَّا﴾ في الكلام حذف ، أى : فاستجاب الله دعاءه فقال : ﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى ...﴾ فتضمنت هذه البشارة ثلاثة أشياء : أحدها : إجابة دعائه وهي كرامة. الثاني : إعطاؤه الولد وهو قوة. الثالث : أن يفرد بتسميته ...» [(١)].

وقد بين ـ سبحانه ـ في آيات أخرى أن الذي بشر زكريا هو بعض الملائكة ، وأن ذلك كان وهو قائم يصلى في المحراب ، قال ـ تعالى ـ : ﴿فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ ، أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى ، مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ ، وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [(٢)].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿اسْمُهُ يَحْيى﴾ يدل على أن هذه التسمية قد سماها الله ـ تعالى ـ ليحيي ، ولم يكل تسميته لزكريا أو لغيره ، وهذا لون من التشريف والتكريم.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أى لم نجعل أحدا من قبل مشاركا له في هذا الاسم ، بل هو أول من تسمى بهذا الاسم الجميل.

قال بعض العلماء : «وقول من قال : إن معناه : لم نجعل له من قبل سميا ، أى : نظيرا يساويه في السمو والرفعة غير صواب ، لأنه ليس بأفضل من إبراهيم ونوح وموسى فالقول الأول هو الصواب ، وممن قال به : ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، وابن أسلم وغيرهم ...» [(٣)].

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما قاله زكريا بعد هذه البشارة السارة. فقال ـ تعالى ـ : ﴿قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ، وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً. وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

فالجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال تقديره : فماذا قال زكريا عند ما بشره الله ـ تعالى ـ بيحيي؟

ولفظ ﴿أَنَّى﴾ بمعنى : كيف. أو بمعنى : من أين.

أى : قال زكريا مخاطبا ربه بعد أن بشره بابنه يحي : يا رب كيف يكون لي غلام ، وحال امرأتى أنها كانت عاقرا في شبابها وفي شيخوختها ، وحالي أنا أنني قد بلغت من الكبر عتيا ، أى. قد تقدمت في السن تقدما كبيرا.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٨٢.

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٩.

(٣) تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ٢١٤.

يقال : عتى الشيخ يعتو عتيا ـ بكسر العين وضمها ـ إذا بلغ النهاية في الكبر.

قال ابن جرير : «قوله : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ يقول : وقد عتوت من الكبر فصرت نحيل العظام يابسها ، يقال منه للعود اليابس : عات وعاس. وقد عتا يعتو عتوا وعتيا ... وكل متناه في كبر أو فساد أو كفر فهو عات ...» [1].

فإن قيل : «ما المراد باستفهام زكريا ـ عليه‌السلام ـ مع علمه بقدرة الله ـ تعالى ـ على كل شيء؟

فالجواب أن استفهامه إنما هو على سبيل الاستعلام والاستخبار ، لأنه لم يكن يعلم أن الله ـ تعالى ـ سيرزقه بيحيى عن طريق زوجته العاقر ، أو عن طريق الزواج بامرأة أخرى ، فاستفهم عن الحقيقة ليعرفها.

ويصح أن يكون المقصود بالاستفهام التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب حيث رزقه الله الولد مع تقدم سنه وسن زوجته.

ويجوز أن يكون المقصود بالاستفهام الاستبعاد لما جرت به العادة من أن يأتى الغلام مع تقدم سنه وسن زوجته. وليس المقصود به استحالة ذلك على قدرة الله ـ تعالى ـ لأنه ـ سبحانه ـ لا يعجزه شيء.

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما رد به على استفهام زكريا فقال : ﴿قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾.

وقوله : ﴿كَذلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر كذلك.

قال الآلوسى : وذلك إشارة إلى قول زكريا ـ عليه‌السلام ـ وجملة ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ مفعول ﴿قالَ﴾ الثاني وجملة «الأمر كذلك» مع جملة ﴿قالَ رَبُّكَ﴾ إلخ مفعول ﴿قالَ﴾ الأول ...» [2].

والمعنى : قال الله ـ تعالى ـ مجيبا على استفهام زكريا ، الأمر كما ذكرت يا زكريا من كون امرأتك عاقرا ، وأنت قد بلغت من الكبر عتيا ، ولكن ذلك لا يحول بيننا وبين تنفيذ إرادتنا في منحك هذا الغلام ، فإن قدرتنا لا يعجزها شيء ، ولا تخضع لما جرت به العادات.

وهذا الأمر وهو إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أى : يسير سهل.

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ٣٨ طبعة بولاق سنة ١٣٢٨ ه‍.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٦٧.

ثم ذكر له ـ سبحانه ـ ما هو أعجب مما سأل عنه فقال : ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾.

أى : لا تعجب يا زكريا من أن يأتيك غلام وأنت وزوجك بتلك الحالة ، فإنى أنا الله الذي أوجدتك من العدم ، ومن أوجدك من العدم ، فهو قادر على أن يرزقك بهذا الغلام المذكور.

فالآية الكريمة قد ساقت بطريق منطقي برهاني ، ما يدل على كمال قدرة الله ـ تعالى ـ وما يزيد في اطمئنان قلب زكريا ـ عليه السلام ـ.

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما التمسه زكريا ـ عليه السلام ـ من خالقه فقال : ﴿قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ...﴾.

أى : اجعل لي علامة أستدل بها على وقوع ما بشرتني به ، لأزداد سرورا واطمئنانا. ولأعرف الوقت الذي تحمل فيه امرأتى بهذا الغلام فأكثر من شكرك وذكرك.

فأجابه الله ـ تعالى ـ بقوله : ﴿قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا﴾.

أى : قال الله ـ تعالى ـ لعبده زكريا : يا زكريا. علامة وقوع ما بشرتك به ، أنك تجد نفسك عاجزا عن أن تكلم الناس بلسانك ، لمدة ثلاث ليال بأيامهن حال كونك سوى الخلق ، سليم الحواس ليس بك من خرس ، أو بكم ، ولكنك ممنوع من الكلام بأمرنا وقدرتنا على سبيل خرق العادة.

فقوله : ﴿سَوِيًّا﴾ حال من فاعل «تكلم» وهو زكريا أى : حال كونك يا زكريا سوى الخلق ، سليم الجوارح ، لا علة تمنعك من ذلك سوى قدرتنا. ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان من زكريا بعد ذلك فقال : ﴿فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

والمحراب : المصلى ، أو الغرفة التي كان يجلس فيها في بيت المقدس ، أو هو المسجد ، فقد كانت مساجدهم تسمى المحاريب. لأنها الأماكن التي تحارب فيها الشياطين.

أى : فخرج زكريا ـ عليه السلام ـ على قومه من المكان الذي كان يصلى فيه ، ﴿فَأَوْحى إِلَيْهِمْ﴾ أى : فأشار إليهم أو كتب لهم دون أن ينطق بلسانه ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ الله ـ تعالى ـ وقدسوه ﴿بُكْرَةً﴾ أى : في أوائل النهار ﴿وَعَشِيًّا﴾ أى : في أواخره.

وقد ذكر ـ سبحانه ـ في آية أخرى ، ما يشير إلى أن هذا المحراب الذي خرج منه زكريا ـ عليه السلام ـ على قومه. هو ذلك المكان الذي بشره الله ـ تعالى ـ فيه بيحيى.

قال ـ تعالى ـ : ﴿فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى

﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١).

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ جانبا من رحمة الله ـ تعالى ـ بعبده زكريا ، ومن الدعوات التي تضرع بها إلى خالقه ـ عزّ وجلّ ـ ، وأن الله ـ تعالى ـ قد أجاب له دعاءه ، وبشره بيحيى ، وعرفه بالعلامة التي بها يعرف وقوع ما بشره به ، زيادة في اطمئنانه وسروره.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن يحيى ، فبينت ما أمره الله ـ تعالى ـ به ، وما منحه من صفات فاضلة. فقال ـ تعالى ـ :

﴿يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً وَكانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (١٤) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ﴾ مقول لقول محذوف ، والسر في حذفه المسارعة إلى الإخبار بإنجاز الوعد الكريم.

والتقدير : وبعد أن ولد يحيى ، ونما وترعرع قلنا له عن طريق وحينا : ﴿يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ﴾ الذي هو التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى : بجد واجتهاد ، وتفهم لمعناه على الوجه الصحيح ، وتطبيق ما اشتمل عليه من أحكام وآداب ، فإن بركة العلم في العمل به.

والجار والمجرور ﴿بِقُوَّةٍ﴾ حال من فاعل خذ وهو يحيى ، والباء للملابسة أى : خذه حالة كونك ملتبسا بحفظه وتنفيذ أحكامه بشدة وثبات.

وقوله : ﴿وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أى : وأعطيناه بقدرتنا وفضلنا ﴿الْحُكْمَ﴾ أى : فهم الكتاب والعمل بأحكامه ، وهو في سن الصبا.

قيل : كان سنه ثلاث سنين ، وقيل سبع سنين.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٩.

قال الآلوسي : «أخرج أبو نعيم ، وابن مردويه ، والديلمي ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ أنه قال في ذلك : «أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين» [1].

وقال الجمل في حاشيته : «فإن قلت : كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا؟.

قلت : لأن أصل النبوة مبنى على خرق العادات. إذا ثبت هذا. فلا تمنع صيرورة الصبى نبيا. وقيل : أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير .. [2].

والذي تطمئن إليه النفس وعليه جمهور المفسرين أن المراد بالحكم هنا : العلم النافع مع العمل به ، وذلك عن طريق حفظ التوراة وفهمها وتطبيق أحكامها.

قال ابن كثير : ﴿وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أى : الفهم والعلم والجد والعزم ، والإقبال على الخير ، والإكباب عليه ، والاجتهاد فيه ، وهو صغير حدث.

قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للعب خلقنا. قال : فلهذا أنزل الله : ﴿وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [3].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً وَكانَ تَقِيًّا﴾ معطوف على ﴿الْحُكْمَ﴾.

أى : وأعطيناه الحكم صبيا ، وأعطيناه حنانا ...

قال القرطبي ما ملخصه : «الحنان : الشفقة والرحمة والمحبة ، وهو فعل من أفعال النفس ...

وأصله : من حنان الناقة على ولدها ... قال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا   حنانيك بعض الشر أهون من بعض [4]

والمعنى : منحنا ﴿يَحْيى﴾ الحكم صبيا ، ومنحناه من عندنا وحدنا رحمة عظيمة عليه ، ورحمة في قلبه جعلته يعطف على غيره ، وأعطيناه كذلك زكاة أى : طهارة في النفس ، أبعدته عن ارتكاب ما نهى الله عنه ، وجعلته سباقا لفعل الخير ﴿وَكانَ تَقِيًّا﴾ أى مطيعا لنا في كل ما نأمره به ، أو ننهاه عنه.

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى تلك الصفات الكريمة ليحيى صفات أخرى فقال : ﴿وَبَرًّا

---

(١) تفسير الآلوسي ج ١٦ ص ٧٢.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٤.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٣.

(٤) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٨٧.

بِوالِدَيْهِ﴾ أى : وجعلناه كثير البر بوالديه ، والإحسان إليهما.

﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً﴾ أى : مستكبرا متعاليا مغرورا ﴿عَصِيًّا﴾ أى : ولم يكن ذا معصية ومخالفة لأمر ربه.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الصفات ببيان العاقبة الحسنة التي ادخرها ليحيى ـ عليه‌السلام ـ فقال : ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ أى : وتحية وأمان له منا يوم ولادته ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ ويفارق هذه الدنيا ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ للحساب يوم القيامة.

وخص ـ سبحانه ـ هذه الأوقات الثلاثة بالذكر ، لأنها أحوج إلى الرعاية من غيرها.

قال سفيان بن عيينة : أحوج ما يكون المرء في ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه. ويوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم. ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم.

وبعد هذا الحديث عن جانب من قصة زكريا ويحيى ـ عليهما‌السلام ـ ، انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن قصة أخرى أعجب من قصة ميلاد يحيى ، ألا وهي قصة مريم وميلادها لابنها عيسى ـ عليه‌السلام ـ فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (١٧) قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (١٩) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا﴾(٢١)

قال ابن كثير : «لما ذكر الله تعالى ـ قصة زكريا ـ عليه‌السلام ـ وأنه أوجد منه في حال

كبره وعقم زوجته ولدا زكيا طاهرا مباركا ، وعطف بذكر قصة مريم ، في إيجاده ولدها عيسى ـ عليه السلام ـ منها من غير أب.

وهي مريم ابنة عمران ـ من سلالة داود ـ عليه السلام ـ وكانت من بيت طاهر في بنى إسرائيل ... ونشأت نشأة عظيمة ، فكانت إحدى العابدات الناسكات ...

وكانت في كفالة زوج أختها زكريا ـ عليه السلام ـ ورأى لها من الكرامات الهائلة ما بهره ...»[1].

والمعنى : ﴿وَاذْكُرْ﴾ ـ أيها الرسول الكريم ـ ﴿فِي الْكِتابِ﴾ أى في هذه السورة الكريمة ، أو في القرآن الكريم ، خبر مريم وقصتها ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا﴾ أى : وقت أن تنحت عنهم واعتزلتهم في مكان يلي الناحية الشرقية من بيت المقدس ، أو من بيتها الذي كانت تسكنه.

وفي التعبير بقوله ـ تعالى ـ ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها﴾ إشارة إلى شدة عزلتها عن أهلها إذ النبذ معناه الطرح والرمي ، فكأنها ألقت بنفسها في هذا المكان لتختلى للعبادة والطاعة ، والتقرب إلى الله ـ تعالى ـ بصالح الأعمال.

قال القرطبي : واختلف الناس لم انتبذت؟ فقال السدى : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس. وقال غيره : لتعبد الله وهذا حسن. وذلك أن مريم كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك ، ودخلت في المسجد إلى جانب المحراب في شرقيه لتخلو للعبادة ..

فقوله ﴿مَكاناً شَرْقِيًّا﴾ أى : مكانا من جانب الشرق. والشرق ـ بسكون الراء ـ المكان الذي تشرق فيه الشمس. والشرق ـ بفتح الراء ـ الشمس.

وإنما خص المكان بالشرق ، لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ، حيث تطلع الأنوار ...»[2].

وقوله : ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً﴾ تأكيد لانتباذها من أهلها ، واعتزالها إياهم.

أى : اذكر وقت أن اعتزلت أهلها. في مكان يلي شرق بيت المقدس ، فاتخذت بينها وبينهم حجابا وساترا للتفرغ لعبادة ربها.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٤.

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٩٠.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أكرمها به في حال خلوتها فقال : ﴿فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا﴾.

أى : فأرسلنا إليها روحنا وهو جبريل ـ عليه السلام ـ فتشبه لها في صورة بشر سوى معتدل الهيئة ، كامل البنية ، كأحسن ما يكون الإنسان.

يقال : رجل سوى ، إذا كان تام الخلقة عظيم الخلق ، لا يعيبه في شأن من شئونه إفراط أو تفريط.

والإضافة في قوله ﴿رُوحَنا﴾ للتشريف والتكريم ، وسمى جبريل ـ عليه السلام ـ روحا لمشابهة الروح الحقيقية في أن كلا منهما مادة الحياة للبشر. فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب ، والروح تحيا به الأجسام.

وإنما تمثل لها جبريل ـ عليه السلام ـ في صورة بشر سوى ، لتستأنس بكلامه ، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته ، ولو بدا لها في صورته التي خلقه الله ـ تعالى ـ عليها. لنفرت منه ، ولم تستطع مكالمته.

وقوله : ﴿بَشَراً سَوِيًّا﴾ حالان من ضمير الفاعل في قوله ﴿فَتَمَثَّلَ لَها﴾.

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما دار بين مريم وبين جبريل من حوار ونقاش فقال : ﴿قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾.

أى : قالت لجبريل ـ عليه السلام ـ الذي تمثل لها في صورة بشر سوى : إنى أعوذ وألتجئ إلى الرحمن منك ، إن كنت ممن يتقى الله ويخشاه.

وخصت الرحمن بالذكر ، لتثير مشاعر التقوى في نفسه ، إذ من شأن الإنسان التقى أن ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ، وأن يرجع عن كل سوء يخطر بباله.

وجواب هذا الشرط محذوف ، أى إن كنت تقيا ، فابتعد عنى واتركني في خلوتي لأتفرغ لعبادة الله ـ تعالى ..

وبهذا القول الذي حكاه القرآن عن مريم. تكون قد جمعت بين الاعتصام بربها ، وبين تخويف من تخاطبه وترهيبه من عذاب الله. إن سولت له نفسه إرادتها بسوء. كما أن قولها هذا ، يدل على أنها قد بلغت أسمى درجات العفة والطهر والبعد عن الريبة ، فهي تقول له هذا القول ، وهي تراه بشرا سويا ، وفي مكان بمعزل عن الناس ...

وهنا يجيبها جبريل ـ كما حكى القرآن عنه ـ بقوله : ﴿قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا﴾.

أى : قال لها جبريل ليدخل السكون والاطمئنان على قلبها : إنما أنا يا مريم رسول ربك الذي استعذت به ، والتجأت إليه ، فلا تخافي ولا تجزعي وقد أرسلني . سبحانه . إليك ، لأهب لك بإذنه وقدرته غلاما زكيا ، أى : ولدا طاهرا من الذنوب والمعاصي ، كثير الخير والبركات.

ونسب الهبة لنفسه ، لكونه سببا فيها. وقرأ نافع وأبو عمرو : ليهب لك بالياء المفتوحة بعد اللام أى : ليهب لك ربك غلاما زكيا.

وهنا تزداد حيرة مريم ، ويشتد عجبها فتقول : ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

أى : قالت على سبيل التعجب مما سمعته : كيف يكون لي غلام ، والحال أنى لم يمسني بشر من الرجال عن طريق الزواج الذي أحله الله . تعالى . ، ولم أك في يوم من الأيام بغيا ، أى : فاجرة تبغى الرجال. أو يبغونها للزنا بها. يقال : بغت المرأة تبغى إذا فجرت وتجاوزت حدود الشرف والعفاف.

قال صاحب الكشاف : جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه. كقوله . تعالى . ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ والزنا ليس كذلك ، إنما يقال فيه : فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك ، وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب. والبغي : الفاجرة التي تبغى الرجال ...» (١).

وعلى هذا الرأى الذي ذهب إليه صاحب الكشاف ، يكون ما حكاه القرآن عن مريم من قولها : ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ...﴾ المقصود به النكاح الحلال.

ويرى آخرون أن المقصود به ما يشمل الحلال والحرام ، أى : لم يمسسني بشر كائنا من كان لا بنكاح ولا بزنى ، ويكون قوله : ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ من باب التخصيص بعد التعميم ، ويؤيد هذا الرأى قوله . تعالى . : ﴿قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ. قالَ كَذلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢).

ويؤيده أيضا أن لفظ ﴿بَشَرٌ﴾ نكرة في سياق النفي فيعم كل بشر سواء أكان زوجا أم غير زوج.

قال القرطبي : قوله : ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أى : زانية. وذكرت هذا تأكيدا لأن قولها ﴿وَلَمْ

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٠.

(٢) سورة آل عمران الآية ٤٧.

﴿يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ يشمل الحلال والحرام ... [1].

وقال الجمل في حاشيته ما ملخصه : وإنما تعجبت مما بشرها به جبريل لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا بعد الاتصال برجل. فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه ـ تعالى ـ قادر على خلق الولد ابتداء. كيف وقد عرفت أن أبا البشر قد خلقه الله ـ تعالى ـ من غير أب أو أم ...» [2].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ...﴾ رد من جبريل عليها. أى : قال الأمر كذلك أى : كما ذكرت من أن بشرا لم يمسسك ومن أنك لم تكوني في يوم من الأيام بغيا. أو الأمر كذلك من أنى أرسلنى ربك لأهب لك غلاما زكيا من غير أن يكون له أب.

وقوله ﴿قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ بيان لمظهر من مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ التي لا يعجزها شيء ، أى : ﴿قالَ رَبُّكِ هُوَ﴾ أى : خلق ولدك من غير أب ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أى : سهل يسير لأن قدرتنا لا يعجزها شيء.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ تعليل لمعلل محذوف ، أى : ولنجعل وجود الغلام منك من غير أن يمسك بشر ﴿آيَةً﴾ عظيمة ، وأمرا عجيبا يدل دلالة واضحة على قدرتنا ، أمام الناس جميعا ، فإن قدرتنا لا يعجزها ذلك ، كما لا يعجزها أن توجد بشرا من غير أب وأم كما فعلنا مع آدم. أو من غير أم كما فعلنا مع حواء ، أو من أب وأم كما فعلنا مع سائر البشر.

وقوله : ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ معطوف على ما قبله ، أى : ولنجعل هذا الغلام الذي وهبناه لك من غير أب رحمة عظيمة منا لمن آمن به ، واتبع دعوته. ﴿وَكانَ﴾ وجود هذا الغلام منك على هذه الكيفية ﴿أَمْراً مَقْضِيًّا﴾ أى : مقدرا في الأزل مسطورا في اللوح المحفوظ ، ولا بد من وقوعه بدون تغيير أو تبديل.

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة ، قد حكت لنا جانبا من حالة مريم ومن الحوار الذي جرى بينها وبين جبريل ـ عليه‌السلام ـ الذي تمثل لها في صورة بشر سوى.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ، حكت فيها حالتها عند حملها بعيسى ، وعند ما جاءها المخاض. فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٩١.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٦.

﴿فَحمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا (٢٢) فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (٢٣) فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾(٢٦)

قال ابن كثير رحمه الله : يقول ـ تعالى ـ مخبرا عن مريم ، أنها لما قال لها جبريل عن الله ـ تعالى ـ ما قال : أنها استسلمت لقضائه ـ تعالى ـ ، فذكر غير واحد من علماء السلف ، أن الملك وهو جبريل ـ عليه السلام ـ عند ذلك نفخ في جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج ، فحملت بالولد بإذن الله ـ تعالى ـ ....

والمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. قال عكرمة : ثمانية أشهر. وعن ابن عباس أنه قال : لم يكن إلا أن حملت فوضعت ، وهذا غريب ، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَحمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾. فالفاء وإن كانت للتعقيب ، لكن تعقيب كل شيء بحسبه.

فالمشهور الظاهر ـ والله على كل شيء قدير ـ أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ...» [1].

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَحَمَلَتْهُ ..﴾ هي الفصيحة ؛ أى : وبعد أن قال جبريل لمريم إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ... نفخ فيها فحملته ، أى : عيسى ، فانتبذت به ، أى : فتنحت به وهو في بطنها ﴿مَكاناً قَصِيًّا﴾ أى : إلى مكان بعيد عن المكان الذي يسكنه أهلها.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٦.

يقال : قصى فلان عن فلان قصوا وقصوّا ، إذا بعد عنه. ويقال : فلان بمكان قصى ، أى : بعيد.

وجمهور العلماء على أن هذا المكان القصي ، كان بيت لحم بفلسطين.

قال ابن عباس : أقصى الوادي ، وهو وادي بيت لحم ، فرارا من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج» [١].

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما اعتراها من حزن عند ما أحست بقرب الولادة فقال : ﴿فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا﴾.

وقوله : ﴿فَأَجاءَهَا﴾ أى : فألجأها ، يقال : أجاته إلى كذا ، بمعنى : ألجأته واضطرته إليه. ويقال : جاء فلان. وأجاءه غيره ، إذا حمله على المجيء ، ومنه قول الشاعر :

وجار سار معتمدا علينا أجاءته المخافة والرجاء

قال صاحب الكشاف : «أجاء : منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء. ألا تراك تقول : جئت المكان وأجاءنيه زيد ، كما تقول : بلغته وأبلغنيه ...» [٢].

والمخاض : وجع الولادة. يقال : مخضت المرأة ـ بكسر الخاء ـ تمخض ـ بفتحها ـ إذا دنا وقت ولادتها مأخوذ من المخض ، وهو الحركة الشديدة ، وسمى بذلك لشدة تحرك الجنين في بطن الأم عند قرب خروجه.

وجذع النخلة : ساقها الذي تقوم عليه.

أى : وبعد أن حملت مريم بعيسى ، وابتعدت به ـ وهو محمول في بطنها ـ عن قومها ، وحان وقت ولادتها. ألجأها المخاض إلى جذع النخلة لتتكئ عليه عند الولادة ...

فاعتراها في تلك الساعة ما اعتراها من هم وحزن وقالت : ﴿يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا﴾ الحمل والمخاض الذي حل بي ﴿وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا﴾ أى : وكنت شيئا منسيا متروكا ، لا يهتم به أحد ، وكل شيء نسى وترك ولم يطلب فهو نسى ونسيّ.

قال القرطبي : «والنّسى في كلام العرب : الشيء الحقير الذي من شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد ، والحبل للمسافر. وقرئ : ﴿نَسْياً﴾ بكسر النون وهما لغتان مثل : الوتر والوتر ...» [٣].

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٧.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١١.

(٣) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٩٢.

قال الآلوسى ما ملخصه : «وإنما قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل من الوعد الكريم ، استحياء من الناس ، وخوفا من لائمتهم ، أو حذرا من وقوع الناس في المعصية بسبب كلامهم في شأنها.

وتمنى الموت لمثل ذلك لا كراهة فيه . لأنه يتعلق بأمر ديني . نعم يكره أن يتمنى المرء الموت لأمر دنيوى كمرض أو فقر .. ففي صحيح مسلم ، قال رسول الله ﷺ : «لا يتمنين أحدكم الموت لضرر نزل به ، فإن كان لا بد متمنيا فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي».

ومن ظن أن تمنى مريم الموت كان لشدة الوجع فقد أساء الظن [1].

ثم ذكر . سبحانه . جانبا من إكرامه لمريم في تلك الساعات العصيبة من حياتها فقال : ﴿فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي ، قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا ، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ...﴾.

والذي ناداها يرى بعضهم أنه جبريل . عليه السلام .. وقوله ﴿مِنْ تَحْتِها﴾ فيه قراءتان سبعيتان : إحداهما : بكسر الميم في لفظ ﴿مِنْ﴾ على أنه حرف جر ، وخفض تاء ﴿تَحْتِها﴾ على أنه مجرور بحرف الجر والفاعل محذوف أى : فناداها جبريل من مكان تحتها ، أى أسفل منها ...

والثانية : بفتح الميم في لفظ ﴿مَنْ﴾ على أنه اسم موصول ، فاعل نادى وبفتح التاء في ﴿تَحْتَها﴾ على الظرفية ، أى : فناداها الذي هو تحتها ، وهو جبريل . عليه السلام ..

قال القرطبي : قوله . تعالى . ﴿فَناداها مِنْ تَحْتِها﴾.

قال ابن عباس : المراد بمن تحتها جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها .. ففي هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة ، التي لله . تعالى . فيها مراد عظيم» [2].

ويرى بعض المفسرين أن المنادى هو عيسى . عليه السلام . فيكون المعنى : فناداها ابنها عيسى الذي كان عند ما وضعته موجودا تحتها.

وقد رجح الإمام ابن جرير هذا الرأى فقال : «وأولى القولين في ذلك عندنا قول من قال : الذي ناداها ابنها عيسى ، وذلك أنه من كناية . أى ضمير . ذكره أقرب منه من ذكر جبريل ، فرده على الذي هو أقرب إليه أولى من رده على الذي هو أبعد منه ، ألا ترى أنه في

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٨٢.

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٩٢.

سياق قوله ـ تعالى ـ ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا ..﴾ ثم قيل : فناداها نسقا على ذلك ، ولعلة أخرى وهي قوله : ﴿فَأَشارَتْ إِلَيْهِ ..﴾ ولم تشر إليه ـ إن شاء الله ـ إلا وقد علمت أنه ناطق في حاله تلك ..» (١).

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير من كون الذي نادى مريم هو ابنها عيسى ، أقرب إلى الصواب ، لأن هذا النداء منه لها في تلك الساعة ، فيه ما فيه من إدخال الطمأنينة والسكينة على قلبها.

أى : فناداها ابنها عيسى الذي كان أسفل منها عند ما وضعته. مطمئنا إياها بعد أن قالت : يا ليتني مت قبل هذا الذي حدث لي .. ناداها بقوله : ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ يا أماه ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أى جدولا صغيرا من الماء ، لتأخذى منه ما أنت في حاجة إليه ، وسمى النهر الصغير من الماء سريا ، لأن الماء يسرى فيه.

وقيل : المراد بالسرى : عيسى ـ عليه‌السلام ـ مأخوذ من السّرو بمعنى الرفعة والشرف.

يقال : سرو الرجل يسرو ـ كشرف يشرف ـ فهو سرىّ ، إذا علا قدره وعظم أمره ومنه قول الشاعر :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

أى : قد جعل ربك تحتك يا مريم إنسانا رفيع القدر ، وهو ابنك عيسى ، والجملة الكريمة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى بقوله : ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ قال بعض العلماء ما ملخصه : «وأظهر القولين عندي أن السرى في الآية النهر الصغير لأمرين :

أحدهما : القرينة من القرآن ، لأن قوله بعد ذلك ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به في قوله : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

الثاني : ما جاء عن ابن عمر من أنه سمع النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم يقول : «إن السرى الذي قال الله لمريم : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نهر أخرجه الله لها لتشرب منه».

فهذا الحديث ـ وإن كانت طرقه لا يخلو شيء منها من ضعف ـ أقرب إلى الصواب من دعوى أن السرى عيسى بغير دليل يجب الرجوع إليه» (٢).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾. معطوف على ما قاله عيسى لأمه

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ٥٢.

(٢) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطى ـ رحمه‌الله ـ ج ٤ ص ٢٤٨.

مريم. والباء في قوله ﴿بِجِذْعِ﴾ مزيدة للتوكيد ، لأن فعل الهز يتعدى بنفسه.

أى : وحركي نحوك أو جهة اليمين أو الشمال جذع النخلة ﴿تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً﴾ وهو ما نضج واستوى من الثمر ﴿جَنِيًّا﴾ أى : صالحا للأخذ والاجتناء ﴿فَكُلِي﴾ من ذلك الرطب ﴿وَاشْرَبِي﴾ من ذلك السرى ، ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ أى : طيبي نفسا بوجودى تحتك ، واطردى عنك الأحزان.

يقال : قرت عين فلان ، إذا رأت ما كانت متشوقة إلى رؤيته. مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون ، لأن العين إذا رأت ما تحبه سكنت إليه ، ولم تنظر إلى غيره.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أن مباشرة الأسباب في طلب الرزق أمر واجب وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله ، لأن المؤمن يتعاطى الأسباب امتثالا لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع في ملكه ـ سبحانه ـ إلا ما يشاؤه ويريده.

وهنا قد أمر الله ـ تعالى ـ مريم ـ على لسان مولودها ـ بأن تهز النخلة ليتساقط لها الرطب ، مع قدرته ـ سبحانه ـ على إنزال الرطب إليها من غير هز أو تحريك ، ورحم الله القائل :

ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزه ... جنته ، ولكن كل شيء له سبب

كما أخذوا منها أن خير ما تأكله المرأة بعد ولادتها الرطب ، قالوا : لأنه لو كان شيء أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه الله ـ تعالى ـ لمريم.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ حكاية منه ـ تعالى ـ لبقية كلام عيسى لأمه.

ولفظ ﴿فَإِمَّا﴾ مركب من إن الشرطية ، وما المزيدة لتوكيد الشرط و ﴿تَرَيِنَ﴾ فعل الشرط ، وجوابه ﴿فَقُولِي﴾ وبين هذا الجواب وشرطه كلام محذوف يرشد إليه السياق.

والمعنى : أن عيسى ـ عليه‌السلام ـ قال لأمه : لا تحزني يا أماه بسبب وجودى بدون أب ، وقرى عينا ، وطيبي نفسا لذلك ، فإما ترين من البشر أحدا كائنا من كان فسألك عن أمرى وشأنى فقولي له ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً﴾ أى : صمتا عن الكلام ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ لا في شأن هذا المولود ولا في شأن غيره ، وإنما سأترك الكلام لابني ليشرح لكم حقيقة أمره.

قالوا : إنما منعت من الكلام لأمرين : أحدهما : أن يكون عيسى هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها في إزالة التهمة عنها ، وفي هذا دلالة على تفويض الكلام إلى الأفضل. والثاني : «كراهة مجادلة السفهاء ، وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها» [1].

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ الحكيم ما فعلته مريم عند ما شعرت بالحمل وما قالته عند ما أحست بقرب الولادة ، وما قاله لها مولودها عيسى من كلام جميل طيب ، لإدخال الطمأنينة على قلبها.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ؛ مشهد مريم عند ما جاءت بوليدها إلى قومها ، وما قالوه لها ، وما قاله وليدها لهم ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فيقول :

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (٢٧) يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(٣٣)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ ...﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق القصة.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ٥٣٥.

والتقدير : وبعد أن استمعت مريم إلى ما قاله لها ابنها عيسى . عليه السلام . اطمأنت نفسها ، وقرت عينها ، فأتت به أى بمولودها عيسى إلى قومها. وهي تحمله معها من المكان القصي الذي اعتزلت فيه قومها.

قال الآلوسى : أى : جاءتهم مع ولدها حاملة إياه ، على أن الباء للمصاحبة. وجملة ﴿تَحْمِلُهُ﴾ في موضع الحال من ضمير مريم ... وكان هذا المجيء على ما أخرج سعيد بن منصور ، وابن عساكر عن ابن عباس بعد أربعين يوما حين طهرت من نفاسها ...

وظاهر الآية والأخبار «أنها جاءتهم به من غير طلب منهم ..» [1].

ثم حكى . سبحانه . ما قاله قومها عند ما رأوها ومعها وليدها فقال : ﴿قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا﴾.

أى : قالوا لها على سبيل الإنكار : يا مريم لقد جئت أى فعلت شيئا منكرا عجيبا في بابه ، حيث أتيت بولد من غير زوج نعرفه لك.

والفري : مأخوذ من فريت الجلد إذا قطعته ، أى : شيئا قاطعا وخارقا للعادة ، ومرادهم : أنها أتت بولدها عن طريق غير شرعي ، كما قال . تعالى . في آية أخرى : ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً﴾.

ويدل على أن مرادهم هذا ، قولهم بعد ذلك : ﴿يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾.

أى : ما كان أبوك رجلا زانيا أو معروفا بالفحش ﴿وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أى : تتعاطى الزنا. يقال : بغت المرأة ، إذا فجرت وابتعدت عن طريق الطهر والعفاف.

وليس المراد بهارون : هارون بن عمران أخا موسى ، وإنما المراد به رجل من قومها معروف بالصلاح والتقوى ، فشبهت به ، أى : يا أخت هارون في الصلاح والتقوى.

أو المراد به أخ لها كان يسمى بهذا الاسم.

قال الآلوسى ما ملخصه : «وقوله : ﴿يا أُخْتَ هارُونَ﴾ استئناف لتجديد التعيير ، وتأكيد التوبيخ ، وليس المراد بهارون أخا موسى بن عمران . عليهما السلام . لما أخرج أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، والطبراني ، وابن حبان ، وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرأون :

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٨٧.

﴿يا أُخْتَ هارُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا. قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم» ..

وعن قتادة قال : «هو رجل صالح في بنى إسرائيل. والأخت على هذا بمعنى المشابهة ، وشبهوها به تهكّما ، أو لما رأوا قبل من صلاحها ...» [1].

وعلى أية حال فإن مرادهم بقولهم هذا ، هو اتهام مريم بما هي بريئة منه ، والتعجب من حالها ، حيث انحدرت من أصول صالحة طاهرة ، ومع ذلك لم تنهج نهجهم.

وهنا نجد مريم تبدأ في الدفاع عن نفسها ، عن طريق وليدها ﴿فَأَشارَتْ إِلَيْهِ﴾.

أى : فأشارت إلى ابنها عيسى ، ولسان حالها يقول لهم : وجهوا كلامكم إليه فإنه سيخبركم بحقيقة الأمر.

ولكنهم لم يقتنعوا بإشارتها بل قالوا لها : ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

والمهد : اسم للمضطجع الذي يهيأ للصبي في رضاعه. وهو في الأصل مصدر مهده يمهده إذا بسطه وسواه.

أى : كيف نكلم طفلا صغيرا ما زال في مهده وفي حال رضاعه.

والفعل الماضي وهو ﴿كانَ﴾ هاهنا بمعنى الفعل المضارع المقترن بالحال ، كما يدل عليه سياق القصة.

ولكن عيسى ـ عليه‌السلام ـ أنطقه الله ـ تعالى ـ بما يدل على صدق مريم وطهارتها فقال : ﴿قالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ ..﴾ أى : قال عيسى في رده على المنكرين على أمه إتيانها به : إنى عبد الله ، خلقني بقدرته ، فأنا عبده وأنتم ـ أيضا ـ عبيده ، وهذا الخالق العظيم ﴿آتانِيَ الْكِتابَ﴾ أى : سبق في قضائه إيتائى الكتاب أى : الإنجيل أو التوراة أو مجموعهما.

وعبر في هذه الجملة وفيما بعدها بالفعل الماضي عما سيقع في المستقبل ، تنزيلا لتحقق الوقوع منزلة الوقوع الفعلى.

وهذا التعبير له نظائر كثيرة في القرآن الكريم ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٨٨.

شاءَ اللهُ. ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخرى. فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (١).

وقوله : ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ أدعو الناس إلى عبادته وحده ﴿وَجَعَلَنِي﴾ أيضا بجانب نبوتي ﴿مُبارَكاً﴾ أى : كثير الخير والبركة ﴿أَيْنَ ما كُنْتُ﴾ أى : حينما حللت جعلني مباركا ، فأينما شرطية وجوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ﴾ أى : بالمحافظة على أدائهما ﴿ما دُمْتُ حَيًّا﴾ في هذه الدنيا.

وقوله : ﴿وَبَرًّا بِوالِدَتِي﴾ ، أى : وجعلني كذلك مطيعا والدتي ، وبارا بها ، ومحسنا إليها ، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي﴾ سبحانه . فضلا منه وكرما ﴿جَبَّاراً شَقِيًّا﴾ أى : ولم يجعلني مغرورا متكبرا مرتكبا للمعاصي والموبقات.

﴿وَالسَّلامُ﴾ والأمان منه . تعالى . ﴿عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ مفارقا هذه الدنيا ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ للحساب والجزاء يوم القيامة.

فأنت ترى أن عيسى . عليه‌السلام . قد وصف نفسه بمجموعة من الصفات الفاضلة ، افتتحها بصفة العبودية لله رب العالمين ، لإرشاد الناس إلى تلك الحقيقة التي لا حق سواها. واختتمها برجاء الأمان له من الله . تعالى . في كل أطوار حياته.

ثم ختم . سبحانه . هذه القصة ببيان وجه الحق فيها ، وأنذر الذين وصفوا عيسى وأمه بما هما بريئان منه بسوء المصير. فقال . تعالى . :

﴿ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٨)

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٨.

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾(٤٠)

واسم الإشارة ﴿ذلِكَ﴾ في قوله : ﴿ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إشارة إلى ما ذكره الله . تعالى . قبل ذلك لعيسى من صفات حميدة ، ومن أخبار صادقة وهو مبتدأ ، وعيسى خبره ، وابن مريم صفته.

ولفظ : ﴿قَوْلَ﴾ فيه قراءتان سبعيتان إحداهما قراءة الجمهور بضم اللام ، والثانية قراءة ابن عامر وعاصم ، بفتحها.

وعلى القراءة بالرفع يكون ﴿قَوْلَ الْحَقِ﴾ خبر مبتدأ محذوف. فيكون المعنى : ذلك الذي أخبرناك عنه بشأن عيسى وأمه هو قول الحق . عزّ وجلّ . وهو قول لا يحوم حوله باطل ، ولا يخالطه ريب أو شك. فلفظ ﴿الْحَقِ﴾ يصح أن يراد به الله . سبحانه . لأنه من أسمائه ، ويصح أن يراد به ما هو ضد الباطل ، وهو الصدق والثبوت.

وعلى قراءة النصب يكون لفظ ﴿قَوْلَ﴾ مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة ، أى : ذلك الذي قصصناه عليك . أيها الرسول الكريم . من شأن عيسى ابن مريم ، هو القول الثابت الصادق. الذي أقول فيه قول الحق.

والإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته أى : القول الحق ، كقوله . تعالى . ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ أى : الوعد الصدق.

وقوله : ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ بيان لموقف الكافرين من هذا القول الحق الذي ذكره الله . تعالى . عن عيسى وأمه. و ﴿الَّذِي﴾ صفة للقول. أو للحق ، و ﴿يَمْتَرُونَ﴾ يشكون من المرية بمعنى الشك والجدل ...

أى : ذلك الذي ذكرناه لك من خبر عيسى هو القول الحق ، الذي شك في صدقه الكافرون ، وتنازع فيه الضالون ، فلا تلتفت إلى شكهم وكفرهم بل ذرهم في طغيانهم يعمهون.

ثم نزه . سبحانه . ذاته عن أن يكون له ولد فقال : ﴿ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ ...﴾ أى : ما يصح وما يستقيم وما يتصور في حقه . تعالى . أن يتخذ ولدا ، لأنه منزه عن ذلك ، لأن الولد إنما يتخذه الفانون للامتداد ، ويتخذه الضعفاء للنصرة ، والله . تعالى . هو الباقي بقاء أبديا ، وهو القوى القادر الذي لا يعجزه شيء.

و ﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾ لتأكيد هذا النفي وتعميمه.

وفي معنى هذه الآيات جاءت آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ في هذه السورة : ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ، تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً. وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾. (١)

ثم بين ـ سبحانه ـ ما يدل على غناه عن الولد والوالد والصاحب والشريك فقال : ﴿إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أى : لا يتصور في حقه ـ سبحانه ـ اتخاذ الولد ، لأنه إذا أراد قضاء أمر ، فإنما يقول له : كن ، فيكون في الحال ، بدون تأخير أو تردد.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ....﴾ قرأه ابن عامر والكوفيون بكسر همزة ﴿إِنَ﴾ على الاستئناف ، أى : وإن عيسى ـ عليه‌السلام ـ قد قال لقومه ـ أيضا ـ وإن الله ـ تعالى ـ هو ربي وهو ربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ، وهذا الذي أمرتكم به هو الصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه.

وقرأ الباقون بفتح همزة أن بتقدير حذف حرف الجر أى : وقال عيسى لقومه : ولأن الله ربي وربكم فاعبدوه ... كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ أى : ولأن المساجد لله ..

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف أهل الكتاب من عيسى ـ عليه‌السلام ـ فقال : ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

والأحزاب جمع حزب والمراد بهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا في شأنه ـ عليه‌السلام ـ فمنهم من اتهم أمه بما هي بريئة منه ، وهم اليهود كما في قوله : ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً﴾.

ومنهم من قال هو ابن الله ، أو هو الله ، أو إله مع الله ، أو هو ثالث ثلاثة ... إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة التي حكاها القرآن عن الضالين وهم النصارى.

ولفظ ويل مصدر لا فعل له من لفظه ، وهو كلمة عذاب ووعيد.

و ﴿مَشْهَدِ﴾ يصح أن يكون مصدرا ميميا بمعنى الشهود والحضور.

والمعنى : هكذا قال عيسى ـ عليه‌السلام ـ لقومه : ﴿اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ولكن الفرق الضالة من اليهود والنصارى اختلفوا فيما بينهم في شأنه اختلافا كبيرا ، وضلوا ضلالا

(١) سورة مريم الآية ٨٨ ـ ٩٢.

بعيدا ، حيث وصفوه بما هو برىء منه ، فويل لهؤلاء الكافرين من شهود ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة ، حيث سيلقون عذابا شديدا من الله بسبب ما نطقوا به من زور وبهتان.

وعبر عنهم بالموصول في قوله ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إيذانا بكفرهم جميعا ، وإشعارا بعلة الحكم.

قال أبو حيان : «ومعنى : ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أن الاختلاف لم يخرج عنهم ، بل كانوا هم المختلفين دون غيرهم» (١).

وجاء التعبير في قوله ﴿مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بالتنكير ، للتهويل من شأن هذا المشهد ، ومن شأن هذا اليوم وهو يوم القيامة ، الذي يشهده الثقلان وغيرهما من مخلوقات الله ـ تعالى ـ.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا ...﴾ تهكم بهم ، وتوعد لهم بالعذاب الشديد ، فهو تأكيد لما قبله.

و ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ صيغتا تعجب ، لفظهما لفظ الأمر ، ومعناهما التعجيب ، أى حمل المخاطب على التعجيب ، وفاعلهما الضمير المجرور بالباء ، وهي زائدة فيهما لزوما ، والمعنى : ما أسمع هؤلاء الكافرين وما أبصرهم في ذلك اليوم ، لما يخلع قلوبهم ، ويسود وجوههم ، مع أنهم كانوا في الدنيا صما وعميانا عن الحق الذي جاءتهم به رسلهم.

فالمراد باليوم في قوله ﴿لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ هو ما كانوا فيه في الدنيا من ضلال وغفلة عن الحق.

أى : أن هؤلاء القوم ما أعجب حالهم إنهم لا يسمعون ولا يبصرون في الدنيا حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة. وهم أسمع ما يكون السمع وأبصر ما يكون البصر ، عند ما يكون السمع والبصر وسيلة للخزى والعذاب في الآخرة.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه محمدا ﷺ بأن يخوف المشركين من أهوال يوم القيامة ، فقال : ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

والإنذار : الإعلام بالمخوف منه على وجه الترهيب والتحذير ، وأشد ما يخوف به يوم القيامة.

والحسرة : أشد الندم على الأمر الذي فات وانقضى ولا يمكن تداركه.

أى : وأنذر ـ أيها الرسول الكريم ـ المشركين ، وخوفهم من أهوال يوم القيامة ، يوم

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٦ ص ١٩١.

يتحسر الظالمون على تفريطهم في طاعة الله ، ولكن هذا التحسر لن ينفعهم ، لأن حكم الله قد نفذ فيهم وقضى الأمر بنجاة المؤمنين ، وبعذاب الفاسقين ، وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

وقوله : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿أَنْذِرْهُمْ﴾.

أى : أنذرهم لأنهم في حالة يحتاجون فيها إلى الإنذار وهي الغفلة وعدم الإيمان.

هذا ، وقد جاء في الحديث الصحيح ما يدل على أن المراد بقوله ـ تعالى ـ ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾.

أى : ذبح الموت. فقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد : يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم. هذا الموت وكلهم قد رآه. ثم ينادى يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم. هذا الموت وكلهم قد رآه. فيذبح. ثم يقول : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت. ثم قرأ ﷺ ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ »[1].

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما يدل على كمال قدرته ، وشمول ملكه فقال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها ..﴾ أى : إنا نحن وحدنا الذين نميت جميع الخلائق الساكنين بالأرض ، فلا يبقى لأحد غيرنا من سلطان عليهم أو عليها ، وهؤلاء الخلائق جميعا ﴿وَإِلَيْنا﴾ وحدنا ﴿يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة ، فنحاسبهم على أعمالهم.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ﴾.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن جانب من قصة زكريا ويحيى ، وعن قصة مريم وعيسى ، حديثا يهدى إلى الرشد ، ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، ويقذف بحقه على باطل المبطلين فيدمغه فإذا هو زاهق.

ثم أوردت السورة الكريمة القصة الثالثة وهي قصة إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ وما دار بينه وبين أبيه من حوار. قال ـ تعالى ـ :

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٢٢.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (٤١) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (٤٢) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (٤٣) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (٤٤) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (٤٥) قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾(٥٠)

قال الإمام الرازي ما ملخصه : «اعلم أن الغرض من هذه السورة ، بيان التوحيد والنبوة والحشر ، والمنكرون للتوحيد فريقان : فريق أثبت معبودا غير الله حيا عاقلا وهم النصارى ومن على شاكلتهم ، وفريق أثبت معبودا من الجماد ليس بحي ولا عاقل ، وهم عبدة الأوثان. والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلا أن ضلال الفريق الثاني أعظم. ولما بين ـ سبحانه ـ ضلال الفريق الأول ـ وهم النصارى ـ ، أتبعه بذكر الفريق الثاني ، وهم عبدة الأوثان قوم إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ »[1].

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ٥٤٤.

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ هو من أولى العزم من الرسل ، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب ، وهو الذي وصفه الله ـ تعالى ـ بجملة من الصفات الكريمة ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [1].

أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ للناس في هذا القرآن قصة أبيهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، لكي يعتبروا ويتعظوا ويقتدوا بهذا النبي الكريم في قوة إيمانه ، وصفاء يقينه وجميل أخلاقه.

وقوله : ﴿إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ استئناف مسوق لتعليل موجب الأمر في قوله : ﴿وَاذْكُرْ﴾.

والصديق : صيغة مبالغة من الصدق. أى : إنه كان ملازما للصدق في كل أقواله وأفعاله وأحواله ، كما كان نبيا من أولى العزم ، الذين فضلهم الله على غيرهم من الرسل الكرام.

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر صدقه وإخلاصه لدعوة الحق فقال : ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾.

والظرف ﴿إِذْ﴾ بدل اشتمال من ﴿إِبْراهِيمَ﴾ وجملة ﴿إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ معترضة بين البدل والمبدل منه لتعظيم شأنه ـ عليه السلام ـ..

والتاء في قوله ﴿يا أَبَتِ﴾ عوض عن ياء المتكلم ، إذ الأصل يا أبى ، وناداه بهذا الوصف دون أن يذكر اسمه : زيادة في احترامه واستمالة قلبه للحق.

أى : واذكر خبر إبراهيم وقت أن قال لأبيه آزر مستعطفا إياه : يا أبت لما ذا تعبد شيئا لا يسمع من يناديه. ولا يبصر من يقف أمامه ، ولا يغنى عنك شيئا من الإغناء ، لأنه لا يملك لنفسه ـ فضلا عن غيره ـ نفعا ولا ضرا.

ثم دعاه إلى اتباع الحق بألطف أسلوب فقال : ﴿يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ النافع الذي علمني الله ـ تعالى ـ إياه ﴿ما لَمْ يَأْتِكَ﴾ أنت ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، ﴿فَاتَّبِعْنِي﴾ فيما أدعوك إليه ﴿أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا﴾ أى : أهدك إلى الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ولا اضطراب.

ثم نهاه عن عبادة الشيطان ، لأنها جهل وانحطاط في التفكير فقال : ﴿يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ﴾ فإن عبادتك لهذه الأصنام هي عبادة وطاعة للشيطان الذي هو عدو للإنسان.

ثم علل له هذا النهى بقوله : ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا﴾ أى : إن الشيطان

---

(١) سورة هود الآية ٧٥.

الذي أغراك بعبادة هذه الأصنام كان للرحمن عصيا ، أى : كثير العصيان ، لا يهدى الناس إلى طاعة الله ، وإنما يهديهم إلى مخالفته ومعصيته وموجبات غضبه.

ثم ختم هذا النداء بما يدل على حبه له ، وشفقته عليه فقال : ﴿يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا﴾.

أى : يا أبت إنى أشفق عليك من أن ينزل بك عذاب من الرحمن بسبب إصرارك على عبادة غيره ، وبذلك تصبح قرينا للشيطان في العذاب بالنار ، لأنك انقدت له ، وخالفت طريق الحق.

بهذا الأسلوب الحكيم الهادئ الرقيق ... خاطب إبراهيم أباه ، وهو يدعوه إلى عبادته ـ تعالى ـ وحده.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال ما ملخصه : انظر كيف رتب إبراهيم الكلام مع أبيه في أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ، مع استعماله المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن.

وذلك أنه طلب منه ـ أولا ـ العلة في خطئه. طلب منبه على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه ... حيث عبد ما ليس به حس ولا شعور.

ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا ، فلم يصف أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق. ولكنه قال : إن معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك .. ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه ، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل .. ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة ، وما يجره ما هو فيه من الوبال.

ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لا حق له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال : ﴿إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ ...﴾.

وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : ﴿يا أَبَتِ﴾ توسلا واستعطافا ... [1].

ولكن هذه النصيحة الحكيمة الغالية من إبراهيم لأبيه. لم تصادف أذنا واعية ولم تحظ من أبيه بالقبول بل قوبلت بالاستنكار والتهديد فقد قال الأب الكافر لابنه المؤمن : ﴿أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.

والاستفهام في قوله ﴿أَراغِبٌ﴾ للإنكار والتهديد والرغبة عن الشيء : تركه عمدا زهدا فيه لعدم الحاجة إليه.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٩.

ولفظ ﴿راغِبٌ﴾ مبتدأ ، و ﴿أَنْتَ﴾ فاعل سد مسد الخبر ، و ﴿مَلِيًّا﴾ أى : زمنا طويلا. مأخوذ من الملاوة ، وهي الفترة الطويلة من الزمان ، ويقال لليل والنهار : الملوان.

والمعنى : قال والد إبراهيم له على سبيل التهديد والوعيد ، أتارك أنت يا إبراهيم عبادة آلهتي ، وكاره لتقرب الناس إليها ، ومنفرهم منها لئن لم تنته عن هذا المسلك ، ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالحجارة وبالكلام القبيح ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ بأن تغرب عن وجهى زمنا طويلا لا أحب أن أراك فيه.

وهكذا قابل الأب الكافر أدب ابنه المؤمن ، بالفظاظة والغلظة والتهديد والعناد والجهالة .. شأن القلب الذي أفسده الكفر.

ولكن إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ لم يقابل فظاظة أبيه وتهديده بالغضب والضيق ، بل قابل ذلك بسعة الصدر. وجميل المنطق ، حيث قال له : ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا﴾.

أى : لك منى ـ يا أبت ـ السلام الذي لا يخالطه جدال أو أذى ، والوداع الذي أقابل فيه إساءتك إلى بالإحسان إليك. وفضلا عن ذلك فإنى ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا﴾ أى : بارّا بي ، كثير الإحسان إلى.

يقال : فلان حفى بفلان حفاوة ، إذا بالغ في إكرامه ، واهتم بشأنه.

وقد وفي إبراهيم بوعده ، حيث استمر على استغفاره لأبيه إلى أن تبين له أنه عدو لله ـ تعالى ـ فتبرأ منه كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (1).

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك أن إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ عند ما رأى تصميم أبيه وقومه على الكفر والضلال ، قرر اعتزالهم والابتعاد عنهم فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾.

أى : وقال إبراهيم ـ أيضا ـ لأبيه : إنى بجانب استغفاري لك ، ودعوتي لك بالهداية ، فإنى سأعتزلك وأعتزل قومك ، وأعتزل عبادة أصنامكم التي تعبدونها من دون الله وأرتحل عنكم جميعا إلى أرض الله الواسعة ، وأخص ربي وخالقي بالعبادة والطاعة والدعاء ، فقد عودني ـ سبحانه ـ أن لا يخيب دعائي وتضرعي إليه.

---

(1) سورة التوبة الآية ١١٤.

وفي تصدير كلامه بلفظ ﴿عَسى﴾ دليل على تواضعه ، وعلى أدبه مع خالقه ـ تعالى ..

ثم بين ـ سبحانه ـ ما ترتب على اعتزال إبراهيم للشرك والمشركين فقال : ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا. وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا ، وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

أى : فحين اعتزل إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ أباه وقومه وآلهتهم الباطلة. لم نضيعه ، وإنما أكرمناه وتفضلنا عليه بأن وهبنا له إسحاق ويعقوب ليأنس بهما بعد أن فارق أباه وقومه من أجل إعلاء كلمتنا ﴿وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا﴾ أى : وكل واحد منهما جعلناه نبيا ﴿وَوَهَبْنا لَهُمْ﴾ أى : لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿مِنْ رَحْمَتِنا﴾ بأن جعلناهم أنبياء ومنحناهم الكثير من فضلنا وإحساننا ورزقنا.

وجعلنا لهم لسان صدق عليا ، بأن صيرنا الناس يثنون عليهم ويمدحونهم ويذكرونهم بالذكر الجميل ، لخصالهم الحميدة ، وأخلاقهم الكريمة.

وهكذا نرى أن اعتزال الشرك والمشركين ، والفسق والفاسقين ، يؤدى إلى السعادة الدينية والدنيوية ، وما أصدق قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا﴾.

وخص ـ سبحانه ـ هنا اسحق ويعقوب بالذكر دون إسماعيل لأن إسماعيل سيذكر فضله بعد قليل.

ثم مدح الله ـ تعالى ـ موسى ـ عليه‌السلام ـ وهو واحد من أولى العزم من الرسل ، وينتهى نسبه إلى إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥١) وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا﴾(٥٣)

ولفظ ﴿مُخْلَصاً﴾ فيه قراءتان سبعيتان ، إحداهما بفتح اللام ـ بصيغة اسم المفعول ـ أى : أخلصه الله ـ تعالى ـ لذاته ، واصطفاه ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي ..﴾ (١).

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٤.

والثانية بكسر اللام ـ بصيغة اسم الفاعل ـ أى : كان مخلصا لنا في عبادته وطاعته.

والمعنى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ للناس خبر أخيك موسى ـ عليه‌السلام ـ إنه كان من الذين أخلصناهم واصطفيناهم لحمل رسالتنا ، وكان من الذين أخلصوا لنا وحدنا العبادة والطاعة ، وكان ـ أيضا ـ (رَسُولاً) من جهتنا لتبليغ ما أمرناه بتبليغه ، وكان كذلك (نَبِيًّا) رفيع القدر ، عالى المكانة والمنزلة ، فقد جمع الله ـ تعالى ـ له بين هاتين الصفتين الساميتين صفة الرسالة وصفة النبوة.

وقوله ـ تعالى ـ : (وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا) بيان لفضائل أخرى منحها الله ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه‌السلام ـ ..

والطور : جبل بين مصر وقرى مدين ، الأيمن : أى الذي يلي يمين موسى.

قال الآلوسى : «والأيمن» صفة لجانب ، لقوله ـ تعالى ـ في آية أخرى : (جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ) بالنصب. أى : ناديناه من ناحيته اليمنى ، من اليمين المقابل لليسار. والمراد به يمين موسى ، أى : الناحية التي تلى يمينه «إذ الجبل نفسه لا ميمنة له ولا ميسرة».

ويجوز أن يكون الأيمن من اليمن وهو البركة ، وهو صفة لجانب ـ أيضا ـ أى : من جانبه الميمون المبارك ...

والمراد من ندائه من ذلك الجانب : ظهور كلامه ـ تعالى ـ من تلك الجهة ، والظاهر أنه ـ عليه‌السلام ـ إنما سمع الكلام اللفظي ...» (1).

وقوله (وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا) أى : وقربناه تقريب تشريف وتكريم حالة مناجاته لنا ، حيث أسمعناه كلامنا ، واصطفيناه لحمل رسالتنا إلى الناس.

فقوله (نَجِيًّا) من المناجاة وهي المسارة بالكلام ، وهو حال من مفعول وقربناه ، أى : وقربنا موسى منا حال كونه مناجيا لنا.

وقوله ـ تعالى ـ : (وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا) بيان لمظهر آخر من مظاهر فضل الله ـ تعالى ـ على عبده موسى.

أى : ووهبنا لموسى من أجل رحمتنا له. وعطفنا عليه. أخاه هارون ليكون عونا له في أداء رسالته كما قال ـ تعالى ـ حكاية عنه (وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي. هارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ...).

وقوله : (نَبِيًّا) حال من هارون ، أى حال كونه نبيا من أنبياء الله ـ عزوجل ـ ..

(1) تفسير الآلوسى ج 16 ص 103.

هذا ، وما ذكره الله ـ تعالى ـ هنا مجملا عن ندائه لموسى من جانب الطور الأيمن ، قد جاء مفصلا في مواطن أخرى منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ، فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ ...﴾ [1].

ثم ساق ـ سبحانه ـ جانبا من فضائل إسماعيل ـ عليه‌السلام ـ وهو الفرع الثاني من ذرية إبراهيم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥٤) وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾(٥٥)

أى : واذكر في هذا الكتاب لقومك ـ أيها الرسول الكريم ـ خبر جدك إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما‌السلام ـ لكي يتأسوا به في صفاته الجليل ، ﴿إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ﴾ ويكفى للدلالة على صدق وعده ، وشدة وفائه ، أنه وعد أباه بصير على ذبحه فلم يخلف وعده. بل قال ـ كما حكى القرآن عنه ـ ﴿يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

ووصف بصدق الوعد وإن كان غيره من النبيين كذلك تشريفا وتكريما له ، ولأن هذا الوصف من الأوصاف التي اكتملت شهرتها فيه.

وقد مدح الله ـ تعالى ـ الأوفياء بعهودهم في آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

وروى الإمام الطبراني عن ابن مسعود قال : لا يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجز له فإن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم قال : «العدة دين» ...

وقال القرطبي : «والعرب تمتدح بالوفاء ، وتذم بالخلف والغدر ، وكذلك سائر الأمم ، ولقد أحسن القائل :

---

(١) سورة القصص الآيتان ٢٩ ، ٣٠.

متى ما يقل حر لصاحب حاجة نعم ، يقضها ، والحر للوعد ضامن

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ أى : وكان من رسلنا الذين أرسلناهم لتبليغ شريعتنا ، ومن أنبيائنا الذين رفعنا منزلتهم وأعلينا قدرهم.

قالوا : وكانت رسالته بشريعة أبيه إلى قبيلة جرهم من عرب اليمن ، الذين نزلوا على أمه هاجر بوادي مكة حين خلفها إبراهيم هي وابنها بذلك الوادي ، فسكنوا هناك حتى كبر إسماعيل وزوجوه منهم ، وأرسله الله ـ تعالى ـ إليهم» [1].

ثم وصفه الله ـ تعالى ـ بصفة كريمة ثالثة فقال : ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ...﴾.

أى : وكان بجانب حرصه على أداء هاتين الفريضتين ، يأمر أهله وأقرب الناس إليه بالحرص على أدائهما حتى يكون هو وأهله قدوة لغيرهم في العمل الصالح.

وكان النبي ﷺ يفعل ذلك الذي أثنى الله به على نبيه إسماعيل استجابة لقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ..﴾.

قال الإمام ابن كثير : «وقد جاء في الحديث عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ : «رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء».

وعن أبى سعيد عن النبي ﷺ قال : «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين ، كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات».

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الصفات الجميلة التي مدح بها نبيه إسماعيل فقال : ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾.

أى : وكان إسماعيل عند ربه مرضى الخصال ، لاستقامته في أقواله وأفعاله ، وللصدق في وعده ، ولأمره أهله بالصلاة والزكاة ، ولا شك أن من جمع هذه المناقب كان ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه.

ثم ختم الله هذا الحديث عن بعض الأنبياء ، بذكر جانب من قصة إدريس ـ عليه السلام ـ فقال :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا﴾(٥٧)

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٧.

قال الآلوسى ما ملخصه : «وإدريس هو نبي قبل نوح وبينهما ألف سنة وهو أخنوخ ابن يرد .. بن شيث بن آدم. وهو أول من نظر في النجوم والحساب ، وأول رسول بعد آدم ...» [1].

أى : واذكر ـ أيضا ـ في الكتاب خبر إدريس ـ عليه السلام ـ .. إنه كان ملازما للصدق ، وكان ممن شرفناهم بالنبوة.

وقوله : ﴿وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا﴾ قالوا : هو شرف النبوة والزلفى عند الله ـ تعالى ـ أو المراد برفعه إلى المكان العلى : إسكانه في الجنة ، إذ لا شرف أعلى من ذلك ..

وروى أن النابغة الجعدي لما أنشد قوله :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟ قال : إلى الجنة. قال : أجل إن شاء الله ـ تعالى ـ ..

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن طرف من قصص زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وقد وصفتهم بما هم أهله من صفات كريمة ، ليتأسى الناس بهم في ذلك.

ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك موازنة بين هؤلاء الأخيار ، وبين من جاءوا بعدهم من أقوامهم الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وتفتح السورة باب التوبة ليدخله بصدق وإخلاص المخطئون ، حتى يكفر الله ـ تعالى ـ عنهم ما فرط منهم. قال ـ تعالى ـ :

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩)

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٠٥.

إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا﴾(٦٣)

واسم الإشارة في قوله : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ ...﴾ يعود إلى الأنبياء المذكورين في هذه السورة. وهم عشرة أولهم في الذكر زكريا وآخرهم إدريس.

قال القرطبي : «قوله ـ تعالى ـ ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ يريد إدريس وحده ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ﴾ يريد إبراهيم وحده ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ﴾ يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وَ﴾ من ذرية ﴿إِسْرائِيلَ﴾ يريد موسى وهارون وزكريا ويحيي وعيسى فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم ، ولإبراهيم شرف القرب من نوح ، ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، شرف القرب من إبراهيم» (١).

وقوله : ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا﴾ معطوف على قوله ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ ومن للتبعيض.

أى : ومن جملة من أنعم الله عليهم ، أولئك الذين هديناهم إلى طريق الحق واجتبيناهم واخترناهم لحمل رسالتنا ووحينا.

فأنت ترى أن الله ـ تعالى ـ قد جمع لهؤلاء المنعم عليهم جملة من المزايا منها : أعمالهم الصالحة ، ومناقبهم الحميدة التي سبق الحديث عنها ، ومنها : كونهم من نسل هؤلاء المصطفين الأخيار ، ومنها أنهم ممن هداهم الله ـ تعالى ـ واصطفاهم لحمل رسالته.

وقد بين ـ سبحانه ـ في سورة النساء من أنعم عليهم بصورة أكثر شمولا فقال : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً﴾ (٢).

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٢٠.

(٢) آية ٦٩.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾ بيان لرقة مشاعرهم ، وشدة تأثرهم عند سماع آيات الله ـ تعالى ..

فالجملة الكريمة استئناف مسوق لبيان عظم خشيتهم من الله ـ تعالى ـ أو هي خبر لاسم الإشارة ﴿أُولئِكَ﴾ و ﴿سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾ جمع ساجد وباك.

أى : أولئك الذين أنعم الله ـ تعالى ـ عليهم ، من صفاتهم أنهم إذا تتلى عليهم آيات الرحمن ، المتضمنة لتمجيده وتعظيمه وحججه .. خروا على جباههم ساجدين وباكين. وسقطوا خاضعين خاشعين خوفا ورجاء ، وتعظيما وتمجيدا لله رب العالمين.

وجمع ـ سبحانه ـ بين السجود والبكاء بالنسبة لهم ، للإشعار بأنهم مع تعظيمهم الشديد لمقام ربهم ، فهم أصحاب قلوب رقيقة ، وعواطف جياشة بالخوف من الله ـ تعالى ..

وفي معنى هذه الجملة الكريمة وردت آيات كثيرة ، منه قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً* وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً* وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٢).

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن من صفات المؤمنين الصادقين ، أنهم يتأثرون تأثرا عظيما عند سماعهم لكلام الله ـ تعالى ـ ، تأثرا يجعلهم يبكون ويسجدون وتقشعر جلودهم ، وتوجل قلوبهم ، وتلين نفوسهم.

قال ابن كثير ـ رحمه‌الله ـ : قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾ أى : إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعا واستكانة وشكرا على ما هم فيه من نعم .. فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا اقتداء بهم ، واتباعا لمنوالهم وقرأ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ هذه الآية فسجد وقال : هذا السجود فأين البكاء» (٣).

ثم بين ـ سبحانه ـ ما حدث من الذين جاءوا بعد هؤلاء المنعم عليهم فقال : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ، أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

---

(١) سورة الإسراء الآيات من ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٢) سورة المائدة الآية ٨٣.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٢٧.

ولفظ الخلف بسكون اللام ـ الأولاد ، والواحد والجمع فيه سواء ، وأكثر ما يطلق على الأشرار والطالحين ، ومنه المثل السائر : «سكت ألفا ونطق خلفا» وقوله الشاعر :

ذهب الذين نعيش في أكنافهم   وبقيت في خلف كجلد الأجرب

والمراد بهذا اللفظ في الآية : اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين الذين جاءوا بعد أنبيائهم ، ولكنهم خالفوا شريعتهم ، وأهملوا ما أمروهم به وما نهوهم عنه.

أما لفظ «الخلف» بفتح اللام ـ فيطلق على البدل ولدا كان أو غير ولد وأكثر استعمالاته في المدح ، ومنه قوله ﷺ : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ..».

والمعنى : فخلف من بعد أولئك الأخيار الذين أنعم الله عليهم ، خلف سوء وشر ، ومن الأدلة على سوئهم وفجورهم أنهم ﴿أَضاعُوا الصَّلاةَ﴾ بأن تركوها ، أو لم يؤدوها على وجهها المشروع ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ﴾ التي جعلتهم ينهمكون في المعاصي ، ويسارعون في اقتراف المنكرات.

وقوله ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ بيان لسوء عاقبتهم ، أى : فسوف يلقى هؤلاء المضيعون للصلاة ، المتبعون للشهوات ، خسرانا وشرا في دنياهم وآخرتهم ، بسبب ضلالهم وتنكبهم الصراط المستقيم.

فالمراد بالغيّ : الخسران والضلال. يقال : غوى فلان يغوى إذ ضل. والاسم الغواية.

وقيل : المراد بالغيّ هنا : واد في جهنم تستعيذ من حره أوديتها. وقيل : هو نهر في أسفل جهنم يسيل فيه صديد أهلها.

ثم فتح ـ سبحانه ـ للتائبين باب الرحمة فقال : ﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ...﴾.

أى : هذا العقاب الشديد للمضيعين للصلاة ، وللمتبعين للشهوات ، لكن من تاب منهم توبة نصوحا ، وآمن بالله ـ تعالى ـ حق الإيمان ، وعمل في دنياه الأعمال الصالحة.

﴿فَأُولئِكَ﴾ المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ بفضله ـ تعالى ـ ورحمته ﴿وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ أى : ولا ينقصون من أجور أعمالهم شيئا.

وقوله ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ﴾. بدل من الجنة في قوله ﴿فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾.

أى : هؤلاء التائبون المؤمنون العاملون للصالحات يدخلهم الله ـ تعالى ـ جنات عدن ، أى : الجنات الدائمة التي وعدهم الرحمن بدخولها ، وكان هذا الوعد في الدنيا قبل أن

يشاهدوها أو يروها.

فقوله : ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من المفعول وهو ﴿عِبادَهُ﴾ أى : وعدهم بها حالة كونهم غائبين عنها ، لا يرونها ، وإنما آمنوا بوجودها بمجرد إخباره ـ سبحانه ـ لهم بذلك.

وقد أكد ـ سبحانه ـ هذا الوعد لهم في الدنيا بقوله : ﴿إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ أى : إنه ـ تعالى ـ كان وما زال ما وعد به عباده وهو الجنة ﴿مَأْتِيًّا﴾ أى : يأتيه ويصل إليه من وعده الله ـ تعالى ـ به ، لأنه ـ سبحانه ـ لا يخلف وعده.

فقوله : ﴿مَأْتِيًّا﴾ اسم مفعول من أتاه الشيء بمعنى جاءه ، وقيل : هو اسم مفعول بمعنى فاعل ، أى : إن وعده ـ سبحانه ـ لعباده كان آتيا لا ريب فيه.

ثم وصف ـ سبحانه ـ الجنات وأهلها بما يحمل العقلاء على العمل الصالح الذي يوصلهم إليها بفضله ـ تعالى ـ وكرمه فقال : ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً ..﴾.

واللغو : هو فضول الكلام ، وما لا قيمة له منه ، ويدخل فيه الكلام الباطل.

وقوله ﴿إِلَّا سَلاماً﴾ الظاهر فيه أنه استثناء منقطع ، لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه.

أى : لا يسمعون فيها كلاما لغوا ، لكنهم يسمعون فيها سلاما. أى : تسليما من الملائكة عليهم ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ ..﴾.

أو يسمعون فيها تسليما وتحية من بعضهم على بعض ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ﴾.

قال الآلوسى : قوله إلا سلاما ، استثناء منقطع ، والسلام إما بمعناه المعروف.

أى : لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم ، أو تسليم بعضهم على بعض ، أو بمعنى الكلام السالم من العيب والنقص ، أى : لكن يسمعون كلاما سالما من العيب والنقص.

وجوز أن يكون استثناء متصلا ، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كما في قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وهو يفيد نفى سماع اللغو بالطريق البرهاني الأقوى. والاتصال على هذا على طريق الفرض والتقدير ، ولو لا ذلك لم يقع موقعه من الحسن والمبالغة» [1].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١١١.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ بيان لدوام رزقهم فيها بدون انقطاع ، إذ ليس في الجنة نهار ولا ليل ، ولا بكرة ولا عشى ...

قال القرطبي ما ملخصه قوله ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أى : لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيا ، أى : في قدر هذين الوقتين ، إذ لا بكرة ثم ـ أى هناك ـ ولا عشيا .. وقيل : رزقهم فيها غير منقطع ...

وخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث أبان عن الحسن وأبى قلابة قالا : قال رجل يا رسول الله ، هل في الجنة من ليل؟ قال ﷺ : «وما هيجك على هذا»؟ قال : سمعت الله ـ تعالى ـ يذكر في الكتاب : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فقلت : الليل بين البكرة والعشى. فقال رسول الله ﷺ : «ليس هناك ليل وإنما هو ضوء ونور ، يرد الغدو على الرواح ، والرواح على الغدو ، وتأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا ، وتسلم عليهم الملائكة».

ثم قال الإمام القرطبي : «وهذا في غاية البيان لمعنى الآية ...» (١).

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى تعظيمه لشأن الجنة تعظيما آخر فقال : ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا﴾.

فاسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ يعود إلى ما تقدم من قوله : ﴿فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ...﴾ وقوله ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ ..﴾.

أى : تلك هي الجنة العظيمة الشأن ، العالية القدر ، التي نجعلها ميراثا للمؤمنين الصادقين المتقين من عبادنا ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ وكما قال ـ سبحانه ـ : ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿نُورِثُ﴾ .. أى : نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال المورث ، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة وقد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية وهي الجنة ، فإذا أدخلهم ـ سبحانه ـ الجنة ، فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى ..» (٢).

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما يدل على كمال قدرته ، وشمول علمه ، فقال ـ تعالى ـ :

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٢٦.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٨.

﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾(٦٥)

والتنزل : النزول على مهل. فإنه مطاوع نزل . بالتشديد . ، يقال : نزلته فتنزل ، إذا حدث النزول على مهل وتدرج. وقد يطلق التنزيل بمعنى النزول مطلقا ، إلا أن المناسب هنا هو المعنى الأول.

والآية الكريمة حكاية لما قاله جبريل للنبي ﷺ ، فقد ذكر كثير من المفسرين أن الوحى احتبس عن الرسول ﷺ لفترة من الوقت بعد أن سأله المشركون أسئلة تتعلق بأصحاب الكهف. وبذي القرنين وبالروح ، حتى قال المشركون : إن رب محمد ﷺ قد قلاه . أى : أبغضه وكرهه . فلما نزل جبريل على النبي ﷺ بعد فترة من غياب . قيل خمسة عشر يوما وقيل أكثر قال له : يا جبريل احتبست عنى حتى ساء ظني واشتقت إليك فقال له جبريل : إنى كنت أشوق ولكني عبد مأمور ، إذا بعثت جئت ، وإذا حبست احتبست ، وأنزل الله . تعالى . هذه الآية وسورة الضحى» [1].

وقال الآلوسى : «ولا يأبى ما تقدم في سبب النزول ما أخرجه أحمد ، والبخاري والترمذي ، والنسائي ، وجماعة ، في سببه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت : ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ..﴾ لجواز أن يكون ﷺ قال ذلك في محاورته السابقة . أيضا . ، واقتصر في كل رواية على شيء مما وقع في المحاورة ...» [2].

والمعنى : قال جبريل للرسول ﷺ عند ما سأله عن سبب احتباسه عنه لفترة من الوقت : يا محمد إنى ما أتنزل عليك وقتا بعد وقت ، إلا بأمر ربك وإرادته ، فأنا عبده الذي لا يعصى له أمرا ...

---

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ٨٧.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١١٤.

﴿لَهُ﴾ . سبحانه . ﴿ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ﴾ أى : له وحده جميع الجهات والأماكن ، وجميع الأزمان الحاضرة والماضية والمستقبلة ، وما بين ذلك ، فلا نقدر أن ننتقل من جهة إلى جهة ، أو من وقت إلى وقت إلا بأمر ربك ومشيئته.

فالجملة الكريمة مسوقة لبيان ملكية الله . تعالى . لكل شيء ، وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء.

وقوله . تعالى . : ﴿وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ مؤكد لما قبله من إثبات قدرة الله . تعالى . وعلمه.

أى : وما كان ربك . أيها الرسول الكريم . ناسيا أو تاركا لك أو مهملا لشأنك ، ولكنه . سبحانه . محيط بأحوالك وبأحوال جميع المخلوقات ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ، وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾.

قال ابن كثير : «قال ابن أبي حاتم : حدثنا يزيد بن محمد ... عن أبي الدرداء يرفعه قال : «ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا» ثم تلا هذه الآية : ﴿وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (١).

ثم قال . تعالى . : ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما﴾ أى : هو رب السموات والأرض ورب ما بينهما ، وهو خالقهما وخالق كل شيء ، ومالكهما ومالك كل شيء.

وما دام الأمر كذلك : ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ﴾ أى : فأخلص له العبادة ووطن نفسك على أداء هذه العبادة بصبر وجلد وقوة احتمال ، فإن المداومة على طاعة الله تحتاج إلى عزيمة صادقة ، ومجاهدة للنفس الأمارة بالسوء.

والاستفهام في قوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ للإنكار والنفي. والسمى بمعنى المسامى والمضاهي والنظير والشبيه.

أى : هل تعلم له نظيرا أو شبيها يستحق معه المشاركة في العبادة أو الطاعة؟ كلا ، إنك لا تعلم ذلك ، لأنه . سبحانه . هو وحده المستحق للعبادة والطاعة ، إذ هو الخالق لكل شيء والعليم بكل شيء ، والقادر على كل شيء ، وما سواه إنما هو مخلوق له ، وساجد له طوعا أو كرها ، ولا شبهة في صفة من صفاته ، فهو . سبحانه . ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣١.

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك موقف المشركين من عقيدة البعث. فحكت أقوالهم الباطلة ، وردت عليهم بما يكبتهم وبينت أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وأن النجاة في هذا اليوم للمتقين ، والعذاب والخسران للكافرين قال ـ تعالى ـ :

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (٦٧) فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا﴾(٧٢)

ذكر كثير من المفسرين أن قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسانُ ...﴾ نزل في أشخاص معينين.

فمنهم من يرى أن هذه الآية نزلت في «أبى بن خلف» فإنه أخذ عظما باليا ، فجعل يفتته بيده ، ويذريه في الريح ويقول : زعم محمد ﷺ أننا نبعث بعد أن نموت ونصير مثل هذا العظم البالي ومنهم من يرى أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ، أو في العاصي بن وائل ، أو في أبى جهل.

وعلى كل واحد من هذه الأقوال تكون أل في الإنسان للعهد ، والمراد بها أحد هؤلاء الأشخاص ، ويكون لفظ الإنسان من قبيل العام الذي أريد به الخصوص.

ومن الأساليب العربية المعروفة ، إسناد الفعل إلى المجموع ، مع أن فاعله بعضهم لا جميعهم كما يقال : بنو فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم ، ومن هذا القبيل قول الفرزدق :

فسيوف بني عبس وقد ضربوا به ... نبت بيدي ورقاء من رأس خالد

فقد أسند الضرب إلى بنى عبس ، مع أنه صرح بأن الضارب هو ورقاء الذي كان السيف بيده.

وقيل : المراد بالإنسان هنا : جماعة معينون وهم الكفرة المنكرون للبعث أو المراد : جنس الكافر المنكر للبعث.

و «إذا» في قوله : ﴿أَإِذا ما مِتُ﴾ منصوب بفعل مضمر دل عليه جزاء الشرط.

والمعنى : ويقول هذا الإنسان الجاهل الجحود ، المنكر للبعث والنشور ، أأعود للحياة مرة أخرى بعد موتى ، وبعد أن أكون كالعظام النخرة.

والاستفهام للإنكار والنفي ، وعبر ـ سبحانه ـ بالمضارع ﴿يَقُولُ﴾ لاستحضار تلك الصورة الغريبة ، وتلك الأقوال المنكرة التي صدرت عن هذا الكافر ، أو لإفادة أن هذا القول موجود ومستمر عند كثير من الكافرين.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ حكاية عن هؤلاء الجاحدين : ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [(١)].

وقوله ـ عزوجل ـ : ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ. أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ﴾ [(٢)].

وقد رد الله ـ تعالى ـ عليهم بما يبطل قولهم ، ويخرس ألسنتهم فقال : ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾.

والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والواو للعطف على مقدر.

والمعنى : أيقول هذا الإنسان ذلك القول الباطل ، ولا يتذكر أننا أوجدناه بقدرتنا من العدم ولم يكن شيئا مذكورا ، ومن المعروف عند العقلاء ، أن إعادة الإنسان إلى الحياة بعد وجوده ، أيسر من إيجاده من العدم.

فالآية الكريمة ترد على كل جاحد للبعث بدليل منطقي برهاني ، يهدى القلوب إلى الحق ، ويقنع العقول بأن البعث حق وصدق.

وفي معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات أخرى كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ ﴿وَضَرَبَ لَنا

---

(١) سورة ق الآية ٣.

(٢) سورة النازعات الآيات ١٠ إلى ١٢.

مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ..﴾ (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢).

قال الإمام ابن كثير : «وفي الحديث الصحيح ـ الذي يرويه النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم عن ربه : «يقول الله ـ تعالى ـ كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني ، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني. أما تكذيبه لي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق أهون على من آخره. وأما أذاه إياى فقوله : «إن لي ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد».

ثم عقب ـ سبحانه ـ على هذا التوبيخ والتقريع لهذا الإنسان الجاحد ، بقسم منه ـ سبحانه ـ على وقوع البعث والنشور ، فقال : ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ، ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾.

والحشر : الجمع. يقال : حشر القائد جنده ، إذا جمعهم.

والمراد بالشياطين : أولئك الأشرار الذين كانوا في الدنيا يوسوسون لهم بإنكار البعث.

أى : أقسم لك بذاتى ـ أيها الرسول الكريم ـ أن هؤلاء المنكرين للبعث لنجمعنهم جميعا يوم القيامة للحساب والجزاء ، ولنجمعن معهم الشياطين الذين كانوا يضلونهم في الدنيا.

قالوا : وفائدة القسم أمران : أحدهما : أن العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين ، والثاني : أن في إقسام الله ـ تعالى ـ باسمه ، مضافا إلى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم رفعا منه لشأنه ، كما رفع من شأن السموات والأرض في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ (٣).

وقوله : ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ تصوير حسى بليغ لسوء مصيرهم ، ونكد حالهم.

و ﴿جِثِيًّا﴾ جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه. يقال : جثا فلان يجثو ويجثى جثوا وجثيا فهو جاث إذا جلس على ركبتيه ، أو قام على أطراف أصابعه. والعادة عند العرب أنهم إذا كانوا في موقف شديد ، وأمر ضنك جثوا على ركبهم.

---

(١) سورة يس الآيتان ٧٨ ، ٧٩.

(٢) سورة الواقعة الآية ٦٢.

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٧٢.

أى : فوربك لنحضرنهم يوم القيامة للحساب ومعهم شياطينهم ، ثم لنحضرنهم جميعا حول جهنم ، حالة كونهم باركين على الركب ، عجزا منهم عن القيام ، بسبب ما يصيبهم من هول يوم القيامة وشدته.

قال . تعالى . : ﴿وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١).

ثم يخص . سبحانه . بالذكر المصير المفزع للمتكبرين من هؤلاء الكافرين فيقول : ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا﴾.

والنزع : العزل والإخراج. يقال : نزع السلطان عامله ، إذا عزله وأخرجه من عمله ، والشيعة في الأصل : الجماعة من الناس يتعاونون فيما بينهم على أمر من الأمور ، يقال : تشايع القوم ، إذا تعاونوا فيما بينهم.

و ﴿عِتِيًّا﴾ أى : خروجا عن الطاعة والاستجابة للأمر ، يقال : عتا فلان يعتو عتوا . من باب قعد . فهو عات إذا استكبر وجاوز حدوده في العصيان والطغيان.

والمعنى : ثم لنستخرجن من كل طائفة تشايعت وتعاهدت على الكفر بالبعث ، والجحود للحق ، الذين هم أشد خروجا عن طاعتنا وامتثال أمرنا فنبدأ بتعذيبهم أولا ، لأنهم أشد من غيرهم في العتو والعناد والجحود والضلال.

قال الجمل ما ملخصه : «وأظهر الأعاريب في قوله : ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ أن «أى» موصولة بمعنى الذي. وأن حركتها حركة بناء . أى هي مبنية على الضم . ، وأشد خبر مبتدأ مضمر.

والجملة صلة لأى. وأيهم وصلتها في محل نصب مفعولا به لننزعن. وعتيا تمييز محول عن المبتدأ المحذوف الذي هو أشد ، أى : جراءته على الرحمن أشد من جراءة غيره» (٢).

وقوله . تعالى . : ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا﴾ بيان لشمول علمه . تعالى . بأحوال هؤلاء الجاحدين ، وبأحوال غيرهم.

و ﴿صِلِيًّا﴾ مصدر صلى النار . كرضى . يصلاها صليا . بكسر الصاد وضمها . إذا ذاق حرها ، واكتوى بها.

أى : ثم لنحن أعلم من كل أحد سوانا ، بالذين هم أحق بجهنم ، وباصطلاء نارها ، وبالاكتواء بحرها وسعيرها ، لأننا لا يخفى علينا شيء من أحوال خلقنا وسنجازى المتقين بما يستحقون من خير وثواب ، وسنجازى الجاحدين بما يستحقون من إهانة وعذاب.

---

(١) سورة الجاثية الآيتان ٢٨ ، ٢٩.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٧٣.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن الجميع سيرد جهنم ، فقال : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾.

وللعلماء أقوال متعددة في المراد بقوله ـ تعالى ـ ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها﴾.

فمنهم من يرى أن المراد بورودها : دخولها فجميع الناس مؤمنهم وكافرهم يدخلونها ، إلا أن النار تكون بردا وسلاما على المؤمنين عند دخولهم إياها ، وتكون لهيبا وسعيرا على غيرهم.

ومنهم من يرى أن المراد بورودها : رؤيتها والقرب منها والإشراف عليها دون دخولها. كما في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ﴾ أى : أشرف عليه وقاربه.

ومنهم من يرى أن المراد بورودها ، خصوص الكافرين ، أى : أنهم وحدهم هم الذين يردون عليها ويدخلونها. أما المؤمنون فلا يردون عليها ولا يدخلونها.

ويبدو لنا أن المراد بالورود هنا : الدخول ، أى : دخول النار بالنسبة للناس جميعا إلا أنها تكون بردا وسلاما على المؤمنين ، وهناك أدلة على ذلك منها.

أن هناك آيات قرآنية جاء فيها الورود ، بمعنى الدخول ، ومن هذه الآيات قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ. إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ. وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ. يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (1).

ومعنى فأوردهم : فأدخلهم.

يضاف إلى ذلك أن قوله ـ تعالى ـ بعد هذه الآية : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا﴾ قرينة قوية على أن المراد بقوله ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها ..﴾ أى : داخلها سواء أكان مؤمنا أم كافرا ، إلا أنه ـ سبحانه ـ بفضله وكرمه ينجى الذين اتقوا من حرها ، ويترك الظالمين يصطلون بسعيرها.

كذلك مما يشهد بأن الورود بمعنى الدخول ، ما أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حميد ؛ والترمذي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ... عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن ، وقال آخرون يدخلونها جميعا ، ثم ينجى الله الذين اتقوا.

قال : فلقيت جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ فذكرت له ذلك فقال ـ وأهوى بإصبعه على أذنيه ـ صمّتا إن لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «لا يبقى بر

(1) سورة هود الآيات ص ٩٦ ، ٩٨.

ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما ، كما كانت على إبراهيم ؛ حتى إن للنار ضجيجا من بردهم ، ثم ينجى الله الذين اتقوا ، ويذر الظالمين فيها جثيا» (١).

ولا يمنع من كون الورود بمعنى الدخول قوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ. لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها ..﴾ لأن دخول المؤمنين فيها لا يجعلهم يشعرون بحرها أو حسيسها ، وإنما هي تكون بردا وسلاما عليهم ، كما جاء في الحديث الشريف.

قال الإمام القرطبي بعد أن توسع في ذكر هذه الأقوال : «وظاهر الورود الدخول .. إلا أنها تكون بردا وسلاما على المؤمنين ، وينجون منها سالمين. قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنا نرد النار فيقال لهم : لقد وردتموها فألفيتموها رمادا.

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال ، فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها ، فقد أبعد عنها ونجى منها ، نجانا الله ـ تعالى ـ منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالما ، وخرج منها غانما.

فإن قيل : فهل يدخل الأنبياء النار؟ قلنا : لا نطلق هذا ، ولكن نقول : إن الخلق جميعا يردونها ـ كما دل عليه حديث جابر ـ فالعصاة يدخلونها بجرائمهم ، والأولياء والسعداء لشفاعتهم ، فبين الدخولين بون ..» (٢).

والمعنى : وما منكم ـ أيها الناس ـ أحد إلا وهو داخل النار ، سواء أكان مسلما أم كافرا ، إلا أنها تكون بردا وسلاما على المؤمنين. وهذا الدخول فيها كان على ربك أمرا واجبا ومحتوما ، بمقتضى حكمته الإلهية ، لا بإيجاب أحد عليه.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أى : ثم بعد دخول الناس جميعا النار ، ننجي الذين اتقوا ، فنخرجهم منها دون أن يذوقوا حرها ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا﴾ أى : ونترك الظالمين في النار مخلدين فيها. جاثين على ركبهم ، عاجزين عن الحركة ، من شدة ما يصيبهم من هولها وسعيرها.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا أقوال الجاحدين في شأن البعث والحساب ، وردت عليهم ردا يبطل أقوالهم ، كما أثبتت أن البعث حق ، وأن الحساب حق ، وأن الظالمين سيدخلون النار ، وأن المؤمنين سينجيهم الله ـ تعالى ـ بفضله منها.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣٢. الآلوسى ج ١٦ ص ١٢١.

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٣٩.

ثم تسوق السورة بعد ذلك موقف الكافرين عند سماعهم لآيات الله ـ تعالى ـ كما تسوق ما قالوه للمؤمنين على سبيل التفاخر عليهم ، وما رد به القرآن على هؤلاء المترفين المتعالين ، قال ـ تعالى ـ :

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً (٧٤) قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً (٧٥) وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾(٧٦)

فقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ...﴾ حكاية لما قاله الكافرون للمؤمنين على سبيل التباهي والتفاخر.

أى : وإذا تتلى على هؤلاء المشركين المنكرين للبعث آياتنا البينات الواضحات ، الدالة على صحة وقوع البعث والحساب يوم القيامة ﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على سبيل العناد والتعالي ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، قالوا لهم انظروا ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

والمقام ـ بفتح الميم ـ : مكان القيام والمراد به مساكنهم ومنازلهم التي يسكنوها وينزلون بها.

والندى والنادي والمنتدى : مجلس القوم ومكان تجمعهم.

يقال : ندوت القوم أندوهم ندوا ، إذا جمعتهم في مجلس للانتداء. ومنه : دار الندوة للمكان الذي كانت تجتمع فيه قريش للتشاور في أمورها.

أى : وإذا تتلى على هؤلاء الكافرين آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وعلى أن البعث

حق. قالوا للمؤمنين على سبيل الاحتقار لهم : نحن وأنتم أينا خير من الآخر مكانا ، وأحسن مجلسا ومجتمعا فهم يتفاخرون على المؤمنين بمساكنهم الفارهة ، ومجالسهم التي يجتمع فيها أغنياؤهم ووجهاؤهم.

قال الجمل في حاشيته : «أى قالوا للمؤمنين : انظروا إلى منازلنا فتروها أحسن من منازلكم وانظروا إلى مجلسنا عند التحدث ومجلسكم ، فترونا نجلس في صدر المجلس ، وأنتم جالسون في طرفه الحقير. فإذا كنا بهذه المثابة وأنتم بتلك فنحن عند الله خير منكم ، ولو كنتم على حق لأكرمكم الله بهذه الأمور كما أكرمنا بها» (١).

وما حكاه الله ـ تعالى ـ عن هؤلاء الكافرين في هذه الآية ، قد جاء ما يشبهه في آيات أخرى ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٢).

وقد رد الله ـ تعالى ـ على هؤلاء الجاهلين المغرورين بقوله : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً﴾.

و ﴿كَمْ﴾ هنا خبرية ، ومعناها الاخبار عن العدد الكثير وهي في محل نصب على المفعول به لجملة ﴿أَهْلَكْنا﴾ و ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ تمييز لها. والقرن : اسم لأهل كل أمة تتقدم في الوجود على غيرها ، مأخوذ من قرن الدابة لتقدمه فيها.

والأثاث المتاع للبيت. وقيل : هو الجديد من الفراش ، وقد يطلق على المال بصفة عامة.

و ﴿رِءْياً﴾ أى : منظرا وهيئة ومرأى في العين مأخوذ من الرؤية التي تراها العين.

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الكافرين المتباهين بمساكنهم ومجالسهم : لا تفتخروا ولا يغرنكم ما أنتم فيه من نعيم ، فإنما هو نوع من الاستدراج ، فإن الله ـ تعالى ـ قد أهلك كثيرا من الأمم السابقة عليكم ، كانوا أحسن منكم متاعا وزينة ، وكانوا أجمل منكم منظرا وهيئة فلم ينفعهم أثاثهم ورياشهم ومظهرهم الحسن ، عند ما أراد الله ـ تعالى ـ إهلاكهم بسبب كفرهم وجحودهم.

فالآية الكريمة تهديد للكافرين المعاصرين للنبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ورد على أقوالهم الباطلة ، وعنجهيتهم الذميمة إذ لو كانت المظاهر والأمتعة والهيئات الحسنة تنفع أصحابها ، لنفعت أولئك المهلكين من الأمم السابقة.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٧٤.

(٢) سورة سبأ الآية ٣٥.

وشبيه بهذه الآية في الرد على هؤلاء الكافرين قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى. إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ﴾ (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٢).

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يضيف إلى تهديدهم السابق تهديدا آخر فقال : ﴿قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا ..﴾.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الكافرين المتفاخرين بمساكنهم ومظاهرهم .. قل لهم : من كان منغمسا في الضلالة والشقاوة والغفلة .. فقد اقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يمد له العطاء كأن يطيل عمره ويوسع رزقه ، على سبيل الاستدراج والإمهال ..

فصيغة الطلب وهي قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ على هذا التفسير ، المراد بها : الإخبار عن سنة من سنن الله ـ تعالى ـ في خلقه ، وهي أن سننه ـ تعالى ـ قد اقتضت أن يمهل الضالين ، وأن يزيدهم من العطاء الدنيوي ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قال ـ تعالى ـ : ﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٣).

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ (٤).

وقد صدر الآلوسى تفسيره للآية بهذا التفسير فقال ما ملخصه : قوله ﴿قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ ...﴾ أمر منه ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ بأن يجيب على هؤلاء المتفاخرين بما لهم من الحظوظ الدنيوية ..

وقوله : ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا﴾ أى : يمد ـ سبحانه ـ له ويمهله بطول العمر ، وإعطاء المال ، والتمكن من التصرفات ، فالطلب في معنى الخبر واختير للإيذان بأن ذلك مما ينبغي أن يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير فيكون حاصل المعنى : من كان في الضلالة فلا عذر له فقد أمهله الرحمن ومد له مدا وجوز أن يكون ذلك للاستدراج.

---

(١) سورة سبأ : الآية ٣٧.

(٢) سورة القلم الآيتان ٤٤ ، ٤٥.

(٣) سورة الأنعام الآيتان ٤٤ ، ٤٥.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٧٨.

وحاصل المعنى : من كان في الضلالة فعادة الله أن يمد له ويستدرجه [1].

ومن المفسرين من يرى أن صيغة الطلب وهي ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ على بابها ، ويكون المقصود بالآية الدعاء على الضال من الفريقين بالازدياد من الضلال.

وعليه يكون المعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم لهؤلاء المتفاخرين ، من كان منا أو منكم على الضلالة ، فليزده الله من ذلك ، وكأن الآية الكريمة تأمر الرسول ﷺ بمباهلة المشركين كما أمره الله ـ تعالى ـ في آية أخرى بمباهلة اليهود في قوله : ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ..﴾ [2].

وكما أمر الله بمباهلة النصارى في قوله ـ سبحانه ـ ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ ، وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ ، وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ﴾ [3].

ومن المفسرين الذين ساروا على هذا التفسير الإمامان ابن جرير وابن كثير ، فقد قال ابن كثير : يقول ـ تعالى ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل ﴿مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ﴾ أى منا ومنكم ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا﴾ أى : فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضي أجله .. قال مجاهد في قوله ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا﴾ فليدعه الله في طغيانه هكذا ، قرر ذلك أبو جعفر بن جرير ، وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه كما ذكر ـ تعالى ـ مباهلة اليهود والنصارى .. [4].

ومع وجاهة التفسيرين لمعنى ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ..﴾ إلا أننا نميل إلى الرأى الأول وهو أن صيغة الطلب يراد بها الإخبار عن سنة الله ـ تعالى ـ في الضالين ، لأنه هو المتبادر من معنى الآية الكريمة ولأن قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً ..﴾ يؤيد هذا الرأى.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ ..﴾ متعلق بما قبله.

أى : فليمدد له الرحمن مدا على سبيل الاستدراج والإمهال ، حتى إذا رأى هؤلاء الكافرون ما توعدهم الله ـ تعالى ـ به ، علموا وأيقنوا أن الأمر بخلاف ما كانوا يظنون وما كانوا يقولون لأنهم سينزل الله ـ تعالى ـ بهم ﴿إِمَّا الْعَذابَ﴾ الدنيوي على أيدى المؤمنين ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ أى : وإما عذاب الآخرة وهو أشد وأبقى.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٢٦.

(٢) سورة الجمعة الآية ٦.

(٣) سورة آل عمران الآية ٦١.

(٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣٤.

وحينئذ يعلمون ويوقنون ﴿مَنْ هُوَ﴾ من الفريقين ﴿شَرٌّ مَكاناً﴾ أى : أسوأ منزلا ومسكنا ﴿وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾ وأضعف أعوانا وأنصارا.

وهذه الجملة الكريمة رد على قول المشركين قبل ذلك : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً ..﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان سنة الله ـ تعالى ـ التي لا تتخلف في المهتدين ، بعد بيان سنته في الضالين.

أى : ويزيد الله ـ تعالى ـ المهتدين إلى طريق الحق هداية على هدايتهم ، بأن يثبتهم عليه ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾. وكما قال ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ ..﴾.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أى : والأعمال الباقيات الصالحات كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها من أعمال البر ، خير عند ربك ثوابا وجزاء مما تمتع به الكفار في دنياهم من شهوات ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أى : مرجعا وعاقبة.

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : خير عند ربك ثوابا ، كأن لمفاخراتهم ثوابا ، حتى يجعل ثواب الصالحات خيرا منه؟.

قلت : كأنه قيل : ثوابهم النار على طريقة قوله : تحية بينهم ضرب وجيع ، ثم بنى عليه خير ثوابا ، وفيه ضرب من التهكم الذي هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له : عقابك النار .. [1].

والخلاصة أنه لا ثواب لهؤلاء الكافرين سوى النار ، أما المؤمنون فثوابهم جنات تجرى من تحتها الأنهار.

وقال بعض العلماء : «ويظهر لي في الآية جواب آخر أقرب من هذا ، وهو أن الكافر يجازى بعمله الصالح في الدنيا ، فإذا بر والديه ، ونفس عن المكروب .. فإن الله يثيبه في الدنيا. فثوابه هذا الراجع إليه من عمله في الدنيا ، هو الذي فضل عليه ثواب المؤمنين ، وهذا واضح لا إشكال فيه» [2].

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكت جانبا من تباهي الكافرين بدنياهم ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٨.

(٢) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطى ج ٤ ص ٣٦٤.

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك لونا آخر من ألوان تبجحهم ، وأقوالهم الباطلة ، وردت عليها بأسلوب منطقي حكيم فقال . تعالى . :

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً﴾(٨٠)

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن خباب بن الأرت قال : جئت العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقا لي عنده ، فقال لي : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ فقلت له : لا ، والله لا أكفر بمحمد ﷺ حيا ولا ميتا ولا إذا بعثت. فقال العاص : فإذا بعثت جئتني ولي هناك مال وولد فأعطيك حقك ، فأنزل الله . تعالى . هذه الآيات.

وفي رواية أن رجالا من أصحاب النبي ﷺ أتوا العاص يتقاضون دينا لهم عليه فقال : ألستم تزعمون أن في الجنة ذهبا وفضة وحريرا ومن كل الثمرات؟ قالوا : بلى. قال : «موعدكم الآخرة والله لأوتين مالا وولدا» [1].

والاستفهام في قوله . سبحانه . ﴿أَفَرَأَيْتَ ..﴾ للتعجيب من شأن هذا الكافر الجهول والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام ، والتقدير : أنظرت أيها العاقل فرأيت هذا الجاحد الجهول الذي كفر بآياتنا الدالة على وحدانيتنا ، وعلى أن البعث حق ، وعلى أن ما جاء به رسولنا ﷺ حق وصدق ...

ولم يكتف بهذا الكفر ، بل قال بكل تبجح ، وإصرار على الباطل ، واستهزاء بالدين الحق : والله ﴿لَأُوتَيَنَ﴾ في الآخرة ﴿مالاً وَوَلَداً﴾ كما هو حالي في الدنيا.

فأنت ترى أن هذا الكافر لم يكتف بكفره ، بل أضاف إليه القول الباطل المصحوب بالقسم الكاذب ، وبالتهكم بالدين الحق.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٢٩.

وقرأ حمزة والكسائي : ﴿لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوُلْداً﴾ . بضم الواو الثانية وسكون اللام . ، وقرأ الباقون بفتحهما. قالوا : والقراءتان بمعنى واحد كالعرب والعرب. ويرى بعضهم الولد بالفتح للمفرد ، والولد . بضم الواو وسكون اللام . للجمع.

وقد رد الله . تعالى . على هذا المتبجح المغرور ردا حكيما ملزما فقال : ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً* كَلَّا ...﴾

والاستفهام للإنكار والنفي ، والأصل : أاطلع فحذفت همزة الوصل للتخفيف.

والمعنى : إن قول هذا الجاهل إما أن يكون مستندا إلى اطلاعه على الغيب وعلمه بأن الله سيؤتيه في الآخرة مالا وولدا ، وإما أن يكون مستندا إلى عهد أعطاه الله . تعالى . له بذلك.

ومما لا شك فيه أن كلا الأمرين لم يتحققا بالنسبة له ، فهو لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند الله عهدا ، فثبت كذبه وافتراؤه ، ولذا كذبه الله . تعالى . بقوله ﴿كَلَّا﴾ وهو قول يفيد الزجر والردع والنفي.

أى : كلا لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند الرحمن عهدا. بل قال ذلك افتراء على الله.

وقوله . سبحانه . : ﴿سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا. وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً﴾ بيان للمصير السيئ الذي سيصير إليه هذا الشقي وأمثاله ، و ﴿نَمُدُّ﴾ من المد وأكثر ما يستعمل في المكروه.

أى : سنسجل على هذا الكافر ما قاله ، ونحاسبه عليه حسابا عسيرا ، ونزيده عذابا فوق العذاب المعد له ، بأن نضاعفه له ؛ ونطيله عليه ﴿وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ﴾ أى : ما يقول إنه يؤتاه يوم القيامة من المال والولد ، بأن نسلبه منه ، ونجعله يخرج من هذه الدنيا خالي الوفاض منهما ، وليس معه في قبره سوى كفنه ، ﴿وَيَأْتِينا فَرْداً﴾ أى : ويأتينا يوم القيامة بعد مبعثه منفردا بدون مال أو ولد أو خدم أو غير ذلك مما كان يتفاخر به في الدنيا هو وأشباهه من المغرورين الجاحدين.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : سنكتب بسين التسويف وهو كما قاله كتبه من غير تأخير قال . تعالى . : ﴿ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؟.

قلت : فيه وجهان : أحدهما : سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله على طريقة قول الشاعر :

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ... ولم تجدى من أن تقرى بها بدا

أى : تبين وعلم بالانتساب أنى لم تلدني لئيمة.

والثاني : أن المتوعد يقول للجاني : سوف أنتقم منك ، يعنى أنه لا يخل بالانتصار وإن

تطاول به الزمان واستأخر ، فجرد هاهنا لمعنى الوعيد .. »[1].

ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا أخرى من رذائل المشركين ، فتحكى اعتزازهم بأوثانهم ، وتثبت عداوة هذه الأوثان لهم يوم القيامة ، وتبشر المؤمنين برضا الله ـ تعالى ـ عنهم. وتنذر الكافرين بالسوق إلى جهنم .. قال ـ تعالى ـ :

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾(٨٧)

والضمير في قوله : ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ يعود إلى أولئك الكافرين الذين ذكر القرآن فيما سبق بعض رذائلهم ودعاواهم الكاذبة ، ولما تنته بعد.

أى : واتخذ هؤلاء الجاهلون آلهة باطلة يعبدونها من دون الله ـ تعالى ـ لتكون لهم تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ أى ـ لينالوا بها العزة والشفاعة والنصرة والنجاة من عذاب يوم القيامة.

فقد حكى القرآن أنهم كانوا إذا سئلوا عن سبب عبادتهم لهذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر قالوا : ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾ وقالوا : ﴿هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ ...﴾.

وقد رد الله ـ تعالى ـ عليهم بما يردعهم عن هذا الظن لو كانوا يعقلون فقال : ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٠.

و ﴿كَلَّا﴾ لفظ جيء به لزجرهم وردعهم عن هذا الاتخاذ الفاسد الباطل. أى : ليس الأمر كما توهم الجاهلون من أن أصنامهم ستكون لهم عزا ، بل الحق أن هذه المعبودات الباطلة ستكون عدوة لهم. وقرينتهم في النار.

وشبيه بهذه الآية قوله . تعالى . : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ ، وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ﴾ [1].

وقوله . سبحانه . : ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ، وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [2].

وأفرد . سبحانه . ﴿عِزًّا﴾ و ﴿ضِدًّا﴾ مع أن المراد بهما الجمع. لأنهما مصدران ثم بين . عزّ وجلّ . أن هؤلاء الكافرين قد استحوذت عليهم الشياطين فزادتهم كفرا على كفرهم ، فقال . تعالى . : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا* فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾.

والاستفهام للتقرير والتأكد و ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ تحركهم تحريكا قويا. وتهزهم هزا شديدا ، وتحرضهم على ارتكاب المعاصي والموبقات حتى يقعوا فيها.

يقال : أز فلان الشيء يئزه ويؤزه .. بكسر الهمزة وضمها أزا ، إذا حركه بشدة ، وأز فلان فلانا ، إذا أغراه وهيجه وحثه على فعل شيء معين ، وأصله من أزت القدر تؤز أزيزا ، إذا اشتد غليان الماء فيها.

والمعنى : لقد علمت أنت وأتباعك أيها الرسول الكريم ، أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين ، وسلطانهم عليهم ، وقيضناهم لهم ، لكي يحضوهم على ارتكاب السيئات ، ويحركوهم تحريكا شديدا نحو الموبقات حتى يقترفوها وينغمسوا فيها ..

ومادام الأمر كذلك. فذرهم في طغيانهم يعمهون ، ولا تتعجل وقوع العذاب بهم. فإن الله . تعالى . قد حدد . بمقتضى حكمته . وقتا معينا لنزول العذاب بهم.

وقوله : ﴿إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ تعليل لموجب النهى ببيان أن وقت هلاكهم قد اقترب ، إذ كل معدود له نهاية ينتهى عندها.

قال القرطبي ما ملخصه : قوله : ﴿إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ يعنى الأيام والليالى والشهور

(١) سورة الأحقاف الآية ٥ ، ٦.

(٢) سورة فاطر الآية ١٤.

والسنين إلى انتهاء أجل العذاب .. وقال الضحاك : نعد أنفاسهم وقال قطرب : نعد أعمالهم عدا.

روى أن المأمون قرأ هذه السورة فمر بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء فأشار برأسه إلى ابن السماك أن يعظه ، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد ، وقيل في هذا المعنى :

حياتك أنفاس تعد فكلما ... مضى نفس منك انتقصت به جزءا

يميتك ما يحييك في كل ليلة ... ويحدوك حاد ما يريد به الهزءا [1]

وكان ابن عباس . رضى الله عنهما . إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : آخر العدد : خروج نفسك. آخر العدد : فراق أهلك آخر العدد : دخول قبرك.

ثم بين . سبحانه . عاقبة المتقين ، وعاقبة المجرمين يوم القيامة فقال : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً* وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً* لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ و ﴿يَوْمَ﴾ ظرف منصوب بقوله : ﴿لا يَمْلِكُونَ ..﴾. أى : لا يملكون الشفاعة يوم نحشر المتقين .. ويجوز أن يكون منصوبا بفعل محذوف تقديره : اذكر أو احذر ..

وقوله : ﴿وَفْداً﴾ جمع وافد. يقال : وفد فلان على فلان يفد وفدا ووفودا ، إذا أقدم عليه ، وفعله من باب وعد.

ويطلق الوفد على الجمع من الرجال الذين يفدون على غيرهم لأمر من الأمور الهامة ، وهم راكبون على دوابهم. وهذا الإطلاق هو المراد باللفظ هنا.

والمعنى : واذكر . أيها العاقل . يوم القيامة ، يوم نحشر المتقين إلى جنة الرحمن ، ودار كرامته راكبين على مراكب تنشرح لها النفوس وتسر لها القلوب.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : يخبر الله . تعالى . عن أوليائه المتقين ، الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله وصدقوهم ، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدا إليه. والوفد هم القادمون ركبانا ومنه الوفود ، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة. وهم قادمون على خير موفود إليه ، إلى دار كرامته ورضوانه.

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج .. عن ابن مرزوق قال : يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها ، وأطيبها ريحا ، فيقول : من أنت؟ فيقول : أما

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٥٠.

تعرفني؟ فيقول : لا ، إلا أن الله ـ تعالى ـ طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول : أنا عملك الصالح .. فهلم فاركبنى فذلك قوله : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً﴾ (١).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ بيان لسوء عاقبة المجرمين بعد بيان ما أعده الله للمتقين من نعيم.

و ﴿وِرْداً﴾ أى : عطاشا. وأصل الورد الإتيان إلى الماء بقصد الارتواء منه بعد العطش الشديد.

أى : ونسوق المجرمين الذين ارتكبوا الجرائم في دنياهم ، نسوقهم سوقا إلى جهنم كما تساق البهائم. حالة كونهم عطاشا ، يبحثون عن الماء فلا يجدونه.

والضمير في قوله ـ تعالى ـ : ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ ..﴾ يرى بعضهم أنه يعود إلى المجرمين في قوله ﴿نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ ..﴾.

أى : نسوق المجرمين إلى جهنم عطاشا ، حالة كونهم لا يملكون الشفاعة لغيرهم ، ولا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم ، لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا وهم المؤمنون الصادقون فإنهم يملكونها بتمليك الله ـ تعالى ـ لهم إياها وإذنه لهم فيها ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ..﴾ وكما قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى﴾ (٢).

وعلى هذا التفسير يكون الاستثناء منقطعا.

قال القرطبي : «قوله ـ تعالى ـ : ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ﴾ أى : هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ وهم المسلمون فيملكونها ، فهو استثناء الشيء من غير جنسه. أى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا يشفع ، فمن في موضع نصب على هذا ... ويرى آخرون أن الضمير في قوله : ﴿لا يَمْلِكُونَ ...﴾ يعود إلى فريقى المتقين والمجرمين.

أى : لا يملك أحد من الفريقين يوم القيامة الشفاعة لأحد ، ولا يملك غيرهم الشفاعة لهم ، ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ﴾ منهم ﴿عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ وهم المؤمنون فإنهم يملكون بإذن الله لهم.

والمراد بالعهد الأمر والإذن ، يقال : عهد الأمير إلى فلان بكذا ، إذا أمره به. أو أذن له في فعله.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣٧.

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٥٣.

وعلى هذا يكون الاستثناء متصلا ، ويكون لفظ ﴿مَنِ﴾ بدل من الواو في ﴿يَمْلِكُونَ﴾.

قال الآلوسى ما ملخصه : «قوله ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ﴾ ضمير الجمع يعم المتقين والمجرمين ، أى : العباد مطلقا ... وقوله ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ استثناء متصل ... والمعنى : لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم ، إلا من اتصف منهم بما يستأهل معه أن يشفع وهو المراد بالعهد ...» [1].

ويبدو لنا أن هذا القول أولى ، لشموله وعمومه إذ الكلام السابق في الفريقين جميعا ، فريق المتقين وفريق المجرمين.

ثم يستطرد السياق القرآنى ، إلى حكاية أقوال أخرى ، من أقوال الكافرين الباطلة ، وهي زعمهم أن لله ـ تعالى ـ ولدا ، فقال ـ سبحانه ـ :

﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (٨٩) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (٩١) وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً﴾(٩٥)

والضمير في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقالُوا﴾ يشمل كل من تفوه بهذا القول الباطل سواء أكان من اليهود أم من النصارى أم من المشركين.

وقوله : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا﴾ توبيخ وتقريع من الله ـ تعالى ـ لهم على هذا القول المنكر.

أى : لقد جئتم بقولكم هذا أيها الضالون شيئا فظيعا عجيبا منكرا تقشعر لهوله الأبدان.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٣٧.

والإد والإدة ـ بكسر الهمزة ـ الأمر الفظيع والداهية الكبيرة. يقال : فلان أدته الداهية فهي تئده وتؤدة ، إذا نزلت به وحطمت كيانه.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ...﴾ في موضع الصفة لقوله ﴿إِدًّا﴾.

أى : لقد جئتم بقولكم هذا أمرا منكرا فظيعا ، تكاد السموات ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أى : يتشققن من هوله ، من التفطير بمعنى التشقيق ، يقال : فلان فطر هذا الشيء يفطره ـ بكسر الطاء وضمها ـ إذا شقه. وقرأ حمزة وابن عامر ينفطرن من الانفطار وهو الانشقاق ـ أيضا ..

﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ أى : وتتصدع الأرض من عظمه ، وتنخسف بهؤلاء القائلين ذلك القول الفاسد ، ﴿وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا﴾ أى : وتسقط الجبال مهدودة ـ أيضا ـ من فظاعة هذا القول. يقال : هذا الجدار يهده ـ بضم الهاء ـ هدا : إذا هدمه.

وقوله : ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً* وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ بمنزلة التعليل لما قبله مع تقدير لام التعليل المحذوفة.

أى : تكاد السموات يتفطرن والأرض تتشقق ، والجبال تنهد ، لأن هؤلاء الضالين قد زعموا أن الله ـ تعالى ـ ولدا ، والحال أنه ما يصح وما يليق أن يتخذ الرحمن ولدا ، لأنه ـ سبحانه ـ غنى عن العالمين.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : «إن قلت : ما معنى هذا التأثر من أجل هذه الكلمة؟.

قلت : فيه وجهان : أحدهما أن الله ـ سبحانه ـ يقول : كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها .. لو لا أنى لا أعجل بالعقوبة ...

والثاني : أن يكون استعظاما للكلمة ، وتهويلا من فظاعتها وتصويرا لأثرها في الدين ، وهدمها لأركانه وقواعده ، وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات : أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم : ما تنفطر منه وتنشق وتخر ..» [1].

وقال الإمام القرطبي : «نفى عن نفسه ـ سبحانه وتعالى ـ الولد ، لأن الولد يقتضى الجنسية والحدوث .. ولا يليق به ذلك ، ولا يوصف به ، ولا يجوز في حقه ...

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٤.

وروى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله . تبارك وتعالى . كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون على من إعادته. وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» [1].

ثم بين . سبحانه . أن جميع المخلوقات خاضعة لقدرته وإرادته وعلمه فقال : ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً ...﴾.

و ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى ما ، أى : ما من أحد من أهل السموات والأرض إلا وهو يأتى يوم القيامة مقرا له . سبحانه . بالعبودية ، خاضعا لقدرته ، معترفا بطاعته. مقرا بأنه عبد من مخلوقاته. ومن كان كذلك فكيف يكون له ولد؟

وصدق الله إذ يقول : ﴿بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [2].

ثم أكد . سبحانه . أنه هو المالك لكل شيء ، والعليم بكل شيء فقال : ﴿لَقَدْ أَحْصاهُمْ﴾.

أى : حصرهم وأحاط بهم ، بحيث لا يخرج أحد من مخلوقاته عن علمه وطاعته ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أى : وعد أشخاصهم وذواتهم وحركاتهم وسكناتهم .. بحيث لا يهربون من قبضته ، ولا يخفى عليه أحد منهم ..

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً﴾ أى : وكل واحد يأتيه . سبحانه . يوم القيامة منفردا ، بدون أهل أو مال أو جاه ... أو غير ذلك مما كانوا يتفاخرون به في الدنيا.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ردت أبلغ رد وأحكمه. على أولئك الضالين الذين زعموا أن الله ولدا.

ثم ختم . سبحانه . السورة الكريمة ببيان ما أعده لعباده المؤمنين وببيان بعض الخصائص التي جعلها لكتابه الكريم .. فقال . تعالى . :

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٥٩.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٠١.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾(٩٨)

أى : إن الذين أمنوا بالله . تعالى . حق الإيمان ، وعملوا الأعمال الصالحات ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ﴾ في دنياهم وفي آخرتهم ﴿وُدًّا﴾ أى : سيجعل لهم محبة ومودة في القلوب ، لإيمانهم وعملهم الصالح ، يقال : ود فلان فلانا ، إذا أحبه وأخلص له المودة.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله . تعالى . إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : يا جبريل إنى أحب فلانا فأحبه. قال : فيحبه جبريل. ثم ينادى في أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه. قال : فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبدا دعا جبريل فقال : يا جبريل إنى أبغض فلانا فأبغضه. قال : فيبغضه جبريل ثم ينادى في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه.

قال : فيبغضه أهل السماء ، ثم توضع له البغضاء في الأرض» (١).

ثم بين . سبحانه . الحكمة التي من أجلها جعل القرآن ميسرا في حفظه وفهمه فقال : ﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ، وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾.

أى : إننا أنزلنا هذا القرآن على قلبك . أيها الرسول الكريم . وجعلناه بلسانك العربي المبين ، وسهلنا حفظه وفهمه على الناس ، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين امتثلوا أمرنا واجتنبوا نهينا ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾ أى : ذوى لدد وشدة في الخصومة بالباطل ، وهم مشركو قريش فقوله ﴿لُدًّا﴾ جمع ألد ومنه قوله . تعالى . : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ﴾ (٢) أى أشد الناس خصومة وجدلا.

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله . تعالى . : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (٣).

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٦١.

(٢) سورة البقرة آية ٢٠٤.

(٣) سورة القمر آية ١٧.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [1].

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بهذه الآية التي تخبر عن سنة من سننه في الظالمين فقال : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾.

أى : وكثير من القرى الظالمة التي سبقتك ـ أيها الرسول الكريم ـ قد أهلكناها وأبدناها وجعلناها خاوية على عروشها.

والاستفهام في قوله ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ للنفي : أى : ما تحس منهم أحدا ولا ترى منها ديارا. يقال : أحس الرجل الشيء إحساسا ، إذا علمه وشعر به.

وقوله ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ معطوف على ما قبله ، والركز. الصوت الخفى. ومنه قولهم : ركز فلان رمحه ، إذا غيب طرفه وأخفاه في الأرض. ومنه الركاز للمال المدفون في الأرض.

والمعنى : أهلكنا كثيرا من القرى الظالمة الماضية ، فأصبحت لا ترى منهم أحدا على الإطلاق ، ولا تسمع لهم صوتا حتى ولو كان صوتا خافتا ضعيفا وإنما هم في سكون عميق ، وصمت رهيب ، بعد أن كانوا فوق هذه الأرض يدبون ويتحركون.

وهذه سنتنا التي لا تتخلف في الظالمين. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ نعوذ بالله ـ تعالى ـ من ذلك.

وبعد : فهذا تفسير لسورة مريم ، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف د. محمد سيد طنطاوى

---

(١) سورة الدخان آية ٥٨.

تفسير

سورة طه

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، ومن والاه.

أما بعد : فهذا تفسير لسورة «طه» يأتى في أعقاب تفاسير أخرى ، لسور أخرى ...

أسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

د. محمد سيد طنطاوى

تعريف بسورة طه

١ ـ سورة «طه» من السور المكية. وكان ترتيبها في النزول بعد سورة مريم.

قال الآلوسى : «وتسمى ـ أيضا ـ بسورة الكليم .. وآياتها ـ كما قال الداني ـ مائة وأربعون آية عند الشاميين ومائة وخمس وثلاثون عند الكوفيين ، ومائة وأربع وثلاثون عند الحجازيين» (١).

وقال القرطبي : «سورة طه ـ عليه‌السلام ـ مكية في قول الجميع ، نزلت قبل إسلام عمر ـ رضى الله عنه ـ ، فقد قيل له : إن ختنك وأختك قد صبوا ـ أى : دخلا في الإسلام ـ فأتاهما وعندهما رجل من المهاجرين .. يقال له : خباب وكانوا يقرءون «طه» ..» (٢).

٢ ـ وقد افتتحت السورة الكريمة بخطاب النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم وببيان وظيفته ، وببيان سمو منزلة القرآن الكريم : الذي أنزله عليه ربه الذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

قال ـ تعالى ـ : ﴿طه. ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى. إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى. تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى. الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى ...﴾.

٣ ـ ثم فصلت السورة الكريمة الحديث عن قصة موسى ـ عليه‌السلام ـ فبدأت بنداء الله ـ تعالى ـ له ، وباختياره لحمل رسالته. ثم تحدثت عن تكليفه ـ سبحانه ـ لموسى ، بالذهاب إلى فرعون.

قال ـ تعالى ـ : ﴿اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي. هارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾.

٤ ـ ثم حكت السورة ما دار بين موسى وبين فرعون من مناقشات ومجادلات ، وكذلك ما دار بين موسى وبين السحرة الذين جمعهم فرعون لمنازلة موسى ـ عليه‌السلام ـ وكيف أن السحرة انتهى أمرهم بالإيمان ، وبقولهم لفرعون : ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٤٧.

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٦٣.

وَالَّذِي فطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا ، وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾.

٥ ـ ثم بينت السورة الكريمة ما فعله بنو إسرائيل في غيبة موسى عنهم ، وكيف أن السامري قد أضلهم بأن جعلهم يعبدون عجلا له خوار ... وكيف أن موسى رجع إليهم غضبان أسفا .. فحطم العجل وأحرقه وألقاه في اليم وهو يقول : ﴿إِنَّما إِلهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

٦ ـ وبعد أن فصلت السورة الكريمة الحديث عن قصة موسى ـ عليه‌السلام ـ عقبت على ذلك ببيان وظيفة القرآن الكريم ، وببيان جانب من أهوال يوم القيامة ، وسوء عاقبة الكافرين ، وحسن عاقبة المؤمنين.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً﴾.

٧ ـ ثم ساقت السورة في أواخرها جانبا من قصة آدم ، فذكرت سجود الملائكة له ، ونسيانه لأمر ربه ، وقبول الله ـ تعالى ـ لتوبة آدم بعد أن وسوس له الشيطان بما وسوس ..

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً. وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى. فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى﴾.

٨ ـ ثم ختمت السورة الكريمة بأمر النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم بالصبر وبالإكثار من ذكر الله ـ تعالى ـ وبعدم التطلع إلى زهرة الحياة الدنيا ، وبأمر أهله بالصلاة. وبالرد على مزاعم المشركين ، وبتهديدهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا على ضلالهم ..

قال ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى﴾.

٩ ـ هذا عرض إجمالى لأهم المقاصد التي اشتملت عليها سورة طه. ومن هذا العرض نرى : أن القصة قد أخذت جانبا كبيرا منها. وكذلك الحديث عن القرآن الكريم وعن يوم القيامة ، وعن أحوال الناس فيه .. قد تكرر فيها بأسلوب يهدى للتي هي أقوم ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال الله . تعالى . :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿طه (١) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (٣) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى (٤) الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (٥) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى (٧) اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾(٨)

افتتحت السورة الكريمة بلفظ ﴿**طه**﴾ ، وهذا اللفظ أظهر الأقوال فيه أنه من الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم.

وقد بينا بشيء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ... آراء العلماء في المقصود بهذه الحروف.

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت في افتتاح بعض سور القرآن الكريم ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه والتعجيز لمن عارضوا في كون القرآن من عند الله . تعالى . ، أو في كونه معجزة للنبي ﷺ دالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه.

وقيل : إن هذا اللفظ بمعنى يا رجل في لغة بعض قبائل العرب ...

وقيل : إنه اسم للرسول ﷺ أو للسورة .. إلى غير ذلك من الأقوال التي رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها [1].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٤٨.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى. إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى﴾.

استئناف مسوق لتسلية الرسول ﷺ عما أصابه من المشركين ، والشقاء يأتى في اللغة بمعنى التعب والعناء ، ومنه المثل القائل «أشقى من رائض مهر» أى : أتعب. ومنه قول أبى الطيب المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

أى : ما أنزلنا عليك القرآن ـ أيها الرسول الكريم ـ لكي تتعب وتجهد نفسك هما وغما بسبب إعراض المشركين عن دعوتك ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾.

وإنما أنزلناه إليك لتسعد بنزوله ، ولتبلغ آياته ، ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فأنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب.

ومنهم من يرى أن المقصود بالآية النهى عن المغالاة في العبادة ، فقد أثر عنه ﷺ أنه قام الليل حتى تورمت قدماه فيكون المعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لكي تهلك نفسك بالعبادة ، وتذيقها ألوان المشقة والتعب ، فإن الله ـ تعالى ـ يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، وما جعل عليكم في الدين من حرج.

ومنهم من يرى أن الآية مسوقة للرد على المشركين ، الذين قالوا : ما أنزل هذا القران على محمد ﷺ إلا ليشقى ، فيكون المراد بالشقاء ما هو ضد السعادة.

قال القرطبي ما ملخصه : «وأصل الشقاء في اللغة العناء والتعب ، أى : ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب ، بسبب فرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم .. أى : ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر ..

وروى أن أبا جهل والنضر بن الحارث قالا للنبي ﷺ إنك لشقى لأنك تركت دين آبائك ، فأريد الرد على ذلك بأن دين الإسلام ، وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز ، والسبب في درك كل سعادة ، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها.

وروى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ صلى بالليل حتى اسمغدّت قدماه ـ أى : تورمت ـ فقال له جبريل : أبق على نفسك فإن لها عليك حقا ، أى : ما أنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك في العبادة ، وتذيقها المشقة الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة .. »[1].

ويبدو لنا أن الآية الكريمة وإن كانت تتسع لهذه المعاني الثلاثة ، إلا أن المعنى الأول

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٦٨.

أظهرها ، وأقربها إلى سياق الآيات الكريمة ، فإن قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى﴾ بيان للحكمة التي من أجلها أنزل الله ـ تعالى ـ هذا القرآن.

أى : ما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن لتتعب من فرط تأسفك على كفر الكافرين ، وإنما أنزلناه من أجل أن يكون ﴿تَذْكِرَةً﴾ أى موعظة تلين لها قلوب من يخشى عقابنا ، ويخاف عذابنا ، ويرجو ثوابنا.

وما دام الأمر كذلك فامض في طريقك ، وبلغ رسالة ربك ، ثم بعد ذلك لا تتعب نفسك بسبب كفر الكافرين ، فإنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء.

وخص ـ سبحانه ـ التذكرة بمن يخشى دون غيره ، لأن الخائف من عذاب الله ـ تعالى ـ هو وحده الذي ينتفع بهدايات القرآن الكريم وآدابه وتوجيهاته وأحكامه ووعده ووعيده .. كما قال ـ تعالى ـ : ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾ وكما قال ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها﴾ أى : الساعة.

ثم بين ـ سبحانه ـ مصدر القرآن الذي أنزله ـ تعالى ـ للسعادة لا للشقاء فقال : ﴿تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى﴾.

وقوله ﴿تَنْزِيلاً﴾ منصوب بفعل مضمر دل عليه قوله ﴿ما أَنْزَلْنا ..﴾. أى : نزل هذا القرآن تنزيلا ممن خلق الأرض التي تعيشون عليها ، وممن خلق السموات العلى ، أى : المرتفعة. جمع العليا ككبرى وكبر ، وصغرى وصغر.

ثم مدح ـ سبحانه ـ ذاته بقوله : ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ أى : الرحمن ـ عزّ وجلّ ـ استوى على عرش ملكه استواء يليق بذاته بلا كيف أو تشبيه ، أو تمثيل.

قال الإمام مالك : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة.

وقد ذكر لفظ العرش في إحدى وعشرين آية من آيات القرآن الكريم.

قال بعض العلماء : «أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة ـ ومنهم الأئمة الأربعة ـ إلى أنه صفة لله ـ تعالى ـ بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل لاستحالة اتصافه ـ تعالى ـ بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه ـ تعالى ـ عما لا يليق به : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وأنه يجب الإيمان بها كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه ـ تعالى ـ ...[1].

(١) تفسير صفوة البيان ج ١ ص ٢٩٣ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف.

ثم أكد ـ سبحانه ـ شمول ملكه وقدرته فقال : ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ من كائنات وموجودات ملكا وتصرفا وإحياء وإماتة ، وله ﴿ما بَيْنَهُما﴾ من مخلوقات لا يعلمها إلا هو وله ﴿ما تَحْتَ الثَّرى﴾ والثرى : هو التراب الندى. يقال : ثريت الأرض ـ كرضيت ـ إذا نديت ولانت بعد أن كانت جدباء يابسة.

والمقصود : وله ـ سبحانه ـ بجانب ما في السموات وما في الأرض وما بينهما ، ما وراء الثرى وهو تخوم الأرض وطبقاتها إلى نهايتها.

وخص ـ سبحانه ـ ما تحت الثرى بالذكر ، مع أنه داخل في قوله : ﴿وَما فِي الْأَرْضِ﴾ لزيادة التقرير ، ولتأكيد شمول ملكيته ـ سبحانه ـ لكل شيء.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى﴾ بيان لشمول علمه بكل شيء ، بعد بيان شمول قدرته.

والجهر بالقول : رفع الصوت به. والسر : ما حدث به الإنسان غيره بصورة خفية. وأخفى أفعل تفضيل وتنكيره للمبالغة في الخفاء.

والمعنى : وإن تجهر ـ أيها الرسول ـ بالقول في دعائك أو في مخاطبتك لربك ، فربك ـ عزوجل ـ غنى عن ذلك ، فإنه يعلم ما يحدث به الإنسان غيره سرا ، ويعلم أيضا ما هو أخفى من ذلك وهو ما يحدث به الإنسان نفسه دون أن يطلع عليه أحد من الخلق.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ. أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١).

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٢).

ومنهم من يرى أن لفظ ﴿أَخْفى﴾ فعل ماض. فيكون المعنى : وإن تجهر بالقول في ذكر أو دعاء فلا تجهد نفسك بذلك فإنه ـ تعالى ـ يعلم السر الذي يكون بين اثنين ، ويعلم ما أخفاه ـ سبحانه ـ عن عباده من غيوب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما سيفعله الإنسان من أعمال في المستقبل ، قبل أن يعلم هذا الإنسان أنه سيفعلها.

قال الجمل : وقوله : ﴿أَخْفى﴾ جوزوا فيه وجهين : أحدهما : أنه أفعل تفضيل. أى : وأخفى من السر. والثاني : أنه فعل ماض. أى : وأخفى الله من عباده غيبه ، كقوله :

---

(١) سورة الملك الآيتان ١٣ ، ١٤.

(٢) سورة ق الآية ١٦.

﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [1].

ثم أثنى ـ سبحانه ـ على ذاته بما هو أهل له فقال : ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾.

أى : هو الله ـ تعالى ـ وحده الذي يجب أن يخلص الخلق له العبادة والطاعة ولا أحد غيره يستحق ذلك ، وهو صاحب الأسماء ﴿الْحُسْنى﴾ أى : الفضلى والعظمى ، لدلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والنهاية في السمو والكمال.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : «إن لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة».

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [2].

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى ..﴾ [3].

ثم ساقت السورة الكريمة بشيء من التفصيل جانبا من قصة موسى ، التي تعتبر أكثر قصص الأنبياء ورودا في القرآن الكريم ، حيث جاء الحديث عنها في سور : البقرة ، والمائدة. والأعراف. ويونس. والإسراء ، والكهف ، والشعراء ، والقصص.

وقد بدأت السورة حديثها عن قصة موسى ببيان اختيار الله ـ تعالى ـ له لحمل رسالته ، وتبليغ دعوته قال ـ تعالى ـ :

﴿وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (٩) إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (١٠) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (١٢)

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٨٢.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٠.

(٣) سورة الإسراء الآية ١١٠.

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى﴾(١٦)

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : «من هاهنا شرع ـ تبارك وتعالى ـ في ذكر قصة موسى ، وكيف كان ابتداء الوحى إليه وتكليمه إياه ، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله ، قيل : قاصدا بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، في برد وشتاء ، وسحاب وظلال وضباب ، وجعل يقدح بزند معه ليورى نارا ، كما جرت العادة به ، فجعل لا يقدح شيئا ، ولا يخرج منه شرر ولا شيء ، فبينما هو كذلك ، إذ آنس من جانب الطور نارا.

أى : ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه ، فقال لأهله يبشرهم : ﴿... امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ﴾ أى : شهاب من نار .. [1].

والاستفهام في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَهَلْ أَتاكَ ..﴾ لتقرير الخبر وتثبيته ، وهذا أبلغ عن مجيئه بصورة الخبر المجرد. لأن في الاستفهام التقريرى تطلع واشتياق لمعرفة الخبر.

والجملة الكريمة مستأنفة لتأكيد ما سبق الحديث عنه من وحدانية الله ـ تعالى ـ ولتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من قومه. ببيان جانب من جهاد أخيه موسى ـ عليه السلام ـ ..

والمعنى : لقد أتاك ـ أيها الرسول الكريم ـ خبر أخيك موسى ، وقت أن رأى نارا وهو عائد ليلا من مدين إلى مصر ﴿فَقالَ لِأَهْلِهِ﴾ أى لامرأته ومن معها ﴿امْكُثُوا﴾ أى : أقيموا في مكانكم ولا تبرحوه حتى أعود إليكم.

وجملة ﴿إِنِّي آنَسْتُ ناراً﴾ تعليل للأمر بالمكوث ، وآنست من الإيناس بمعنى الإبصار

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧٠ طبعة دار الشعب.

الواضح الجلى. أى : إنى أبصرت إبصارا بينا لا شبهة فيه نارا على مقربة منى ، فامكثوا في أماكنكم ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ﴾.

والقبس : الشعلة التي تؤخذ من النار في طرف عود أو نحوه. ووزنه فعل ـ بفتح العين ـ بمعنى مفعول أى : لعلى آتيكم من هذه النار بشعلة مقتبسة منها ، ومأخوذة عنها.

وقوله : ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً﴾ معطوف على ما قبله.

أى : امكثوا في مكانكم حتى أذهب إلى النار التي شاهدتها ، لعلى آتيكم منها بشعلة ، أو أجد عندها هاديا يهديني الى الطريق الذي أسلكه لكي أصل إلى المكان الذي أريده.

فقوله ﴿هُدىً﴾ مصدر بمعنى اسم الفاعل أى : هاديا.

وقد دلت آية أخرى على أن موسى قد ذهب إلى النار ليأتى منها بما يدفئ أهله من البرد.

وهذه الآية هي قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً. قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً ، لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ ما حدث لموسى بعد أن اقترب من النار فقال : ﴿فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾.

أى : فلما أتى موسى ـ عليه‌السلام ـ إلى النار ، واقترب منها .. ﴿نُودِيَ﴾ من قبل الله ـ عزوجل ـ ﴿يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ الذي خلقك فسواك فعدلك .. ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ تعظيما لأمرنا. وتأدبا في حضرتنا.

وقوله ﴿إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾ تعليل للأمر بخلع النعل ، أى : أزل نعليك من رجليك لأنك الآن موجود بالوادي ﴿الْمُقَدَّسِ﴾ أى : المطهر المبارك ، المسمى طوى : فهو عطف بيان من الوادي.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ أى : اصطفيتك من بين أفراد قومك لحمل رسالتي ، وتبليغ دعوتي ﴿فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى﴾ إليك منى ، ونفذ ما آمرك به.

﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا﴾ مستحق للعبادة والطاعة والخضوع ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ عبادة خالصة لوجهي.

﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ التي هي من أشرف العبادات ، وأفضل الطاعات ﴿لِذِكْرِي﴾ أى :

---

(١) سورة القصص الآية ٢٩.

وأدم إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص ، ليشتد تذكرك لي. واتصالك بي ، وذلك لأن الصلاة مشتملة على الكثير من الأذكار التي فيها الثناء على ذاتي وصفاتي.

أو المعنى : وأدم الصلاة لذكرى خاصة ، بحيث تكون خالصة لوجهي ، ولا رياء فيها لأحد.

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿لِذِكْرِي﴾ الظاهر أنه متعلق بأقم ، أى : أقم الصلاة لذكرى فيها لاشتمالها على الأذكار. وقيل : المراد أقم الصلاة لذكرى خاصة لا ترائى بها ولا تشوبها بذكر غيرى .. أو لكي أذكرك بالثناء وأثيبك بها. أو لذكرى إياها في الكتب السماوية وأمرى بها. أو لأوقات ذكرى وهي مواقيت الصلاة. فاللام وقتية بمعنى عند ؛ مثلها في قوله ـ تعالى ـ ﴿يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي﴾.

ومن الناس من حمل الذكر على ذكر الصلاة بعد نسيانها. والمراد : أقم الصلاة عند تذكرها ..

ففي الحديث الصحيح : «من نام عن صلاة أو نسيها. فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك ..» (١).

وخص ـ سبحانه ـ الصلاة بالذكر مع أنها داخلة في العبادة المأمور بها في قوله ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ على سبيل التشريف والتكريم ، إذ الصلاة أكمل وسيلة توصل الإنسان إلى مداومة ذكر الله ـ تعالى ـ وخشيته ، لاشتمالها على ألوان متعددة من صور العبادة والطاعة ، إذ فيها قراءة للقرآن الكريم ، وفيها الصلاة على النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم وفيها تسبيح الله وتمجيده.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن الساعة آتية لا ريب فيها فقال : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى * فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى﴾.

أى : إن الساعة التي هي وقت البعث والحساب والثواب والعقاب ، آتية أى : كائنة وحاصلة لا شك فيها.

وقوله ﴿أَكادُ أُخْفِيها﴾ أى : أقرب أن أخفى وقتها ولا أظهره لا إجمالا ولا تفصيلا ، ولو لا أن في إطلاع أصفيائى على بعض علاماتها فائدة ، لما تحدثت عنها.

قالوا : «والحكمة في إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت ، أن الله ـ تعالى ـ وعد بعدم قبول التوبة عند قربهما ، فلو عرف وقت الموت لاشتغل الإنسان بالمعصية إلى قرب ذلك الوقت ثم يتوب ، فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف الموت كالإغراء بفعل المعصية ، وهو لا

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٧١.

يجوز [1].

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أقرب أن أخفى الساعة ولا أظهرها ، بأن أقول إنها آتية .. أو أريد إخفاء وقتها المعين وعدم إظهاره .. فكاد بمعنى أراد ، وإلى هذا ذهب الأخفش وغيره .. وروى عن ابن عباس أن المعنى : أكاد أخفيها من نفسي ، فكيف أظهركم عليها .. وهذا محمول على ما جرت به عادة العرب من أن أحدهم إذا أراد المبالغة في كتمان الشيء قال : كدت أخفيه عن نفسي.

وقال أبو على : المعنى أكاد أظهرها بأن أوقعها ، وهذا بناء على أن أخفيها من ألفاظ السلب بمعنى أزيل خفاءها .. [2].

ويبدو لنا أن الإخفاء هنا على حقيقته ، وأن المقصود من الآية الكريمة إخفاء وقت مجيء الساعة عن الناس. حتى يكونوا على استعداد لمجيئها عن طريق العمل الصالح الذي ينفعهم يوم القيامة.

فحكمة الله ـ تعالى ـ اقتضت إخفاء وقت الساعة ، وعدم إطلاع أحد عليها إلا بالمقدار الذي يأذن الله ـ تعالى ـ به لرسله.

قال الإمام ابن جرير ما ملخصه : «والذي هو أولى بتأويل الآية من القول : قول من قال معناه : أكاد أخفيها من نفسي .. لأن المعروف من معنى الإخفاء في كلام العرب : الستر. يقال : قد أخفيت الشيء إذا سترته .. وإنما اخترنا هذا القول على غيره لموافقته أقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين .. [3].

وقوله : ﴿لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى﴾ متعلق بآتية ، وجملة ﴿أَكادُ أُخْفِيها﴾ معترضة بينهما.

أى : إن الساعة آتية لا ريب فيها ، لكي تجزى كل نفس على حسب سعيها وعملها في الدنيا.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ [4].

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

ثم حذر ـ سبحانه ـ من عدم الاستعداد للساعة. ومن الشك في إتيانها فقال :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٨٥.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٧٢.

(٣) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ١١٤.

(٤) سورة الإسراء الآية ١٩.

﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها﴾ أي : فلا يصرفنك عن الإيمان بها ، وعن العمل الصالح الذي ينفعك عند مجيئها ﴿مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها﴾ من الكافرين والفاسقين ﴿وَاتَّبَعَ هَواهُ﴾ في إنكارها وفي تكذيب ما يكون فيها من ثواب أو عقاب ﴿فَتَرْدى﴾ أى : فتهلك ، إن أنت أطعت هذا الذي لا يؤمن بها. يقال : ردى فلان ـ كرضى ـ إذا هلك ، وأرداه غيره إذا أهلكه.

فالآية الكريمة تحذير شديد من اتباع المنكرين لقيام الساعة والمعرضين عن الاستعداد لها ، بعد أن أكد ـ سبحانه ـ في آيات كثيرة أن الساعة آتية لا ريب فيها.

قال ـ تعالى ـ : ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى ، وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها ، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (١).

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد أثبتت وحدانية الله ـ تعالى ـ كما في قوله : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا﴾ كما أثبتت وجوب التوجه إليه وحده بالعبادة كما في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾. كما أثبتت أن يوم القيامة لا شك في إتيانه في الوقت الذي يريده الله ـ تعالى ـ كما قال ـ عزوجل ـ : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ...﴾.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض التوجيهات والأوامر التي وجهها ـ عزوجل ـ إلى نبيه موسى ـ عليه‌السلام ـ كما حكى ما التمسه موسى من خالقه ـ تعالى ـ فقال :

﴿وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (١٧) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (١٨) قالَ أَلْقِها يا مُوسى (١٩) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (٢٠) قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى (٢٣) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (٢٤) قالَ

---

(١) سورة الحج الآيتان ٦ ، ٧.

رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِساني (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (٢٩) هارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً﴾(٣٥)

الاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى﴾ للتقرير ، لأن الله ـ تعالى ـ عالم بما في يمين موسى ، فالمقصود من هذا السؤال اعتراف موسى وإقراره بأن ما في يده إنما هي عصا فيزداد بعد ذلك يقينه بقدرة الله ـ تعالى ـ عند ما يرى العصا التي بيمينه قد انقلبت حية تسعى.

قال صاحب الكشاف : إنما سأله ـ سبحانه ـ ليريه عظم ما يخترعه ـ عز وعلا ـ في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضاضة ـ أى تحرك لسانها في فمها ـ ، وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه ، والمقلوب إليه ، وينبهه على قدرته الباهرة. ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد ـ أى قطعة من حديد ـ ويقول لك : ما هي؟ فتقول : زبرة حديد. ثم يريك بعد أيام لبوسا مسردا فيقول لك : هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة ، وأنيق السرد .. [1].

والآية الكريمة : شروع في بيان ما كلف الله ـ تعالى ـ به عبده موسى ـ عليه‌السلام ـ من الأمور المتعلقة بالخلق ، إثر حكاية ما أمر ـ سبحانه ـ به موسى من إخلاص العبادة له ، والإيمان بالساعة وما فيها من حساب وثواب وعقاب.

والمعنى : وأى شيء بيدك اليمنى يا موسى؟ فأجاب موسى بقوله ـ كما حكى القرآن عنه ﴿قالَ هِيَ عَصايَ﴾ أى : الشيء الذي بيميني هو عصاي .. ونسبها إلى نفسه لزيادة التحقق والتثبت من أنها خاصة به وكائنة بيده اليمنى.

ثم بين وظيفتها فقال : ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها﴾ أى : أعتمد عليها لتساعدني في حال السير ﴿وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي﴾ أى : وأضرب بها الشجر اليابس ليسقط ، ورقه فترعاه أغنامى. يقال هش فلان الشجرة بالعصا ـ من باب رد ـ فهو يهشها هشا ، إذا ضربها بعصاه أو بما يشبهها ليتساقط ورقها. ومفعول أهش محذوف. أى : وأهش بها الشجر والورق.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٧.

﴿وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى﴾ والمآرب: جمع مأربة. بتثليث الراء. بمعنى حاجة. تقول: لا أرب لي في هذا الشيء، أى: لا حاجة لي فيه.

أى: ولي في هذه العصا حاجات أخرى، ومنافع غير التي ذكرتها.

وقد كان يكفى موسى. عليه السلام. في الجواب أن يقول: هي عصاي، ولكنه أضاف إلى ذلك أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي.. لأن المقام يستدعى البسط والإطالة في الكلام، إذ هو مقام حديث العبد مع خالقه، والحبيب مع حبيبه.

وأجمل في قوله: ﴿وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى﴾ إما حياء من الله. تعالى. لطول الكلام في الجواب، وإما رجاء أن يسأل عن هذه المآرب المجملة، فيجيب عنها بالتفصيل تلذذا في الخطاب.

قال القرطبي: وفي هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل، لأنه لما قال: ﴿وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى﴾ ذكر معاني أربعة وهي: إضافة العصا إليه، وكان حقه أن يقول عصا، والتوكؤ، والهش، والمآرب المطلقة. فذكر موسى من منافع عصاه معظمها.

وفي الحديث: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماء البحر فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت: ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجر» (١).

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لقوله ﴿وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى﴾: وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظلله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة.

والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعبانا، ولما فر منها هاربا، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية (٢).

وقوله. سبحانه.: ﴿قالَ أَلْقِها يا مُوسى﴾ جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله. تعالى. لموسى بعد ذلك؟.

فكان الجواب: قال. سبحانه. لموسى: اطرح يا موسى هذه العصا التي بيمينك لترى ما يكون بعد ذلك. ﴿فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى﴾.

أى: فامتثل موسى أمر ربه، فألقاها على الأرض، ونظر إليها فإذا هي قد تحولت بقدرة الله. تعالى. إلى «حية». أى ثعبان عظيم. «تسعى»، أى: تمشى على الأرض

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٨٦ وقد تعرض لمنافع العصا فليرجع إليها من شاء.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧٣.

بسرعة وخفة حركة ووصفها . سبحانه . هنا بأنها ﴿حَيَّةٌ تَسْعى﴾ ، ووصفها في سورة الشعراء بأنها ﴿ثُعْبانٌ مُبِينٌ﴾ [١] ووصفها في سورة النمل بأنها ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ﴾ [٢].

ولا تنافى بين هذه الأوصاف ، لأن الحية اسم جنس يطلق على الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، والثعبان : هو العظيم منها ، والجان : هو الحية الصغيرة الجسم ، السريعة الحركة.

وقد صرحت بعض الآيات أن موسى . عليه السلام . عند ما رأى عصاه قد تحولت إلى ذلك ، ولى مدبرا ولم يعقب. قال . تعالى . : ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ..﴾.

ولكن الله . تعالى . ثبت فؤاده ، وطمأن نفسه : ﴿قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ﴾ أى : خذ هذه الحية التي تحولت عصاك إليها ولا تخف منها ، كما هو الشأن في الطبائع البشرية ، فإنا ﴿سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى﴾ أى : سنعيد هذه الحية إلى هيئتها الأولى التي كانت عليها قبل أن تصير حية تسعى ، وهي أن نعيدها بقدرتنا التي لا يعجزها شيء إلى عصا كما كانت من قبل.

فالجملة الكريمة مسوقة لتعليل وجوب الامتثال للأمر وعدم الخوف ، أى : خذها ولا تخف منها ، فإن هذه الحية سنرجعها عصا كما كانت من قبل.

وقوله . تعالى . ﴿سِيرَتَهَا﴾ فعلة من السّير ، وهي الحالة والهيئة التي يكون عليها الإنسان ، وهو منصوب بنزع الخافض. أى : سنعيدها إلى هيئتها وحالتها الأولى.

قالوا : ومن الحكم التي من أجلها حول الله . تعالى . العصا إلى حية تسعى : توطين قلب موسى . عليه السلام . على ذلك ، حتى لا يضطرب إذا ما تحولت إلى ثعبان عظيم عند ما يلقيها أمام فرعون وقومه.

فقد جرت عادة الإنسان أن يقل اضطرابه من الشيء العجيب الغريب بعد رؤيته له لأول مرة.

ثم وجه . سبحانه . أمرا آخر إلى عبده موسى فقال : ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى﴾.

والضم : الجمع. يقال : ضم فلان أصابعه إذا جمعها. والجناح ، يطلق على العضد وعلى الجنب ، وعلى الإبط. وأصله جناح الطائر وسمى بذلك لأنه يجنحه ، أى : يميله عند الطيران ، ثم توسع فيه فأطلق على العضد وغيره.

---

(١) الآية ٣٢.

(٢) الآية ١٠.

والمراد باليد هنا : كف يده اليمنى.

والسوء : الرديء والقبيح من كل شيء ، وكنى به هنا عن البرص لشدة قبحه.

والمعنى : واضمم . يا موسى . يدك اليمنى الى عضد يدك اليسرى بأن تجعلها تحته عند الإبط. ثم أخرجها فإنها تخرج ﴿بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى : تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض دون أن يعلق بها أى سوء من برص أو مرض أو غيرهما ، وإنما يكون بياضها بياضا مشرقا بقدرة الله . تعالى . وإرادته.

قال الحسن البصري : أخرجها . والله . كأنها مصباح ، فعلم موسى أنه قد لقى ربه . تعالى ..

وقوله : ﴿تَخْرُجْ بَيْضاءَ ...﴾ جواب الأمر وهو قوله : ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ﴾.

وقوله : ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ احتراس لدفع توهم أن يكون بياضها بسبب مرض أو أذى ، وهو متعلق بتخرج.

وقوله : ﴿آيَةً أُخْرى﴾ أى : معجزة أخرى غير معجزة العصا التي سبق أن منحناها لك.

كما قال . تعالى : ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾ [1].

وقوله : ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى﴾ ، تعليل لمحذوف ، أى : فعلنا ما فعلنا من إعطائك معجزة العصا ومعجزة اليد ، لنريك بهاتين المعجزتين بعض معجزاتنا الكبرى ، الدالة على عظيم قدرتنا ، وانفرادنا بالربوبية والألوهية.

ثم صرح . سبحانه . بالمقصود من إعطاء موسى هاتين المعجزتين العظيمتين فقال : ﴿اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى﴾ أى : اذهب يا موسى ومعك هاتان المعجزتان ، فادعه إلى عبادتي وحدي ، ومره فليحسن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم ، وانهه عن التجبر والظلم ، فإنه قد طغى وبغى وتجاوز حدود الحق والعدل ، وزعم للناس أنه ربهم الأعلى.

وهنا التمس موسى . عليه‌السلام . العون من خالقه ، لكي يتسنى له أداء ما كلفه به فقال : ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أى : أسألك يا إلهى أن توسع صدري بنور الإيمان والنبوة ، وأن تجعله يتقبل تكاليفك بسرور وارتياح.

﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أى : وسهل لي ما أمرتنى به ، فإنك إن لم تحطنى بهذا التيسير ، فلا

(١) سورة القصص الآية ٣٢.

طاقة لي بحمل أعباء هذه الرسالة.

قال صاحب الكشاف : «لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي ـ لعنه الله ـ عرف أنه كلف أمرا عظيما ، وخطبا جسيما يحتاج معه إلى احتمال مالا يحتمله إلا ذو جأش رابط ، وصدر فسيح ، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ، ويفسح قلبه ، ويجعله حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر .. وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه ، وما يصحبها من مزاولة معاظم الشئون ، ومقاساة جلائل الخطوب.» (١).

وقوله : ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ دعاء ثالث تضرع به إلى خالقه ـ تعالى ـ أى : وأسألك يا رب أن تحل عقدة من لساني حتى يفهم الناس قولي لهم ، وحديثي معهم ، فهما يتأتى منه المقصود ، فمن للتبعيض ، أى : واحلل عقده كائنة من عقده.

وقد روى أنه كان بلسانه حبسة ، والأرجح أن هذا هو الذي عناه ، ويؤيده قوله ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ، إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٢).

قال ابن كثير : «ذلك لما كان أصابه من اللثغ ، حين عرض عليه ـ فرعون ـ التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه .. وما سأل أن يزول ذلك بالكلية ، بل حيث يزول العي ، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال ، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بقدر الحاجة ، ولهذا بقيت بقية.

قال الحسن البصري : سأل موسى ربه أن يحل عقدة واحدة من لسانه ، ولو سأل أكثر من ذلك لأعطى» (٣).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ دعاء آخر تضرع به إلى ربه في أمر خارجى عنه ، بعد أن دعاه في أمر يتعلق بصدره ولسانه.

وقوله : ﴿وَزِيراً﴾ من الموازرة وهي المعاونة. يقال : وازرت فلانا موازرة ، إذا أعنته على أمره. أو من الوزر ـ بفتح الواو والزاى ـ وهو الملجأ الذي يعتصم به الإنسان لينجو من الهلاك.

أى : وأسألك ـ يا إلهى ـ أن تجعل لي «وزيرا» أى : معينا وظهيرا من أهلى في إبلاغ

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٠.

(٢) سورة القصص الآية ٣٤.

(٣) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧٦.

رسالتك ، وهذا الوزير والمعين هو أخى هارون ، الذي أسألك أن تقوى به ظهري ، وأن تجعله شريكا لي في تبليغ رسالتك ، حتى نؤديها على الوجه الأكمل وكأن موسى . عليه السلام . قد علم من نفسه حدة الطبع ، وسرعة الانفعال ، فالتجأ إلى ربه لكي يعينه بأخيه هارون ، ليقويه ويتشاور معه في الأمر الجليل الذي هو مقدم عليه ، وهو تبليغ رسالة الله إلى فرعون الذي طغى وبغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى.

قال ابن عباس : نبئ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى.

وقوله : ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً* وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً* إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً﴾ تعليل للدعوات الصالحات التي تضرع بها موسى إلى ربه . تعالى ..

أى : أجب . يا إلهى . دعائي بأن تشرح صدري .. وتشد بأخى هارون أزرى ، كي نسبحك تسبيحا كثيرا ، ونذكرك ذكرا كثيرا ، إنك . سبحانك . كنت وما زلت بنا بصيرا ، لا يخفى عليك شيء من أمرنا أو من أمر خلقك ، فأنت المطلع على حالنا وعلى ضعفنا ، وأنت العليم بحاجتنا إليك وإلى عونك ورعايتك.

بهذه الدعوات الخاشعات ابتهل موسى إلى ربه ، وأطال الابتهال في بسط حاجته ، وكشف ضعفه .. فماذا كانت النتيجة؟.

لقد كانت النتيجة أن أجاب الله له دعاءه ، وحقق له مطالبه ، وذكره ببعض مننه عليه فقال . تعالى . :.

﴿قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً

فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(٤١)

قوله ـ سبحانه ـ : ﴿قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى﴾ حكاية لما رد الله ـ تعالى ـ به على نبيه موسى ـ عليه‌السلام ـ بعد أن تضرع إليه بتلك الدعوات النافعات.

والسؤال هنا بمعنى المسئول ، كالأكل بمعنى المأكول.

قال الآلوسى : «والإيتاء : عبارة عن تعلق إرادته ـ تعالى ـ بوقوع تلك المطالب وحصولها له ـ عليه‌السلام ـ ألبتة ، وتقديره ـ تعالى ـ إياها حتما ، فكلها حاصلة له ـ عليه‌السلام ـ وإن كان وقوع بعضها بالفعل مرتبا بعد ، كتيسير الأمر ، وشد الأزر ..» [1].

أى : قال الله ـ تعالى ـ لموسى بعد أن ابتهل إليه ـ سبحانه ـ بما ابتهل : لقد أجبنا دعاءك يا موسى ، وأعطيناك ما سألتنا إياه ، فطب نفسا وقر عينا.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى﴾ تذكير منه ـ سبحانه ـ لموسى ، بجانب من النعم التي أنعم بها عليه ، حتى يزداد ثباتا وثقة بوعد الله ـ تعالى ـ ولذا صدرت الجملة بالقسم.

أى : وبعزتي وجلالي لقد مننا عليك ، وأحسنا إليك ﴿مَرَّةً أُخْرى﴾ قبل ذلك ، ومنحناك من رعايتنا قبل أن تلتمس منا أن نشرح لك صدرك ، وأن نيسر لك أمرك ...

ثم فصل ـ سبحانه ـ هذه المنن التي امتن بها على عبده موسى ، فذكر ثمانية منها : أما أول هذا المنن فتتمثل في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى﴾.

و ﴿إِذْ﴾ ظرف لقوله ﴿مَنَنَّا﴾ والإيحاء : الإعلام في خفاء .. وإيحاء الله ـ تعالى ـ إلى أم موسى كان عن طريق الإلهام أو المنام أو غيرهما.

قال صاحب الكشاف : «الوحى إلى أم موسى : إما أن يكون على لسان نبي في وقتها ، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ﴾ أو يبعث إليها ملكا لا على وجه النبوة كما بعث إلى مريم. أو يريها ذلك في المنام فتتنبه عليه أو يلهمها كقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٨٦.

أى : أوحينا إليها أمرا لا سبيل إلى التوصل إليه ، ولا إلى العلم به ، إلا بالوحي [1].

والمعنى : ولقد مننا عليك يا موسى مرة أخرى ، وقت أن أوحينا إلى أمك بما أوحينا من أمر عظيم الشأن ، يتعلق بنجاتك من بطش فرعون.

فالتعبير بالموصول في قوله : ﴿ما يُوحى﴾ للتعظيم والتهويل ، كما في قوله . تعالى . ﴿فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى﴾.

ثم وضح . سبحانه . ما أوحاه إلى أم موسى فقال : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ، يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ..﴾.

و ﴿أَنِ﴾ في قوله ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ﴾ مفسرة ، لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه.

والمراد بالقذف هنا : الوضع ، والمراد به في قوله ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِ﴾ الإلقاء في البحر وهو نيل مصر.

والتابوت : الصندوق الذي يوضع فيه الشيء.

والمعنى : لقد كان من رعايتنا لك يا موسى أن أوحينا إلى أمك عند ما خافت عليك القتل : أن ضعى ابنك في التابوت ، ثم بعد ذلك اقذفيه بالتابوت في البحر ، ويأمرنا وقدرتنا يلقى اليم بالتابوت على شاطئ البحر وساحله ، وفي هذه الحالة يأخذه عدو لي وعدو له ، وهو فرعون الذي طغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى.

والضمائر كلها تعود إلى موسى . عليه‌السلام . وقيل إن الضمير في قوله ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِ﴾.

وفي قوله ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ يعود إلى التابوت ، والأول أرجح ، لأن تفريق الضمائر هنا لا داعي له ، بل الذي يقتضيه بلاغة القرآن الكريم ، عودة الضمائر إلى موسى . عليه‌السلام . قال بعض العلماء : وصيغة الأمر في قوله ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ فيها وجهان معروفان عند العلماء.

أحدهما : أن صيغة الأمر معناها الخبر : قال أبو حيان في البحر : وقوله ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أمر معناه الخبر ، وجاء بصيغة الأمر مبالغة ، إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها.

الثاني : أن صيغة الأمر في قوله ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أريد بها الأمر الكونى القدري كقوله : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فالبحر لا بد أن يلقيه بالساحل ، لأن الله

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٢.

ـ تعالى ـ أمره بذلك كونا وقدرا .. »[1].

وقوله ﴿يَأْخُذْهُ﴾ مجزوم في جواب الطلب وهو قوله ﴿فَلْيُلْقِهِ ...﴾ إذ أنه على الوجه الأول يكون الطلب باعتبار لفظه وصيغته.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ بيان للمنة الثانية.

قال الآلوسى : وكلمة «منى» متعلقة بمحذوف وقع صفة لمحذوف ، مؤكدة لما في تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية. أى : وألقيت عليك محبة عظيمة كائنة منى ـ لا من غيرى ـ قد زرعتها في القلوب ، فكل من رآك أحبك[2].

ولقد كان من آثار هذه المحبة : عطف امرأة فرعون عليه ، وطلبها منه عدم قتله ، وطلبها منه كذلك أن يتخذه ولدا.

وكان من آثار هذه المحبة أن يعيش موسى في صغره معززا مكرما في بيت فرعون مع أنه في المستقبل سيكون عدوا له.

وهكذا رعاية الله ـ تعالى ـ ومحبته لموسى جعلته يعيش بين قوى الشر والطغيان آمنا مطمئنا.

قال ابن عباس : أحب الله ـ تعالى ـ موسى ، وحببه إلى خلقه.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي﴾ بيان للمنة الثالثة ...

أى : أوحيت إلى أمك بما أوحيت من أجل مصلحتك ومنفعتك وألقيت عليك محبة منى ، ليحبك الناس ، ولتصنع على عيني. أى : ولتربى وأنت محاط بالحنو والشفقة تحت رعايتى وعنايتي وعيني ، كما يراعى الإنسان بعينه من يحبه ويهتم بأمره.

وهذا ما حدث لموسى فعلا ، فقد عاش في طفولته تحت عين فرعون ، وهو عدو لله ـ تعالى ـ ومع ذلك لم تستطع عين فرعون أن تمتد بسوء إلى موسى ، لأن عين الله ـ تعالى ـ كانت ترعاه وتحميه من بطش فرعون وشيعته.

فالجملة الكريمة فيها من الرفق بموسى ـ عليه‌السلام ـ ومن الرعاية له ، ما يعجز القلم عن وصفه.

وكيف يستطيع القلم وصف حال إنسان قال الله في شأنه : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي﴾.

قال صاحب الكشاف : أى : ولتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل

---

(١) أضواء البيان ج ٥ ص ٤٠٦.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٨٩.

الشيء بعينه إذا اعتنى به ، وتقول للصانع ؛ اصنع هذا على عيني إنى أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادى وبغيتي.

وقوله : ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ معطوف على علة مضمرة مثل : ليتعطف عليك .. أو حذف معلله أى : ولتصنع على عيني فعلت ذلك (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ المنة الرابعة على موسى فقال : ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ ، فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ ...﴾.

وكان ذلك بعد أن التقط آل فرعون موسى من فوق الشاطئ ، وبعد أن امتنع عن الرضاعة من أى امرأة سوى أمه.

أى : وكان من مظاهر إلقاء محبتي عليك ، ورعايتي لك ، أن أختك بعد أن أمرتها أمك بمعرفة خبرك ، سارت في طرقات مصر فأبصرتك في بيت فرعون وأنت تمتنع عن الرضاعة من أى امرأة ، فقالت أختك لفعون وامرأته ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾.

أى : ألا تريدون أن أرشدكم إلى امرأة يقبل هذا الطفل الرضاعة منها ، وتحفظه وترعاه ، والفاء في قوله : ﴿فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ﴾ هي الفصيحة. أى : التي تفصح عن كلام مقدر.

والمعنى : بعد أن قالت أختك لفرعون وامرأته : هل أدلكم على من يكفله. أجابوها بقولهم : دلينا عليها ، فجاءت بأمك فرجعناك إليها كي تسر برجوعك ، ويمتلئ قلبها فرحا بلقائها بك بعد أن ألقتك في اليم ، ولا تحزن بسبب فراقك عنها.

ثم حكى ـ سبحانه ـ المنة الخامسة فقال : ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِ﴾ وكان ذلك عند ما استنصر به رجل من قومه على رجل من أعدائه.

أى : وقتلت نفسا هي نفس القبطي ، عند ما استعان بك عليه الإسرائيلى فنجيناك من الغم الذي نزل بك بسبب هذا القتل.

قال الآلوسى : وقد حل له هذا الغم من وجهين : خوف عقاب الله ـ تعالى ـ حيث لم يقع القتل بأمره ـ سبحانه ـ وخوف القصاص ، وقد نجاه الله من ذلك بالمغفرة حين قال : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ وبالمهاجرة إلى مدين.

والغم في الأصل : ستر الشيء ، ومنه الغمام لستره ضوء الشمس. ويقال : لما يغم القلب بسبب خوف أو فوات مقصود .. (٢).

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٣.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٩٣.

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ بيان للمنة السادسة التي امتن الله ـ تعالى ـ بها على موسى ـ عليه السلام ـ ..

والفتون : جمع فتن كالظنون جمع ظن. والفتن : الاختبار والابتلاء تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : أدخلته فيها لتعلم جودته من رداءته.

والمعنى : واختبرناك وابتليناك ـ يا موسى ـ بألوان من الفتن والمحن.

ونظم ـ سبحانه ـ هذا الفتن والاختبار في سلك المنن ، باعتبار أن الله ـ تعالى ـ ابتلاه بالفتن ثم نجاه منها ، ونجاه من شرورها.

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية حديثا طويلا سماه بحديث الفتون ، ذكر فيه قصة مولد موسى ، وإلقائه في اليم ، وتربيته في بيت فرعون ، وقتله للقبطي ، وهروبه إلى مدين ، وعودته منها إلى مصر. وتكليف الله ـ تعالى ـ له بالذهاب الى فرعون ، ودعوته إلى عبادة الله وحده .. إلخ [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى﴾ أى : فلبثت عشر سنين في قرية أهل مدين ، تعمل كأجير عند الرجل الصالح. ثم جئت بعد ذلك إلى المكان الذي ناديتك فيه ﴿عَلى قَدَرٍ﴾ أى على وفق الوقت الذي قدرناه لمجيئك ، وحددناه لتكليمك واستنبائك ، دون أن تتقدم أو تتأخر ، لأن كل شيء عندنا محدد ومقدر بوقت لا يتخلف عنه.

قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾ وقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ وقال ـ عز وجل ـ : ﴿وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾.

ثم حكى ـ سبحانه ـ المنة الثامنة : فقال : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أى : وجعلتك محل صنيعتي وإحسانى ، حيث اخترتك واصطفيتك لحمل رسالتي وتبليغها إلى فرعون وقومه ، وإلى قومك بنى إسرائيل.

فالآية الكريمة تكريم عظيم لموسى ـ عليه السلام ـ اختاره الله ـ تعالى ـ واجتباه من بين خلقه لحمل رسالته إلى فرعون وبنى إسرائيل.

هذه ثماني منن ساقها الله ـ تعالى ـ هنا مجملة ، وقد ساقها ـ سبحانه ـ في سورة القصص بصورة أكثر تفصيلا ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧٩ وما بعدها.

الْمُرْسَلِينَ* فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ* وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (١).

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ بعض المنن التي امتن بها على نبيه موسى ـ عليه السلام ـ أتبع ذلك بذكر بعض التوجيهات التي أمره بفعلها ، حيث كلفه بتبليغ الدعوة إلى فرعون ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (٤٤) قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (٤٥) قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى (٤٦) فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾(٤٨)

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَلا تَنِيا﴾ فعل مضارع مصدره الونى ـ بفتح الواو وسكون النون ـ بمعنى الضعف والفتور والتراخي في الأمر.

يقال : ونى فلان في الأمر يني ونيا ـ كوعد يعد وعدا ـ إذا ضعف وتراخى في فعله.

وقوله : ﴿أَخُوكَ﴾ فاعل لفعل محذوف. أى : وليذهب معك أخوك.

والمراد بالآيات : المعجزات الدالة على صدق موسى ـ عليه السلام ـ ، وعلى رأسها عصاه التي ألقاها فإذا هي حية تسعى ، ويده التي ضمها إلى جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء.

---

(١) سورة القصص الآيات من ٧ ـ ٩.

والمعنى : اذهب يا موسى أنت وأخوك إلى حيث آمركما متسلحين بآياتى ومعجزاتي ، ولا تضعفا أو تتراخيا في ذكرى وتسبيحي وتقديسي بما يليق بذاتى وصفاتي من العبادات والقربات. فإن ذكركما لي هو عدتكما وسلاحكما وسندكما في كل أمر تقدمان عليه.

فالآية الكريمة تدعو موسى وهارون ، كما تدعو كل مسلم في كل زمان ومكان إلى المداومة على ذكر الله ـ تعالى ـ في كل موطن ، بقوة لا ضعف معها وبعزيمة صادقة لا فتور فيها ولا كلال.

وقد مدح ـ سبحانه ـ المداومين على تسبيحه وتحميده وتقديسه في كل أحوالهم فقال : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ﴾ (١).

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي﴾ الونى : الفتور والتقصير. أى لا تنسيانى ولا أزال منكما على ذكر حيث تقلبتما ، واتخذا ذكرى جناحا تصيران به مستمدين بذلك العون والتأييد منى ، معتقدين أن أمرا من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكرى. ويجوز أن يريد بالذكر تبليغ الرسالة ، فإن الذكر يقع على سائر العبادات ، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها فكان جديرا بأن يطلق عليه اسم الذكر .. (٢).

وقال ابن كثير : والمراد بقوله ﴿وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي﴾ أنهما لا يفتران في ذكر الله ، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عونا لهما عليه ، وقوة لهما. وسلطانا كاسرا له ، كما جاء في الحديث «إن عبدى كل عبدى الذي يذكرني وهو مناجز قرنه» (٣).

ثم أرشدهما ـ سبحانه ـ إلى الوجهة التي يتوجهان إليها فقال : ﴿اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى﴾.

أى : اذهبا إلى فرعون لتبلغاه دعوتي ، ولتأمراه بعبادتي ، فإنه قد طغى وتجاوز حدوده ، وأفسد في الأرض ، وقال لقومه : أنا ربكم الأعلى. وقال لهم ـ أيضا ـ ما علمت لكم من إله غيرى.

قال الجمل : وقوله : ﴿اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ﴾ جمعهما في صيغة أمر الحاضر مع أن هارون لم يكن حاضرا محل المناجاة بل كان في ذلك الوقت بمصر ـ للتغليب فغلب الحاضر على غيره ، وكذا الحال في صيغة النهى. أى : قوله ﴿وَلا تَنِيا﴾ روى أنه ـ تعالى ـ أوحى إلى هارون

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٩٠ ، ١٩١.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٥.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٨٧.

وهو بمصر أن يتلقى موسى ـ عليه السلام ـ وقيل : سمع بإقباله فتلقاه .. [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ إرشاد منه ـ سبحانه ـ إلى الطريقة التي ينبغي لهما أن يسلكاها في مخاطبة فرعون.

أى : اذهبا إليه ، وادعواه إلى ترك ما هو فيه من كفر وطغيان ، وخاطباه بالقول اللين ، وبالكلام الرقيق. فإن الكلام السهل اللطيف من شأنه أن يكسر حدة الغضب ، وأن يوقظ القلب للتذكر ، وأن يحمله على الخشية من سوء عاقبة الكفر والطغيان.

وهذا القول اللين الذي أمرهما الله ـ تعالى ـ به هنا قد جاء ما يفسره في آيات أخرى ، وهي قوله ـ تعالى ـ : ﴿اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى. فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى ..﴾.

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على ألطف أساليب المخاطبة وأرقها وألينها وأحكمها.

قال ابن كثير : قوله ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً ...﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة ، وهي أن فرعون كان في غاية العتو والاستكبار ، وموسى كان صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين كما قال يزيد الوقاشى عند قراءته لهذه الآية : يا من يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟.

والحاصل أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل ، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..﴾ [2].

والترجي في قوله ـ تعالى ـ : ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ على بابه إلا أنه يعود إلى موسى وهارون.

أى : اذهبا إليه ، وإلينا له القول ، وباشرا الأمر معه مباشرة من يرجو ويطمع في نجاح سعيه ، وحسن نتيجة قوله.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : والترجي لهما أى : اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو أن يثمر عمله فهو يجتهد بطوقه ، ويحتشد ـ أى ـ يستعد ويتأهب ـ بأقصى وسعه ، وجدوى إرسالهما إليه مع العلم أنه لن يؤمن ، إلزام الحجة ،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٩٣.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٨٨.

وقطع المعذرة ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى﴾ [1].

ويرى بعضهم أن الترجي هنا للتعليل. أى : فقولا له قولا لينا لأجل أن يتذكر أو يخشى.

قال الآلوسى : قال الفراء : «لعل» هنا بمعنى كي التعليلية .. وعن الواقديّ : أن جميع ما في القرآن من «لعل» فإنها للتعليل ، إلا قوله ـ تعالى ـ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ فإنها للتشبيه أى : كأنكم تخلدون [2].

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله موسى وهارون عند ما أمرهما ـ جل جلاله ـ بذلك فقال : ﴿قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى﴾.

أى : قال موسى وهارون بعد أن أمرهما ربهما بالذهاب إلى فرعون لتبليغه دعوة الحق : يا ربنا إننا نخاف ﴿أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا﴾ أى يعاجلنا بالعقوبة قبل أن ننتهي من الحديث معه في الأمر.

يقال : فرط فلان على فلان يفرط إذا عاجله بالعقوبة وأذاه بدون تمهل ، ومنه قولهم : فرس فارط ، أى سابق لغيره من الخيل.

﴿أَوْ أَنْ يَطْغى﴾ أى يزداد طغيانه ، فيقول في حقك يا ربنا مالا نريد أن نسمعه ، ويقول في حقنا ما نحن برءاء منه ، ويفعل معنا ما يؤذينا.

وقد جمع ـ سبحانه ـ بين القولين اللذين حكاهما عنهما ، لأن الطغيان أشمل من الإفراط ، إذ الجملة الأولى تدل على الإسراع بالأذى لأول وهلة ، أما الثانية فتشمل الإسراع بالأذى ، وتشمل غيره من ألوان الاعتداء سواء أكان في الحال أم في الاستقبال.

وهنا يجيبهما الخالق ـ جل وعلا ـ بما يثبت فؤادهما ، ويزيل خوفهما فقال : ﴿لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾.

أى : قال الله ـ تعالى ـ لهما لا تخافا من بطش فرعون ، إننى معكما بقوتي وقدرتي ورعايتى ، وإننى أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى فعلكما وفعله. لا يخفى على شيء من حالكما وحاله ، فاطمئنا أننى معكما بحفظي ونصرى وتأييدى ، وأن هذا الطاغية ناصيته بيدي ، ولا يستطيع أن يتحرك أو يتنفس إلا بإذنى ...

ثم رسم لهما ـ سبحانه ـ طريق الدعوة فقال : ﴿فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ..﴾.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٥.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٩٥.

أى : فأتيا فرعون ، وادخلا عليه داره أو مكان سلطانه ، وقولا له بلا خوف أو وجل ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ الذي خلقك فسواك فعدلك.

وكان البدء بهذه الجملة لتوضيح أساس رسالتهما ، ولإحقاق الحق من أول الأمر ، ولإشعاره منذ اللحظة الأولى بأنهما قد أرسلهما ربه وربهما ورب العالمين ، لدعوته إلى الدين الحق ، وإلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وإلى التخلي عن الكفر والطغيان. وأنهما لم يأتياه بدافع شخصى منهما وإنما أتياه بتكليف من ربه ورب العالمين.

أما الجملة الثانية التي أمرهما الله ـ تعالى ـ أن يقولاها لفرعون فقد حكاها ـ سبحانه ـ بقوله : ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أى : فأطلق سراح بنى إسرائيل ، ودعهم يعيشون أحرارا في دولتك ولا تعذبهم باستعبادهم وقهرهم ، وقتل أبنائهم ، واستحياء نسائهم.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ ، يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ ، وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [1].

قال الآلوسى : والمراد بالإرسال : إطلاقهم من الأسر ، وإخراجهم من تحت يده العادية ، لا تكليفهم أن يذهبوا معهما إلى الشام ، كما ينبئ عنه قوله ـ سبحانه ـ ﴿وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أى : بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب ، فإنهم كانوا تحت سيطرة القبط ، يستخدمونهم في الأشغال الشاقة كالحفر والبناء .. [2].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ جملة ثالثة تدل على صدقهما في رسالتهما.

والمراد بالآية هنا : جنسها ، فتشمل العصا واليد وغيرهما من المعجزات التي أعطاها الله ـ تعالى ـ لنبيه موسى ـ عليه‌السلام ـ ..

أى : قد جئناك بمعجزة من ربك تثبت صدقنا ، وتؤيد مدعانا ، وتشهد بأنا قد أرسلنا الله ـ تعالى ـ إليك لهدايتك ودعوتك أنت وقومك إلى الدخول في الدين الحق.

فالجملة الكريمة تقرير لما تضمنه الكلام السابق من كونهما رسولين من رب العالمين ، وتعليل لوجوب إطلاق بنى إسرائيل ، وكف الأذى عنهم.

أما الجملة الرابعة التي أمرهما الله ـ تعالى ـ بأن يقولاها لفرعون فهي قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى﴾.

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٩.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٩٨.

أى : وقولا له ـ أيضا ـ السلامة من العذاب في الدارين لمن اتبع الهدى بأن آمن بالله ـ تعالى ـ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ...

فالسلام مصدر بمعنى السلامة ، وعلى بمعنى اللام. ويفهم من الآية الكريمة أن من لم يتبع الهدى ، لا سلامة له ، ولا أمان عليه.

وفي هذه الجملة من الترغيب في الدخول في الدين الحق ما فيها ، ولذا استعملها النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من كتبه ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في رسالته إلى هرقل ملك الروم : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى ..

ثم حكى ـ سبحانه ـ الجملة الخامسة التي أمر موسى وهارون أن يخاطبا بها فرعون فقال : ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

أى : وقولا له ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا﴾ من عند ربنا وخالقنا ﴿أَنَّ الْعَذابَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿عَلى مَنْ كَذَّبَ﴾ بآياته وحججه ـ سبحانه ـ ﴿وَتَوَلَّى﴾ عنها. وأعرض عن الاستجابة لها.

وبذلك نرى في هذه الآيات الكريمة أسمى ألوان الدعوة إلى الحق وأحكمها ، فهي قد بدأت بالأساس الذي تقوم عليه كل رسالة سماوية ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ وثنت ببيان أهم ما أرسل موسى وهارون من أجله ، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾ وثلثت بإقامة الأدلة على صدقهما ﴿قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ وربعت بالترغيب والاستمالة ﴿وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى﴾.

ثم ختمت بالتحذير والترهيب من المخالفة ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

وبعد أن غرس ـ سبحانه ـ الطمأنينة في قلب موسى وهارون وزودهما بأحكم الوسائل وأنجعها في الدعوة إلى الحق .. أتبع ذلك بحكاية جانب من الحوار الذي دار بينهما وبين فرعون بعد أن التقوا جميعا وجها لوجه فقال ـ تعالى ـ :

﴿قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (٤٩) قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (٥٠) قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى (٥١) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى (٥٢)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (٥٤) مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى (٥٦) قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (٥٨) قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى﴾(٦٠)

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى﴾ حكاية لما قاله فرعون لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ بعد أن ذهبا إليه ليبلغاه دعوة الحق كما أمرهما ربهما ـ سبحانه ..

ولم تذكر السورة الكريمة كيف وصلا إليه .. لأن القرآن لا يهتم بجزئيات الأحداث التي لا تتوقف عليها العبر والعظات ، وإنما يهتم بذكر الجوهر واللباب من الأحداث.

والمعنى : قال فرعون لموسى وهارون بعد أن دخلا عليه. وأبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه : من ربكما يا موسى الذي أرسلكما إلي؟.

وكأنه ـ لطغيانه وفجوره ـ لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه وخالقه. كما قالا له قبل ذلك ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾.

وخص موسى بالنداء مع أنه وجه الخطاب إليهما لظنه أن موسى ـ عليه‌السلام ـ هو الأصل في حمل رسالة الحق إليه ، وأن هارون هو وزيره ومعاونه أو أنه لخبثه ومكره ، تجنب مخاطبة هارون لعلمه أنه أفصح لسانا من موسى ـ عليهما السلام ـ ..

قال صاحب الكشاف : خاطب فرعون الاثنين ، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى ، لأنه

الأصل في النبوة ، وهارون وزيره وتابعه ، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته . أى فسقه . على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه ، لما عرف من فصاحة هارون والرّتة في لسان موسى ، ويدل عليه قوله : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ﴾ (١).

ولا شك أن ما حكاه الله . تعالى . عن فرعون من قوله ﴿فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى﴾ يدل على نهاية الغرور والفجور والجحود ، وشبيه بذلك قوله : . سبحانه . حكاية عنه : ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ...﴾ (٢)

وقوله . تعالى . : ﴿فَحَشَرَ فَنادى فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾.

ثم حكى . سبحانه . بعد ذلك أن موسى قد رد على فرعون ردا يخرسه ويكبته فقال : ﴿قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾.

وقوله ﴿خَلْقَهُ﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول ، وهو المفعول الثاني لقوله ﴿أَعْطى﴾ والمفعول الأول قوله : ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وللعلماء في تفسير هذه الآية الكريمة اتجاهات يؤيد بعضها بعضا ، منها ما يراه بعضهم من أن معنى الآية الكريمة :

١ . قال موسى في رده على فرعون : يا فرعون ربنا وربك هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي أعطى كل مخلوق من مخلوقاته ، وكل شيء من الأشياء ، الصورة التي تلائمه ، والهيئة التي تتحقق معها منفعته ومصلحته ، ثم هداه إلى وظيفته التي خلقه من أجلها ، وأمده بالوسائل والملكات التي تحقق هذه الوظيفة.

وثم في قوله ﴿ثُمَّ هَدى﴾ للتراخي في الرتبة ، إذ اهتداء المخلوق إلى وظيفته مرتبة تعلو كثيرا عن خلقه دون أن يفقه شيئا.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : «أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به ، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار ، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع ، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان ، كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه.

﴿ثُمَّ هَدى﴾ أى : عرفه كيف يرتفق بما أعطى ، وكيف يتوصل إليه ولله در هذا الجواب ، وما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ، ونظر بعين الإنصاف وكان طالبا للحق (٣).

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٧.

(٢) سورة القصص الآية ٣٨.

(٣) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٧.

٢ ـ ومنهم من يرى أن المعنى : قال موسى لفرعون : ربنا الذي أعطى كل شيء نظير خلقه في الصورة والهيئة ، كالذكور من بنى آدم ، أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجا ، وكالذكور من البهائم أعطاها نظير خلقها في صورتها وهيئتها من الإناث أزواجا .. ثم هدى الجميع لسائر منافعهم من المطاعم والمشارب ووسائل التناسل.

وقد صدر الإمام ابن جرير تفسيره للآية بهذا المعنى فقال ما ملخصه : وقوله : ﴿قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ يعنى نظير خلقه في الصورة والهيئة .. ثم هداهم للمأتى الذي منه النسل والنماء كيف يأتيه ، ولسائر منافعه من المطاعم والمشارب وغير ذلك [1].

٣ ـ ويرى بعضهم أن : المعنى أعطى كل شيء صلاحه ثم هداه إلى ما يصلحه.

٤ ـ ومنهم من يرى أن قوله ﴿خَلْقَهُ﴾ هو المفعول الأول لأعطى ، وأن قوله ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ هو المفعول الثاني فيكون المعنى : قال موسى لفرعون : ربنا الذي أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه ، ثم هداهم إلى طريق استعماله والانتفاع به.

ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع لهذه المعاني جميعها لأنه ـ سبحانه ـ هو الذي أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه في معاشهم ، ثم هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم ، كما أعطى كل نوع من أنواع خلقه الصورة التي تناسبه ، والشكل الذي يتناسب مع جنسه ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ...﴾.

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما قاله فرعون لموسى : ﴿قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى﴾.

والبال في الأصل : الفكر. تقول : خطر ببالي كذا ، أى : بفكرى وعقلي ، ثم أطلق على الحال التي يهتم بشأنها ، وهذا الإطلاق هو المراد هنا.

أى : قال فرعون بعد أن رد عليه موسى هذا الرد الحكيم : يا موسى فما حال القرون الأولى ، كقوم نوح وعاد وثمود .. الذين كذبوا أنبياءهم ، وعبدوا غير الله ـ تعالى ـ الذي تدعوني لعبادته؟.

وسؤاله هذا يدل على خبثه ومكره ، لأنه لما سمع من موسى الجواب المفحم له على سؤاله السابق ﴿فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى﴾ أراد أن يصرف الحديث إلى منحى آخر يتعلق بأمور لا صلة لها برسالة موسى إليه وهي دعوته لعبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، وإطلاق سراح بنى إسرائيل من الأسر.

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ١٣١.

ولذا رد عليه موسى ـ عليه السلام ـ بما يخرس لسانه ، ويبطل كيده ، فقال ـ كما حكى القرآن عنه ـ ﴿عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾.

أى : علم حال هذه القرون الأولى محفوظ عند ربي وحده في كتاب هو اللوح المحفوظ ، وهو ـ سبحانه ـ لا يخفى عليه شيء من حالهم ، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب.

وقوله : ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾ مؤكد لما قبله. أى : لا يخطئ ربي في علمه ، ولا ينسى شيئا مما علمه لأنه منزه عن ذلك ، فالضلال هنا بمعنى الخطأ وقلة الإدراك.

وجمع ـ سبحانه ـ بين نفى الضلال والنسيان ، لإفادة تنزهه عن أن يغيب شيء من أحوال هذا الكون عن علمه الشامل لكل شيء ، ولبيان أن علمه باق بقاء أبديا لا نسيان معه ، ولا زوال له.

ثم بين له آثار علم الله ـ تعالى ـ وقدرته فقال : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً ..﴾.

أى : هو ـ سبحانه ـ الذي جعل لكم الأرض ممهدة كالفراش ، ليتسنى لكم الانتفاع بخيراتها ، وقرأ الأكثرون من السبعة ، ﴿مِهاداً﴾ أى : فراشا. والمهاد في الأصل ما يمهد للصبي لينام عليه.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً﴾ والسلك : الإدخال. أى : وجعل لكم في داخلها طرقا تنتقلون فيها من مكان إلى مكان ، ومن بلدة إلى أخرى ، لقضاء مصالحكم.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى﴾ والأزواج : الأصناف.

أى : وأنزل ـ سبحانه ـ بقدرته من السماء ماء نافعا كثيرا فأخرجنا بسبب هذا الماء من الأرض أصنافا شتى ـ أى متفرقة ـ من النبات ، وهذه الأصناف مختلفة المنافع والألوان والطعوم والروائح ، مما يدل على كمال قدرتنا ، ونفاذ إرادتنا.

وفي قوله ﴿فَأَخْرَجْنا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم ، للتنبيه على عظم شأن هذا الإخراج ، وأثره الكبير في حياة الناس.

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أربع منن قد امتن الله بها على عباده ، وهي : تمهيد الأرض ، وجعل الطرق فيها ، وإنزال المطر من السماء ، وإخراج النبات المتنوع من الأرض.

وهذه المنن وإن كانت ظاهرة وواضحة في جميع فجاج الأرض ، إلا أنها أظهر ما تكون وأوضح ما تكون في أرض مصر التي كان يعيش فيها فرعون حيث تبدو الأرض فيها منبسطة

ممهدة على جانبي النيل الممتد امتدادا كبيرا.

وكان الأجدر بفرعون ـ لو كان يعقل ـ أن يخلص العبادة لواهب هذه المنن ، ومسدي هذه النعم ، وهو الله رب العالمين.

والأمر في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ﴾ للإباحة.

أى : هذه الأرض وما اشتملت عليه من طرق ومن نبات شتى هي لمنفعتكم ومصلحتكم ، فكلوا ـ أيها الناس ـ من هذه الثمار المتنوعة التي انشقت عنها الأرض ، وارعوا أنعامكم من إبل وبقر وغنم في المكان الصالح للرعي من هذه الأرض ، واشكروا الله ـ تعالى ـ على هذه النعم لكي يزيدكم منها.

واسم الإشارة في قوله ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى﴾ يعود إلى المذكور من تلك النعم السابقة.

و ﴿النُّهى﴾ جمع نهية ـ بضم النون وإسكان الهاء ـ وهي العقل. سمى بذلك لأنه ينهى صاحبه عما لا يليق. تقول العرب : نهو الرجل ـ ككرم ـ إذا كملت نهيته ، أى عقله.

والمعنى : إن في ذلك الذي ذكرناه لكم من نعمة تمهيد الأرض ، وجعل الطرق فيها : وإنزال المطر عليها ، وإخراج النبات منها .. إن في كل ذلك لآيات وعظات وعبر ، لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن هذه الأرض منها خلق الإنسان ، وإليها يعود ، ومنها يبعث للحساب يوم القيامة ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿مِنْها خَلَقْناكُمْ ، وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى﴾.

والضمير في «منها ، وفيها» يعود إلى الأرض المذكورة قبل ذلك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً ..﴾ والتارة : بمعنى المرة.

أى : من هذه الأرض خلقنا أباكم آدم ، وأنتم تبع له ، وفرع عنه ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وقوله : ﴿وَفِيها نُعِيدُكُمْ﴾ أى : وفي الأرض نعيدكم عند موتكم ، حيث تكون محل دفنكم واستقرار أجسادكم.

وقوله : ﴿وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى﴾ أى : ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى أحياء يوم القيامة ، للحساب والجزاء.

قال ـ تعالى ـ : ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ* يَوْمَ

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ (١).

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ، هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٢).

قال ابن كثير : وهذه الآية كقوله ـ تعالى ـ : ﴿قالَ فِيها تَحْيَوْنَ ، وَفِيها تَمُوتُونَ ، وَمِنْها تُخْرَجُونَ﴾ (٣).

وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر ثم قال : «منها خلقناكم» ثم أخذ أخرى وقال : «وفيها نعيدكم» ثم أخرى وقال : «ومنها نخرجكم تارة أخرى» (٤).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى﴾ بيان للموقف الجحودى الذي وقفه فرعون من الحجج والمعجزات التي طرحها أمامه موسى ـ عليه‌السلام ـ ..

وأريناه : من الرؤية البصرية المتعدية إلى مفعول واحد فلما دخلت عليها الهمزة تعدت إلى اثنين أولهما الهاء والثاني آياتنا.

والإضافة في ﴿آياتِنا﴾ قائمة مقام التعريف العهدي. أى : آياتنا المعهودة لموسى ، والتي على رأسها اليد والعصا.

والمعنى : ولقد أرينا فرعون بعينيه آياتنا كلها الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق نبينا موسى ، فكانت نتيجة ذلك أن كذب بها ، وأبى أن يستجيب للحق ..

كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥).

وكما قال ـ سبحانه ـ : ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ﴾ (٦).

والآية الكريمة تؤكد جحود فرعون وطغيانه بجملة من المؤكدات ، وهي لام القسم ، وقد ، والرؤية البصرية ، ولفظ «كل» الدال على الشمول والإحاطة.

والفاء في قوله ﴿فَكَذَّبَ﴾ للتعقيب ، أى : فكذب بدون تريث أو تمهل.

والمفعول محذوف. أى : فكذب الآيات أو فكذب موسى بدون تردد أو تأخير.

والتعبير بقوله ﴿فَكَذَّبَ وَأَبى﴾ لزيادة ذمه وتحقير شأنه. لأنه لم يكتف بالتكذيب بل أضاف إلى ذلك الامتناع عن قبول الآيات ، والجحود لها ، والتعالي على من جاء بها كما ينبئ

(١) سورة المعارج الآيتان ٤٢ ، ٤٣.

(٢) سورة يس الآيتان ٥١ ، ٥٢.

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٥.

(٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٩٢.

(٥) سورة الأعراف الآية ١٣٢.

(٦) سورة الزخرف الآية ٤٧.

عنه قوله : . تعالى . بعد ذلك : ﴿قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى﴾ أي : قال فرعون لموسى على سبيل التهديد والوعيد : يا موسى أجئتنا من المكان الذي هربت إليه ، ومعك هذه الآيات التي رأيناها ، لكي تخرجنا من أرضنا التي عشنا فيها وهي أرض مصر بسبب ما أظهرته أمامنا من سحر وخفة يد.

وسمى اللعين ما جاء به موسى . عليه السلام . من معجزات سحرا ، ليزيل من أذهان قومه أثر هذه المعجزات الباهرة.

وقال : ﴿لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا﴾ ليحمل أتباعه على الوقوف في وجه موسى بإبراز أن موسى جاء ليحتل أرضهم ، ويحوز أموالهم ، ويجعل السلطان لغيرهم.

وقد تكرر هذا المعنى في آيات كثيرة منه قوله . تعالى . : ﴿قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ﴾ (١).

وقوله . سبحانه . : ﴿قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا ، وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ ، وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

ثم أضاف فرعون إلى تهديده لموسى تهديدا آخر فقال : ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ، فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً﴾.

وقوله : ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ ...﴾ جواب لقسم محذوف. أى : والله لنأتينك بسحر مثله ..

قال الجمل : وقوله : ﴿مَوْعِداً﴾ يجوز أن يكون زمانا ، ويرجحه قوله : ﴿قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾.

والمعنى : عين لنا وقت اجتماع : ولذلك أجابهم بقوله : ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ ويجوز أن يكون مكانا ، والمعنى : بين لنا مكانا معلوما نعرفه نحن وأنت فنأتيه ، وهذا يؤيده قوله : ﴿مَكاناً سُوىً﴾.

ويجوز أن يكون مصدرا ، ويؤيد هذا قوله ﴿لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ﴾ لأن المواعدة توصف بالخلف وعدمه (٣).

وقوله : ﴿لا نُخْلِفُهُ﴾ من الإخلاف بمعنى عدم إنجاز الوعد.

وقوله : ﴿سُوىً﴾ قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة بضم السين ، وقرأه الباقون بالكسر ومعنى القراءتين واحد.

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ٣٤ ، ٣٥.

(٢) سورة يونس الآية ٧٨.

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٩٧.

وأصله من الاستواء. يقال : مكان سوى وسواء. أى : عدل ووسط ، بحيث يستوي طرفاه بالنسبة للفريقين.

أى : قال فرعون لموسى مهددا ومتوعدا : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، والله لنأتينك بسحر مثل سحرك ، فاجعل بيننا وبينك موعدا للمباراة والمنازلة ، لا نخلف نحن ولا أنت هذا الموعد ، وأن يكون مكان منازلتنا لك في مكان يتوسط المدينة ، بحيث يستطيع جميع سكانها أن يحضروا إليه.

والمتأمل في الآية الكريمة يرى أن فرعون قد قال ما قال لموسى وهو كأنه قد جمع أطراف النصر بين يديه.

ويشهد لذلك : تصديره كلامه بالقسم ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ ..﴾ وتركه لموسى اختيار الموعد الذي يناسبه ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً﴾ واشتراطه عدم الخلف في الوعد ﴿لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ﴾ واقتراحه أن يكون مكان المبارزة في وسط المدينة ، حتى يراها جميع الناس ﴿مَكاناً سُوىً﴾.

ولقد حكى القرآن أن موسى ـ عليه‌السلام ـ قد قبل تحدى فرعون ، ورد عليه يقول : ﴿قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾.

والمراد بيوم الزينة : يوم كانوا يتزينون فيه ، ويجتمعون فيه ، لأنه يوم عيد لهم.

قيل إنه كان يوم عاشوراء ، وقيل يوم النيروز ...

أى : قال موسى لفرعون : موعد المنازلة بيني وبينكم هو يوم زينتكم وعيدكم ، وفي هذا اليوم أطلب منكم أن يجمع الناس جميعا في وقت الضحى عند ارتفاع الشمس ، لكي يشهدوا ما سيكون بيني وبين سحرتك يا فرعون.

وبذلك نرى أن موسى ـ عليه‌السلام ـ قد قابل تهديد فرعون له ، بتهديد أشد وأعظم ، فقد طلب منه أن يكون موعد المبارزة يوم العيد ، كما طلب منه ـ أيضا ـ أن يجمع الناس في وقت الضحى لكي يشاهدوا تلك المباراة.

قال صاحب الكشاف : وإنما واعدهم موسى ذلك اليوم ، ليكون علو كلمة الله ، وظهور دينه ، وكبت الكافر ، وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد وفي المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق ، ويكل حد المبطلين وأشياعهم ، ويكثر الحديث بذلك في كل بدو وحضر ، ويشيع في جميع. أهل الوبر والمدر [1].

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٧١.

ثم حكى القرآن ما كان من فرعون بعد أن حدد موسى . عليه السلام . موعد المبارزة فقال :

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى﴾.

أى : وبعد أن استمع فرعون إلى موسى ، انصرف من المجلس ، وولى مدبرا ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾.

أى : فجمع كبار سحرته من أطراف مملكته ﴿ثُمَّ أَتى﴾ بهم في الموعد المحدد ، ليتحدى موسى . عليه السلام ..

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ جانبا من المحاورات التي دارت بين موسى وفرعون ، وأرتنا كيف واجه موسى طغيان فرعون وغروره ، برباطة جأش ، وقوة إرادة ، ومضاء عزيمة ..

ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عما دار بين موسى والسحرة من محاورات. انتهت بإيمانهم واعترافهم بالحق الذي جاء به موسى من عند ربه ، قال . تعالى . :

﴿قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى(٦١) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى (٦٢) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (٦٤) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (٦٥) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (٦٧) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (٦٨) وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا

كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى﴾(٧٠)

فقوله . تعالى . : ﴿قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ ...﴾ حكاية لما وجهه موسى . عليه السلام . من نصح وإنذار. قيل : كان عددهم اثنين وسبعين ، وقيل : أكثر من ذلك.

قال الجمل : قوله ﴿فَيُسْحِتَكُمْ﴾ قرأ الأخوان وحفص عن عاصم فيسحتكم . بضم الياء وكسر الحاء .. وقرأ الباقون بفتحهما. فقراءة الأخوين من أسحت الرباعي ، وهي لغة نجد وتميم ، وقراءة الباقين من سحت الثلاثي . وبابه قطع . وهي لغة الحجازيين.

وأصل هذه المادة. الدلالة على الاستقصاء ، والنفاد ، ومنه سحت الحالق الشعر ، أى : استقصاء فلم يترك منه شيئا ، ويستعمل في الإهلاك والإذهاب ، ونصبه بإضمار أن في جواب النهى [1].

أى : قال موسى . عليه السلام . للسحرة الذين التقى بهم وجها لوجه بعد أن حشدهم فرعون أمامه ، فقال لهم : الويل والهلاك لكم ، لا تفتروا على الله . تعالى . كذبا ، بأن تقفوا في وجهى ، وتزعموا أن معجزاتي هي نوع من السحر. فإنكم لو فعلتم ذلك أهلككم الله . تعالى . وأبادكم بعذاب عظيم من عنده.

وجملة ﴿وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى﴾ معترضة لتقرير وتأكيد ما قبلها.

أى : وقد خاب وخسر كل من قال على الله . تعالى . قولا باطلا لا حقيقة له ، وفرعون أول المبطلين المفترين الخاسرين ، فاحذروا أن تسيروا في ركابه ، أو أن تطيعوا له أمرا.

ويبدو أن هذه النصيحة الصادقة المخلصة كان لها أثرها الطيب في نفوس بعض السحرة ، بدليل قوله . تعالى . بعد ذلك ﴿فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى﴾ والنجوى : المسارة في الحديث.

أى : وبعد أن سمع السحرة من موسى نصيحته لهم وتهديده إياهم بالاستئصال والهلاك. إذا ما استمروا في ضلالهم ، اختلفوا فيما بينهم ، ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوى﴾ أى : وبالغوا في إخفاء ما يسارون به عن موسى وأخيه . عليهما السلام ..

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٩٨.

فمنهم من قال ـ كما روى عن قتادة ـ : إن كان ما جاءنا به موسى سحرا فسنغلبه ، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر.

ومنهم من قال بعد أن سمع كلام موسى : ما هذا بقول ساحر.

ومنهم من أخذ في حض زملائه المترددين على منازلة موسى ـ عليه‌السلام ـ ، لأنه جاء هو وأخوه لتغيير عقائد الناس ولاكتساب الجاه والسلطان ، ولسلب المنافع التي تأتى لهم أى للسحرة عن طريق السحر ..

ويبدو أن هذا الفريق الأخير هو الذي استطاع أن ينتصر على غيره من السحرة في النهاية ، بدليل قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : (قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما ، وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى).

فهاتان الآيتان تشيران إلى خوف السحرة من موسى وهارون ، وإلى أنهم بذلوا أقصى جهدهم في تجميع صفوفهم ، وفي تشجيع بعضهم لبعض ، حتى لا يستلب موسى ـ عليه‌السلام ـ منهم جاههم وسلطانهم ومنافعهم ...

أى : قال السحرة بعضهم لبعض بطريق التناجي والإسرار ، ما استقر عليه رأيهم ، من أن موسى وهارون ساحران (يُرِيدانِ) عن طريق سحرهما أن يخرجا السحرة من أرضهم مصر : ليستوليا هما وأتباعهما عليها.

ويريدان كذلك أن يذهبا بطريقتكم المثلى. أى بمذهبكم ودينكم الذي هو أمثل المذاهب وأفضلها ، وبملككم الذي أنتم فيه ، وبعيشكم الذي تنعمون به.

فالمثلى : مؤنث أمثل بمعنى أشرف وأفضل. وإنما أنث باعتبار التعبير بالطريقة. هذا ، وهناك قراءات في قوله تعالى : (إِنْ هذانِ لَساحِرانِ) ذكرها الإمام القرطبي.

فقال ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : (إِنْ هذانِ لَساحِرانِ) قرأ أبو عمرو : إن هذين لساحران ورويت ـ هذه القراءة ـ عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة ...

وقرأ الزهري والخليل ابن أحمد وعاصم في رواية حفص عنه (إِنْ هذانِ لَساحِرانِ) بتخفيف (إِنْ) ... وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب ، ويكون معناها : ما هذان إلا ساحران.

وقرأ المدنيون والكوفيون : ﴿إِنْ هـٰذانِ﴾ بتشديد إن ﴿لَسـاحِرانِ﴾ فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب.

فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة من الأئمة ..

والعلماء في قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال : الأول أنها لغة بنى الحارث بن كعب وزبيد وخثعم .. ، يجعلون رفع المثنى ونصبه وخفضه بالألف .. وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية (١).

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ...﴾ فصيحة ، أى : إذا كان الأمر كذلك من أن موسى وهارون قد حضرا ليخرجاكم من أرضكم بسحرهما .. ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أى : فأحكموا سحركم واعزموا عليه ولا تجعلوه متفرقا.

يقال : أجمع فلان رأيه وأزمعه ، إذا عزم عليه وأحكمه واستعد لتنفيذه وقوله ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أى : ثم ائتوا جميعا مصطفين ، حتى يكون أمركم أكثر هيبة في النفوس ، وأعظم وقعا على القلوب ، وأدعى إلى الترابط والثبات وقوله ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى﴾ تذييل مؤكد لما قبله.

أى : وقد أفلح وفاز بالمطلوب في يوم النزال من طلب العلو ، وسعى من أجله ، واستطاع أن يتغلب على خصمه ، لأننا إذا تغلبنا على موسى كانت لنا الجوائز العظمى ، وإذا تغلب علينا خسرنا خسارة ليس هناك ما هو أشد منها.

وحانت ساعة المبارزة والمنازلة. فتقدم السحرة نحو موسى ـ عليه‌السلام ـ وقالوا له ـ كما حكى القرآن عنهم ـ : ﴿.. يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى﴾.

والإلقاء في الأصل : طرح الشيء ، ومفعول «تلقى» محذوف للعلم به ، والمراد به العصا.

أى ؛ قال السحرة لموسى على سبيل التخيير الذي يبدو فيه التحدي والتلويح بالقوة : يا موسى إما أن تلقى أنت عصاك قبلنا ، وإما أن تتركنا لنلقى حبالنا وعصينا قبلك.

قال الآلوسى : خيروه ـ عليه‌السلام ـ وقدموه على أنفسهم إظهارا للثقة بأمرهم. وقيل. مراعاة للأدب معه ـ عليه‌السلام ـ .. و «أن» مع ما في حيزها منصوب بفعل مضمر. أى ، إما تختار إلقاءك أو تختار كوننا أول من ألقى. أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف.

أى : «الأمر إما إلقاؤك أو كوننا أول من ألقى ..» (٢).

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢١٦.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٢٦.

ثم حكى القرآن بعد ذلك أن موسى - عليه السلام - ترك فرصة البدء لهم ، واستبقى لنفسه الجولة الأخيرة ، فقال - تعالى - : ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى﴾. والتخيل : هو إبداء أمر لا حقيقة له. ومنه الخيال ، وهو الطيف الطارق في النوم.

أى : قال موسى - عليه السلام - للسحرة في الرد على تخييرهم له ، ابدءوا أنتم بإلقاء ما معكم من حبال وعصى.

والفاء في قوله : ﴿فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ...﴾ فصيحة وهي معطوفة على كلام محذوف ، وإذا هي الفجائية.

أى : قال لهم موسى بل ألقوا أنتم أولا ، فامتثلوا أمره وألقوا ما معهم ، فإذا حبالهم وعصيهم التي طرحوها ، جعلت موسى - لشدة اهتزازها واضطرابها - يخيل إليه من شدة سحرهم ، أن هذه الحبال والعصى حيات تسعى على بطونها.

قال ابن كثير : وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد ، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها ، وإنما كانت حيلة ، وكانوا جمّا غفيرا ، وجمعا كبيرا - أى السحرة - فألقى كل منهم عصا وحبلا حتى صار الوادي ملآن حيات ، يركب بعضها بعضا .. [1].

ويبدو أن فعل السحرة هذا ، قد أثر في موسى - عليه السلام - بدليل قوله - تعالى - : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى﴾.

والإيجاس : الإخفاء والإضمار ، والخيفة : الخوف. أى ؛ فأخفى موسى - عليه السلام - في نفسه شيئا من الخوف ، حين رأى حبال السحرة وعصيهم كأنها حيات تسعى على بطونها ، وخوفه هذا حدث له بمقتضى الطبيعة البشرية عند ما رأى هذا الأمر الهائل من السحر ، وبمقتضى أن يؤثر هذا السحر في نفوس الناس فيصرفهم عما سيفعله.

وهنا ثبته الله - تعالى - وقواه ، وأوحى إليه - سبحانه - بقوله : ﴿قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى﴾.

أى : قلنا له عند ما أوجس في نفسه خيفة من فعل السحرة : لا تخف يا موسى مما فعلوه ، إنك أنت الأعلى عليهم بالغلبة والظفر. أنت الأعلى لأن معك الحق ومعهم الباطل.

وقد أكد الله - تعالى - هذه البشارة لموسى بجملة من المؤكدات أحدها : إن المؤكدة ،

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٩٤ - طبعة دار الشعب ..

وثانيها : تكرير الضمير وثالثها : التعبير بالعلو المفيد للاستعلاء عليهم.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا ..﴾ زيادة في تشجيعه وتثبيته.

وتلقف من اللقف بمعنى الأخذ للشيء بسرعة وخفة. يقال : لقف فلان يلقفه لقفا ولقفانا ، إذا تناوله بسرعة وحذق باليد أو الفم.

وفي هذه الكلمات ثلاث قراءات سبعية ، أحدها : «تلقّف» بتاء مفتوحة مخففة ، بعدها لام مفتوحة ، ثم قاف مشددة وفاء ساكنة ، وأصل الفعل تتلقف ، فحذفت إحداهما تخفيفا ، وهو مجزوم في جواب الأمر وهو ﴿أَلْقِ﴾.

وثانيها : ﴿تَلْقَفْ﴾ كالقراءة السابقة مع ضم الفاء ، على أن الفعل خبر لمبتدأ محذوف. أى : وألق ما في يمينك فهي تلقف ما صنعوا.

وثالثها : ﴿تَلْقَفْ﴾ بفتح التاء وسكون اللام وفتح القاف المخففة وجزم الفعل كالقراءة الأولى.

والمراد بما في يمينه عصاه ، كما جاء ذلك صريحا في آيات أخرى منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ﴾.

وعبر عنها بقوله : ﴿ما فِي يَمِينِكَ﴾ على سبيل التهويل من شأنها ، أو لتذكيره بما شاهده منها بعد أن قال الله ـ تعالى ـ له قبل ذلك ﴿وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى .. قالَ أَلْقِها يا مُوسى ، فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى ...﴾.

والمعنى : وألق يا موسى ما في يمينك تبتلع كل ما صنعه السحرة من تمويه وتزوير وتخييل ، جعل الناس يتوهمون أن حبالهم وعصيهم تسعى.

قال ابن كثير : وذلك أنها صارت تنينا هائلا ـ أى حية عظيمة ـ ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلقفته وابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانا جهارا نهارا .. فقامت المعجزة ، واتضح البرهان ، وبطل ما كانوا يعملون [1].

وقوله : ﴿إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ﴾ تعليل لقوله ﴿تَلْقَفْ ما صَنَعُوا﴾ و ﴿ما﴾ موصولة وهي اسم إن ، و ﴿كَيْدُ﴾ خبرها ، والعائد محذوف.

والتقدير : وألق يا موسى عصاك تلقف ما صنعوه ، فإن الذي صنعوه إنما هو كيد من جنس كيد السحرة وصنعهم وتمويههم.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٩٦.

﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أى ولا يفوز هذا الجنس من الناس ﴿حَيْثُ أَتى﴾ أى : حيث كان فحيث ظرف مكان أريد به التعميم.

أى : أن الساحر لا يفلح ولا يفوز أينما كان ، وحيثما أقبل ، وأنّى اتجه ، لأنه يصنع للناس التخييل والتمويه والتزوير والتزييف للحقائق.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : لم وحد ساحر ولم يجمع؟ قلت : لأن القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية ، لا إلى معنى العدد. فلو جمع لخيل أن المقصود هو العدد (1).

ثم كانت بعد ذلك المفاجأة الكبرى فقد آمن السحرة حين رأوا ما رأوا بعد أن ألقى موسى ما في يمينه ، قال ـ تعالى ـ : ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى﴾.

قال الآلوسى : «والفاء في قوله ﴿فَأُلْقِيَ ...﴾ فصيحة معربة عن جمل غنية عن التصريح».

أى : فزال الخوف ، وألقى موسى ما في يمينه ، وصارت حية ، وتلقفت حبالهم وعصيهم ، وعلم السحرة أن ذلك معجزة ، فخروا سجدا لله على وجوههم قائلين آمنا برب هارون وموسى .. (2).

والحق أن التعبير بقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً ..﴾ يدل على قوة البرهان الذي عاينوه ، حتى لكأنهم أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التي عاينوها ، وأطلق ـ سبحانه ـ عليهم اسم السحرة في حال سجودهم له ـ تعالى ـ وإيمانهم به ، نظرا إلى حالهم الماضية.

وهكذا النفوس النقية عند ما يتبين لها الحق ، لا تلبث أن تفيء إليه ، وتستجيب لأهله. قال الكرخي : خروا ساجدين لله لأنهم كانوا في أعلى طبقات السحر ، فلما رأوا ما فعله موسى خارجا عن صناعتهم ، عرفوا أنه ليس من السحر ألبتة (3).

وقال صاحب الكشاف : «ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود. ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود. فما أعظم الفرق بين الإلقاءين» (4).

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما توعد فرعون به السحرة ، وموقفهم من هذا الوعيد فقال ـ تعالى ـ :

---

(1) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٧٥.

(2) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٣٠.

(3) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٠١.

(4) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٧٥.

﴿قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى (٧١) قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾(٧٦)

أى : قال فرعون للسحرة بعد أن شاهدهم وقد خروا لله ـ تعالى ـ ساجدين : ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أى : هل آمنتم لموسى وصدقتموه في دعوته وانقدتم له ، قبل أن أعطيكم الإذن بذلك. فالاستفهام للتقريع والتهديد.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أى : أن موسى الذي انقدتم له لهو كبيركم وشيخكم الذي علمكم فنون السحر ، فأنتم تواطأتم معه. وآمنتم به لأنكم من أتباعه.

وغرضه من هذا القول صرف الناس عن التأسى بهم ، وعن الإيمان بالحق الذي آمن به السحرة والظهور أمام قومه بمظهر الثبات والتماسك بعد أن استبد به وبهم الخوف والهلع ، من هول ما رأوه.

ثم أضاف إلى قوله هذا تهديدا أشد فقال : ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ، وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾.

أى : فو الله لأقطعن أيديكم اليمنى ـ مثلا ـ مع أرجلكم اليسرى ، ولأصلبنكم على

جذوع النخل ، لتكونوا عبرة لغيركم ممن تسول له نفسه أن يفعل فعلكم.

فالمراد من قوله «من خلاف» أى : من الجهة المخالفة أو من الجانب بأن يقطع اليد اليمنى ومعها الرجل اليسرى ، لأن ذلك أشد على الإنسان من قطعهما من جهة واحدة إذ قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شيء كامل صحيح ، بخلاف قطعهما من جهتين مختلفتين فإنه إفساد للجانبين.

واختار أن يصلبهم في جذوع النخل ، لأن هذه الجذوع أخشن من غيرها والتصليب عليها أشق من التصليب على غيرها ، وأظهر للرائى لعلوها عن سواها. فهو لطغيانه وفجوره اختار أقسى ألوان العذاب ليصبها على هؤلاء المؤمنين.

قال الجمل : قوله : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ يحتمل أن يكون حقيقة. وفي التفسير أنه نقر جذوع النخل حتى جوفها ووضعهم فيها فماتوا جوعا وعطشا.

ويحتمل أن يكون مجازا وله وجهان : أحدهما : أنه وضع حرفا مكان آخر ، والأصل على جذوع النخل ، والثاني : أنه شبه تمكنهم بتمكن من حواه الجذع واشتمل عليه.

وقال الكرخي «في» بمعنى «على» مجازا ، من حيث إنه شبه تمكن المصلوب بالجذع ، بتمكن المظروف في الظرف وهذا هو المشهور (١).

وقوله : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى﴾ تهديد فوق تهديد ، ووعيد إثر وعيد.

أى : والله لتعلمن أيها السحرة أينا أشد تعذيبا لكم ، وأبقى في إنزال الهلاك بكم ، أنا أم موسى وربه.

وكأنه بهذا التهديد يريد أن يهون من كل عذاب سوى عذابه لهم ، ومن كل عقاب غير عقابه إياهم.

وهذا التهديد التي حكاه الله ـ تعالى ـ هنا ، قد جاء ما يشبهه في آيات أخرى منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ* لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢).

ثم حكى ـ سبحانه ـ أن السحرة بعد أن استقر الإيمان في قلوبهم ، قد قابلوا تهديد فرعون لهم بالاستخفاف وعدم الاكتراث فقال : ﴿قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ ،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٠١.

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤.

وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ ..﴾.

أى : قال السحرة في ردهم على تهديد فرعون لهم : لن نختارك يا فرعون ولن نرضى بأن نكون من حزبك ، ولن نقدم سلامتنا من عذابك .. على ما ظهر لنا من المعجزات التي جاءنا بها موسى ، والتي على رأسها عصاه التي ألقاها فإذا هي تبتلع حبالنا وعصينا.

وجملة «والذي فطرنا» الواو فيها للعطف على «ما» في قوله ﴿ما جاءَنا﴾.

أى : لن نختارك يا فرعون على الذي جاءنا من البينات على يد موسى ، ولا على الذي فطرنا أى ؛ خلقنا وأوجدنا في هذه الحياة.

ويصح أن تكون هذه الواو للقسم ، والموصول مقسم به ، وجواب القسم محذوف دل عليه ما قبله ، والمعنى : وحق الذي فطرنا لن نؤثرك يا فرعون على ما جاءنا من البينات.

وقوله : ﴿فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ﴾ تصريح منهم بأن تهديده لهم لا وزن له عندهم ، ورد منهم على قوله : ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ﴾.

أى : لن نقدم طاعتك على طاعة خالقنا بعد أن ظهر لنا الحق ، فافعل ما أنت فاعله ، ونفذ ما تريد تنفيذه في جوارحنا ، فهي وحدها التي تملكها ، أما قلوبنا فقد استقر الإيمان فيها ، ولا تملك شيئا من صرفها عما آمنت به.

قال بعض العلماء : واعلم أن العلماء اختلفوا : هل فعل بهم فرعون ما توعدهم به ، أو لم يفعله بهم؟.

فقال قوم : قتلهم وصلبهم ، وقوم أنكروا ذلك ، وأظهر هما عندي : أنه لم يقتلهم ، وأن الله عصمهم منه لأجل إيمانهم الراسخ بالله ـ تعالى ـ لأن الله قال لموسى وهارون : ﴿أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ﴾ [1].

وقوله : ﴿إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا ، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا﴾ تعليل لعدم مبالاتهم بتهديده لهم.

أى : افعل يا فرعون ما أنت فاعله بأجسامنا ، فإن فعلك هذا إنما يتعلق بحياتنا في هذه الحياة الدنيا ، وهي سريعة الزوال ، وعذابها أهون من عذاب الآخرة.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا﴾ وخالقنا ومالك أمرنا ﴿لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا﴾ السالفة ، التي اقترفناها بسبب الكفر والإشراك به ـ سبحانه ..

﴿وَ﴾ ليغفر لنا ﴿ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ لكي نعارض به موسى ـ عليه

---

(١) تفسير أضواء البيان ج ٥ ص ٤٧٤. للشيخ الشنقيطى.

السلام ـ معارضة من هو على الباطل لمن هو على الحق ، وقد كنا لا نملك أن نعصيك.

وخصوا السحر بالذكر مع دخوله في خطاياهم ، للإشعار بشدة نفورهم منه ، وبكثرة كراهيتهم له بعد أن هداهم الله إلى الإيمان.

وقوله : ﴿وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ تذييل قصدوا به الرد على قول فرعون لهم : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى﴾.

أى : والله ـ تعالى ـ خير ثوابا منك يا فرعون ، وأبقى جزاء وعطاء ، فإن ثوابه ـ سبحانه ـ لا نقص معه ، وعطاءه أبقى من كل عطاء.

وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ...﴾ يصح أن يكون كلاما مستأنفا ساقه الله ـ تعالى ـ لبيان سوء عاقبة المجرمين ، وحسن عاقبة المؤمنين.

ويصح أن يكون من بقية كلام السحرة في ردهم على فرعون.

والمعنى : ﴿إِنَّهُ﴾ أى الحال والشأن ﴿مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ﴾ يوم القيامة في حال كونه ﴿مُجْرِماً﴾.

أى : مرتكبا لجريمة الكفر والشرك بالله ـ تعالى ـ ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ أى : لهذا المجرم ﴿جَهَنَّمَ﴾ يعذب فيها عذابا شديدا من مظاهره أنه ﴿لا يَمُوتُ فِيها﴾ فيستريح ﴿وَلا يَحْيى﴾ حياة فيها راحة.

كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها ، كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ حسن عاقبة المؤمنين فقال : ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً﴾ به إيمانا حقا ، و ﴿قَدْ عَمِلَ﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحاتِ﴾ بجانب إيمانه. ﴿فَأُولئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿لَهُمُ﴾ بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ﴿الدَّرَجاتُ الْعُلى﴾ أى : المنازل الرفيعة ، والمكانة السامية.

وقوله : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ يدل على الدرجات العلى.

أى : لهم جنات باقية دائمة تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ خلودا أبديا.

﴿وَذلِكَ﴾ العطاء الجزيل الباقي جزاء من تزكى ، أى من تطهر وتجرد من دنس الكفر والمعاصي.

---

(١) سورة فاطر الآية ٣٦.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت لنا بأسلوبها البليغ المؤثر ، تلك المحاورات الطويلة التي دارت بين موسى وفرعون والسحرة .. والتي انتهت بانتصار الحق واندحار الباطل.

ثم ساق ـ سبحانه ـ جانبا من النعم التي أنعم بها على بنى إسرائيل ، وحذرهم من جحودها ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى (٧٩) يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾(٨٢)

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي ...﴾ حكاية إجمالية لما انتهى اليه أمر فرعون وقومه ، وقد طوى ـ سبحانه ـ ذكر ما جرى عليهم بعد أن تغلب موسى على السحرة .. وبعد أن مكث موسى يبلغهم دعوة الله ـ تعالى ـ مدة طويلة ويطلب منهم إرسال بنى إسرائيل معه» (١).

وصدرت الآية الكريمة باللام الموطئة للقسم وبقد تأكيدا لهذا الإيحاء ، وتقريرا له ...

أى : والله لقد أوحينا إلى عبدنا موسى ـ عليه‌السلام ـ وقلنا له : سر بعبادي من بنى إسرائيل في أول الليل متجها بهم من مصر إلى البحر الأحمر فإذا ما وصلت إليه ، ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾.

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٣٥.

أى : فاجعل لهم طريقا في البحر يابسا ، فالضرب هنا بمعنى الجعل كما في قولهم : ضرب له في ماله سهما. إذا جعل له سهما.

والمراد بالطريق جنسه فإن الطرق التي حدثت بعد أن ضرب موسى بعصاه البحر. كانت اثنى عشر طريقا بعدد أسباط بنى إسرائيل.

وعبر ـ سبحانه ـ عن بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى بعنوان العبودية لله ـ تعالى ـ للإشعار بعطفه ـ عزّ وجلّ ـ عليهم ورحمته بهم ، وللتنبيه على طغيان فرعون حيث استعبد واستذل عبادا للخالق ـ سبحانه ـ وجعلهم عبيدا له ..

قال الجمل : «وقوله ﴿يَبَساً﴾ صفة لقوله ﴿طَرِيقاً﴾ وصف به لما يؤول إليه ، لأنه لم يكن يبسا بعد. وإنما مرت عليه الصبا فجففته. وقيل : هو في الأصل مصدر وصف به للمبالغة ، أو على حذف مضاف ، أو جمع يابس كخادم وخدم وصف به الواحد مبالغة» [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى﴾ تذييل قصد به تثبيت فؤاد موسى ـ عليه‌السلام ـ وإدخال الطمأنينة على قلبه.

والدرك : اسم مصدر بمعنى الإدراك. والجملة في محل نصب على الحال من فاعل «اضرب».

أى : اضرب لهم طريقا في البحر يابسا ، حالة كونك غير خائف من أن يدركك فرعون وجنوده من الخلف ، وغير وجل من أن يغرقكم البحر من أمامكم.

فالآية الكريمة قد اشتملت على كل ما من شأنه أن يغرس الأمان والاطمئنان في قلب موسى ومن معه.

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف فرعون بعد أن علم بأن موسى قد خرج بقومه من مصر فقال ـ تعالى ـ : ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ﴾.

أى : وبعد أن علم فرعون بخروج موسى وبنى إسرائيل من مصر ، جمع جنوده وأسرع في طلب موسى ومن معه ، فكانت نتيجة ذلك ، أن أغرق الله ـ تعالى ـ فرعون وجنوده في البحر ـ وأهلكهم عن آخرهم ...

والتعبير بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ﴾ يدل على تعظيم ما غشيهم وتهويله ، أى : فعلاهم وغمرهم من ماء البحر ما لا يعلم كنهه إلا الله ـ تعالى ـ بحيث صاروا جميعا في طيات أمواجه.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٠٣.

ونظيره قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى﴾ وقوله : ﴿فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى﴾.

قال صاحب الكشاف : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ما غَشِيَهُمْ﴾ من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة. أى : غشيهم مالا يعلم كنهه إلا الله ـ تعالى ـ وقرئ فغشاهم من اليم ما غشاهم ، والتغشية : التغطية ... (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى﴾ بيان لحال فرعون قبل أن يهلكه الله ـ تعالى ـ بالغرق.

أى : وأضل فرعون في حياته قومه عن طريق الحق ، وما هداهم إليها وإنما هداهم إلى طريق الغي والباطل ، فكانت عاقبتهم جميعا الاستئصال والدمار.

وما اشتملت عليه الآيتان من إجمال بالنسبة لتلك الأحداث ، قد جاء مفصلا في آيات أخرى ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ في سورة الشعراء : ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ. فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ. إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ. فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ. كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ. فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ. فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ. فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ. وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ. وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ (٢).

ثم ذكر ـ سبحانه ـ بنى إسرائيل بنعمه عليهم فقال : ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وجنده ، بأن أغرقناهم أمام أعينكم وأنتم تنظرون إليهم ، بعد أن كانوا يسومونكم سوء العذاب.

﴿وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ أى : وواعدنا نبيكم موسى في هذا المكان لإعطائه التوراة لهدايتكم وإصلاح شأنكم ، وهذا الوعد هو المشار إليه بقوله ـ تعالى ـ :

﴿وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

قال صاحب الكشاف : ذكرهم النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم ، وفيما واعد موسى من المناجاة بجانب الطور ، وكتب التوراة في الألواح. وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لا بستهم واتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ونقبائهم ، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٧٨.

(٢) الآيات ٥٢ ـ ٦٦.

وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه .. [1].

وقال القرطبي ما ملخصه : وقوله : ﴿جانِبَ﴾ نصب على المفعول الثاني لقوله واعدنا ..

و ﴿الْأَيْمَنَ﴾ نصب لأنه نعت للجانب ، إذ ليس للجبل يمين ولا شمال.

وتقدير الآية : وواعدناكم إتيان جانب الطور ثم حذف المضاف. أى : أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام وقيل : وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتي جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة ، فالوعد كان لموسى ، ولكن خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم .. [2].

وقوله : ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى﴾ نعمة ثالثة من نعمه ـ سبحانه ـ عليهم.

والمن : مادة حلوة لزجة تشبه العسل كانت تسقط على الشجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

والسلوى : طائر لذيذ الطعم ، يشبه الطائر الذي يسمى السمانى ، كانوا يأخذونه ويتلذذون بأكله.

وقيل : هما كناية عما أنعم الله به عليهم ، وهما شيء واحد ، سمى أحدهما «منا» لامتنان الله ـ تعالى ـ عليهم ، وسمى الثاني «سلوى» لتسليتهم به.

أى : ونزلنا عليكم بفضلنا ورحمتنا وأنتم في التيه تلك المنافع والخيرات التي تأخذونها من غير كد أو تعب.

والأمر في قوله ـ سبحانه ـ ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾ للإباحة ، والجملة مقول لقول محذوف. أى : وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم من المن والسلوى ، ومن غيرهما من اللذائذ التي أحلها الله لكم.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى تحذير لهم من تجاوز الحدود التي شرعها الله ـ تعالى ـ لهم ، إذ الطغيان مجاوزة الحد في كل شيء.

والضمير في قوله ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى الموصول الذي هو ﴿ما﴾ في قوله : ﴿ما رَزَقْناكُمْ﴾ ويحل ـ بكسر الحاء ـ بمعنى يجب. يقال : حل أمر الله على فلان يحل حلالا بمعنى وجب.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٧٩.

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٣٠.

وقرأ الكسائي ﴿فَيَحِلَ﴾ بضم الحاء بمعنى ينزل يقال : حل فلان بالمكان يحل . بالضم حلولا ، إذا نزل به.

والمعنى : كلوا يا بنى إسرائيل من الطيبات التي رزقكم الله إياها واشكروه عليها ، ولا تتجاوزوا فيما رزقناكم الحدود التي شرعناها لكم ، فإنكم إذا فعلتم ذلك حق عليكم غضبى ، ونزل بكم عقابي ، ومن حق عليه غضبى ونزل به عقابي ﴿فَقَدْ هَوى﴾ أى : إلى النار.

وأصله السقوط من مكان مرتفع كجبل ونحوه. يقال : هوى فلان . بفتح الواو . يهوى . بكسرها . إذا سقط إلى أسفل ، ثم استعمل في الهلاك للزومه له.

ثم فتح . سبحانه . باب الأمل لعباده فقال : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ أى : لكثير المغفرة ﴿لِمَنْ تابَ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَآمَنَ﴾ بكل ما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صالِحاً﴾ أى : وعمل عملا مستقيما يرضى الله . تعالى .. ﴿ثُمَّ اهْتَدى﴾ أى : ثم واظب على ذلك ، وداوم على استقامته وصلاحه إلى أن لقى الله . تعالى ..

وثم في قوله ﴿ثُمَّ اهْتَدى﴾ للتراخي النسبي ، إذ أن هناك فرقا كبيرا بين من يتوب إلى الله . تعالى . ويقدم العمل الصالح ، ويستمر على ذلك إلى أن يلقى الله . تعالى . وبين من لا يداوم على ذلك.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن فتنة قوم موسى . عليه‌السلام . بعد أن ذهب لمناجاة ربه ، وكيف انقادوا لخديعة السامري لهم .. فقال . تعالى . :

﴿وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (٨٣) قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى (٨٤) قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَلكِنَّا حُمِّلْنا

أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً﴾(٨٩)

وهذه الآيات الكريمة تحكى قصة ملخصها : أن موسى عليه السلام بعد أن أهلك الله . تعالى . فرعون وجنوده ، سار ببني إسرائيل متجها ناحية جبل الطور ، ثم تركهم مستخلفا عليهم أخاه هارون ، وذهب لمناجاة ربه ومعه سبعون من وجهائهم ، ثم عجل من بينهم شوقا للقاء ربه ، فأخبره . سبحانه . بما أحدثه قومه في غيبته عنهم. وجملة ﴿وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى﴾ مقول لقول محذوف.

والمعنى : وقلنا لموسى : أى شيء جعلك تتعجل المجيء إلى هذا المكان قبل قومك وتخلفهم وراءك ، مع أنه ينبغي لرئيس القوم أن يتأخر عنهم في حالة السفر ، ليكون نظره محيطا بهم ونافذا عليهم؟.

فأجاب موسى معتذرا لربه . تعالى . بقوله : ﴿هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي﴾ أى : على مقربة مني ، وسيلحقون بي بعد زمن قليل ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى﴾ أى : وقد حملني على أن أحضر قبلهم ، شوقي إلى مكالمتك . يا إلهى . وطمعي في زيادة رضاك عنى.

فموسى . عليه السلام . قد علل تقدمه على قومه في الحضور بعلتين : الأولى : أنهم كانوا على مقربة منه. والثانية : حرصه على استدامة رضى ربه عنه.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ﴿وَما أَعْجَلَكَ﴾ سؤال عن سبب العجلة ، فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال : طلب زيادة رضاك أو الشوق في كلامك. وقوله : ﴿هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي﴾ كما ترى غير منطبق عليه؟.

قلت : قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين : أحدهما : إنكار العجلة في نفسها ، والثاني : السؤال عن سببها الحامل عليها ، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر ، وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد منى إلا تقدم يسير ، مثله لا يعتد به في العادة ، ولا يحتفل به ، وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة ، يتقدم بمثلها الوفد رئيسهم

ومقدمهم. ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى﴾ [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ إخبار منه ـ سبحانه ـ بما فعله قومه بعد مفارقته لهم.

وكلمة ﴿فَتَنَّا﴾ من الفتن ومعناه لغة : وضع الذهب في النار ليتبين أهو خالص أم زائف.

والفتنة تطلق في القرآن بإطلاقات متعددة منها : الدخول في النار كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾. ومنها الحجة كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. ومنها : الاختبار والامتحان ، كما في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾. ومنها الإضلال والإشراك ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً ..﴾.

ويبدو أن المراد بالفتنة هذا المعنى الأخير وهو الإضلال والشرك ، لأن فتنتهم كانت بسبب عبادتهم للعجل في غيبة موسى ـ عليه‌السلام ـ.

ويدل على هذا قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ ..﴾.

والسامري : اسم للشخص الذي كان سببا في ضلال بنى إسرائيل ، قيل : كان من زعماء بنى إسرائيل وينسب إلى قبيلة تعرف بالسامرة.

وقيل : إنه كان من قوم يعبدون البقر ، وقيل غير ذلك من أقوال مظنونة غير محققة.

أى : قال الله ـ تعالى ـ لموسى : فإنا قد أضللنا قومك من بعد مفارقتك لهم ، وكان السبب في ضلالهم السامري ، حيث دعاهم إلى عبادة العجل فانقادوا له وأطاعوه.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً﴾ بيان لما كان منه ـ عليه‌السلام ـ بعد أن علم بضلال قومه.

وكان رجوع موسى إليهم بعد أن ناجى ربه ، وتلقى منه التوراة.

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ﴾ عند رجوعه المعهود أى : بعد ما استوفى الأربعين «ذا القعدة وعشر ذي الحجة» وأخذ التوراة لا عقيب الإخبار المذكور ، فسببية ما قبل الفاء لما بعدها إنما هي باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله ﴿غَضْبانَ أَسِفاً﴾ لا باعتبار نفسه ، وإن كانت داخلة عليه حقيقة ، فإن كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر مقرر مشهور لا يذهب الوهم إلى كونه عند الإخبار المذكور ...» [2].

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٨١.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٤٤.

والمعنى فرجع موسى إلى قومه ـ بعد مناجاته لربه وبعد تلقيه التوراة حالة كونه ﴿غَضْبانَ أَسِفاً﴾ أى : غضبان شديد الغضب.

فالمراد بالأسف شدة الغضب ، وقيل المراد به الحزن والجزع.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما قاله موسى لقومه بعد رجوعه إليهم فقال : ﴿قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ..﴾.

أى : قال لهم على سبيل الزجر والتوبيخ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا لا سبيل لكم إلى إنكاره ، ومن هذا الوعد الحسن : إنزال التوراة لهدايتكم وسعادتكم ، وإهلاك عدوكم أمام أعينكم. فلما ذا أعرضتهم عن عبادته وطاعته مع أنكم تعيشون في خيره ورزقه ..؟.

ثم زاد في تأنيبهم وفي الإنكار عليهم فقال : ﴿أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾.

فالاستفهام في قوله ﴿أَفَطالَ ..﴾ للنفي والإنكار و ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل.

والمعنى : أفطال عليكم الزمان الذي فارقتكم فيه؟ لا إنه لم يطل حتى تنسوا ما أمرتكم به ، بل إنكم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ، فأخلفتم موعدي الذي وعدتموني إياه وهو أن تثبتوا على إخلاص العبادة لله ـ تعالى ..

ومعنى إرادتهم حلول الغضب عليهم ، أنهم فعلوا ما يستوجب ذلك وهو طاعتهم للسامري في عبادتهم للعجل.

قال ابن جرير : كان إخلافهم موعده : عكوفهم على عبادة العجل ، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذي كان الله وعدهم ، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل ودعاهم إلى السير معه في أثر موسى : ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى﴾ [1].

ثم حكى ـ سبحانه ـ معاذيرهم الواهية التي تدل على بلادة عقولهم ، وانتكاس أفكارهم ، وتفاهة شخصيتهم فقال ـ تعالى ـ : ﴿قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا ..﴾.

وقوله ﴿بِمَلْكِنا﴾ قرأه نافع وعاصم ـ بفتح الميم وسكون اللام ـ أى : بأمرنا. وقرأه حمزة والكسائي ﴿بِمَلْكِنا﴾ بكسر الميم وسكون اللام ـ أى : بطاقتنا : وقرأه الباقون ـ بضم الميم وسكون اللام ـ أى : بسلطاننا ، وهو مصدر مضاف لفاعله ومفعوله محذوف ، أى : بملكنا أمرنا.

أى : قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى على سبيل الاعتذار الذي هو أقبح من ذنب :

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ١٤٦.

ما أخلفنا موعدك فعبدنا العجل بأمرنا وطاقتنا واختيارنا ، فقد كان الحال أكبر من أن يدخل تحت سلطاننا ، ولو خلينا بيننا وبين أنفسنا ولم يسول لنا السامري ما سول لبقينا على العهد الذي عاهدناك عليه ، وهو أن نعبد الله ـ تعالى ـ وحده.

وقوله : ﴿وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُ﴾ حكاية لبقية ما قالوه من أعذر قبيحة.

ولفظ : «حملنا» قرأه ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ـ بضم الحاء وتشديد الميم ـ على أنه فعل ونائب فاعل ، وقرأه الباقون ـ بفتح الحاء والميم ـ على أنه فعل وفاعل.

قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد بالقوم : القبط ، وبالأوزار : الأحمال وتسمى بها الآثام ، وقصدوا بذلك ما استعاروه من القبط من الحلي في عيد لهم قبل الخروج من مصر ، وقيل : استعاروه باسم العرس. وقيل : هي ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا وهم فرعون وجنوده فأخذ بنو إسرائيل ذلك على أنه غنيمة مع أنها غنيمة مع أنها لم تكن حلالا لهم [1].

أى : قال بنو إسرائيل لموسى : ما أخلفنا عهدك بأمرنا ولكنا حملنا أثقالا وأحمالا من زينة القبط التي أخذناها منهم بدون حق ﴿فَقَذَفْناها﴾ في النار بتوجيه من السامري ، ﴿فَكَذلِكَ﴾ أى : فكما ألقينا ما معنا ﴿أَلْقَى السَّامِرِيُ﴾ ما معه من تلك الزينة.

قال ابن كثير : وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط ، فألقوها عنهم ، فعبدوا العجل ، فتورعوا عن الحقير ، وفعلوا الأمر الكبير .. [2].

ثم بين ـ سبحانه ـ ما صنعه لهم السامري من تلك الحلي فقال : ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ﴾.

والخوار : الصوت المسموع.

أى : فكانت نتيجة ما قذفوه من الحلي في النار ، أن أخرج السامري لهم من ذلك ﴿عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ﴾ أى : صوت كصوت البقر.

قيل : إن الله ـ تعالى ـ خلق الحياة في ذلك العجل على سبيل الاختبار والامتحان لهم.

وقيل : لم تكن به حياة ، ولكن السامري صنعه لهم بدقة ، وجعل فيه منافذ إذا دخلت فيها الريح أخرجت منه صوتا كصوت خوار البقر.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٤٦.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٠٤.

فقال بنو إسرائيل عند ما رأوا العجل الذي صنعه لهم السامري : هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه ، لأن موسى نسى إلهه هنا ، وذهب ليبحث عنه في مكان آخر ، فالضمير في قوله ﴿فَنَسِيَ﴾ يعود لموسى.

وقولهم هذا يدل على بلادتهم وسوء أدبهم مع نبيهم ، فهم لم يكتفوا بعبادة العجل ، بل زعموا أن نبيهم الداعي لهم إلى توحيد الله ، قد كان يعبد العجل وأنه قد نسى مكانه فذهب يبحث عنه.

وقيل : إن الذي حدث منه النسيان هو السامري ، وأن النسيان بمعنى الترك ، أى : فترك السامري ما كان عليه من الإيمان الظاهري ، ونبذ الدين الذي بعث الله ـ تعالى ـ به موسى ، وحض الناس على عبادة العجل الذي صنعه لهم.

والقول الأول أرجح ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ، ولأنه هو المأثور عن السلف.

قال ابن جرير : «وأولى الأقوال بالصواب عندنا أن يكون ﴿فَنَسِيَ﴾ خبرا من الله ـ تعالى ـ عن السامري ، وأنه وصف موسى بأنه نسى ربه ، وأن ربه الذي ذهب يريده هو العجل الذي أخرجه السامري ، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه ، ولأنه عقيب ذكر موسى ، وهو أن يكون خبرا من السامري عنه بذلك أشبه من غيره» (١).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ، وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً﴾ تقريع لهم على جهلهم وغبائهم وسوء أدبهم.

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى : أبلغ عمى البصيرة عند هؤلاء السفهاء أنهم لم يفطنوا إلى أن هذا العجل الذي اتخذوه إلها ، لا يستطيع أن يجيبهم إذا سألوه أو خاطبوه ، ولا يرد عليهم قولا يقولونه له ، ولا يملك لهم شيئا لا من الضر ولا من النفع.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ، اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ﴾ (٢).

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف هارون ـ عليه‌السلام ـ من هؤلاء الجاهلين الذين عبدوا العجل ، فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ١٤٨.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٨.

﴿وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى﴾(٩١)

وجملة : ﴿وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ ...﴾ قسمية مؤكدة لما قبلها.

أى : والله لقد نصح هارون ـ عليه‌السلام ـ عبدة العجل من قومه ، قبل رجوع موسى إليهم ، فقال لهم مستعطفا : ﴿.. يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ ..﴾ أى : يا قوم إن ضلالكم وكفركم إنما هو بسبب عبادتكم العجل ، فالضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود إلى العجل.

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ﴾ هو وحده المستحق للعبادة والطاعة.

وجمع ـ سبحانه ـ بين لفظي الرب والرحمن ، لجذبهم نحو الحق ، واستمالتهم نحوه ، وللتنبيه على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم ، لأنه ـ سبحانه ـ هو الرحمن الرحيم.

والفاء في قوله : ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

أى : وما دام الأمر كذلك فاتبعوني وأطيعوا أمرى ، في الثبات على الحق ، وفي نبذ عبادة العجل ، وفي المحافظة على ما عاهدكم عليه موسى ـ عليه‌السلام ـ ..

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هارون لهم لم تجد أذنا صاغية. بل قابلوا نصيحته لهم بالاستخفاف والتصميم على ما هم فيه من ضلال ، إذ قالوا في الرد عليه : ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ﴾ أى : سنستمر على عبادة العجل ، وسنواظب على هذه العبادة مواظبة تامة ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى﴾ فنرى ماذا سيكون منه.

فهم لجهالاتهم وانطماس بصائرهم ، وسوء أدبهم ، يرون أن هارون ـ عليه‌السلام ـ ليس أهلا للنصيحة والطاعة ، مع أنه قد خاطبهم بأحكم أسلوب ، وألطف منطق.

قال الرازي : واعلم أن هارون ـ عليه‌السلام ـ سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم عن الباطل ـ أولا ـ بقوله : ﴿يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ ثم دعاهم إلى معرفة الله ـ ثانيا ـ بقوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ﴾ ثم دعاهم ـ ثالثا ـ إلى معرفة النبوة بقوله : ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ ثم دعاهم ـ رابعا ـ إلى الشرائع بقوله : ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

وهذا هو الترتيب الجيد ، لأنه لا بد قبل كل شيء من إماطه الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات ، ثم معرفة الله ـ تعالى ـ هي الأصل ، ثم النبوة ، ثم الشريعة : فثبت أن هذا

الترتيب على أحسن الوجوه ، ولكنهم لجهلهم وعنادهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال ، بالتقليد والجمود فقالوا : ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى﴾ [1].

ثم بين . سبحانه . ما قاله موسى لأخيه هارون بعد أن رأى ما عليه قومهما من ضلال ، فقال . تعالى . :

﴿قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾(٩٤)

أى : قال موسى لأخيه هارون على سبيل اللوم والمعاتبة : يا هارون أى شيء منعك من مقاومتهم وقت أن رأيتهم ضلوا بسبب عبادتهم للعجل و «لا» في قوله : ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ مزيدة للتأكيد. والاستفهام في قوله : ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ للإنكار.

أى : ما الذي منعك من أن تتبعني في الغضب عليهم لدين الله حين رأيتهم عاكفين على عبادة العجل ، أفعصيت أمرى فيما قدمت إليك من قولي : ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وفيما أمرتك به من الصلابة في الدين ، لأن وجودك فيهم وقد عبدوا غير الله . تعالى . يعتبر تهاونا معهم فيما لا يصح التهاون فيه.

وكأن موسى . عليه‌السلام . كان يريد من أخيه هارون . عليه‌السلام . موقفا يتسم بالحزم والشدة مع هؤلاء الجاهلين ، حتى ولو أدى الأمر لمقاتلتهم ...

وهنا يرد هارون على أخيه موسى ردا يبدو فيه الرفق والاستعطاف فيقول : ﴿يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾.

أى : قال هارون لموسى محاولا أن يهدئ من غضبه ، بتحريك عاطفة الرحم في قلبه : يا بن أمى لا تمسك بلحيتي ولا برأسى على سبيل التأنيب لي. فإنى لست عاصيا لأمرك ، ولا معرضا عن اتباعك.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ٦٧.

قال الآلوسى ما ملخصه : خص الأم بالإضافة استعطافا وترقيقا لقلبه ، لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه ، فإن الجمهور على أنهما كانا شقيقين.

وقوله : ﴿لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾ ... روى أنه أخذ شعر رأسه بيمينه ، ولحيته بشماله ، وكان موسى - عليه السلام - حديدا متصلبا غضوبا لله - تعالى - ، وغلب على ظنه أن هارون قد قصر معهم .. "[1].

وقوله : ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ استئناف لتعليل موجب النهى ، بتحقيق أنه غير عاص لأمره ، وغير معرض عن اتباعه.

أى : يا بن أمى لا تأخذ بلحيتي ولا برأسى ، فإنى ما حملني على البقاء معهم وعلى ترك مقاتلتهم بعد أن عبدوا العجل ، إلا خوفي من أن تقول لي - لو قاتلتهم أو فارقتهم بمن معى من المؤمنين - إنك بعملك هذا قد جعلت بنى إسرائيل فرقتين متنازعتين ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أى : ولم تتبع وتطع قولي لك : ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولذلك لم أقدم على مقاتلتهم بمن معى من المؤمنين ، ولم أقدم كذلك على مفارقتهم ، بل بقيت معهم ناصحا واعظا ، حتى تعود أنت إليهم ، فتتدارك الأمر بنفسك ، وتعالجه برأيك.

قال بعض العلماء ما ملخصه : وهذه الآية الكريمة ... تدل على لزوم إعفاء اللحية وعدم حلقها ، لأنه لو كان هارون حالقا لحيته لما أخذ بها موسى - إذ من المشهور أن اللحية تطلق على الشعر النابت في العضو المخصوص وهو الذقن - وبذلك يتبين لك أن إعفاء اللحية سمت الرسل الكرام الذين أمرنا الله - تعالى - بالاقتداء بهم.

فقد قال - تعالى - : بعد أن ذكر عددا من الأنبياء منهم هارون : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ ...﴾ [2].

والعجب من الذين مسخت ضمائرهم ... حتى صاروا ينفرون من صفات الذكورية ، وشرف الرجولة إلى خنوثة الأنوثة .. "[3].

هذا ، وبعد أن انتهى موسى من سماع اعتذار أخيه هارون ، اتجه بغضبه إلى السامري - رأس الفتنة ومدبرها - فأخذ في زجره وتوبيخه ، وقد حكى - سبحانه - ذلك في قوله - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٥١.

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٠.

(٣) راجع تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ٥٠٧.

﴿قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (٩٥) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (٩٧) إِنَّما إِلهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾(٩٨)

أى : قال موسى . عليه السلام . للسامري : ﴿فَما خَطْبُكَ﴾ أى : ما شأنك ، وما الأمر العظيم الذي جعلك تفعل ما فعلت؟ مصدر خطب يخطب . كقعد يقعد . ومنه قولهم : هذا خطب يسير أو جلل ، وجمعه خطوب. وخصه بعضهم بما له خطر من الأمور ، وأصله : الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب والتشاور ، ويخطب الخطيب الناس من أجله.

وقد رد السامري على موسى بقوله : ﴿بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أى : علمت ما لم يعلمه القوم ، وفطنت لما لم يفطنوا له ، ورأيت ما لم يروه.

قال الزجاج : يقال : بصر بالشيء يبصر . ككرم وفرح . إذا علمه ، وأبصره إذا نظر إليه.

وقيل : هما بمعنى واحد.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها﴾ روى أن السامري رأى جبريل . عليه السلام . حين جاء إلى موسى ليذهب به إلى الميقات لأخذ التوراة عن الله . عز وجل . ولم ير جبريل أحد غير السامري من قوم موسى ، ورأى الفرس كلما وضعت حافرها على شيء اخضرت ، فعلم أن للتراب الذي تضع عليه الفرس حافرها شأنا ، فأخذ منه حفنة وألقاها في الحلي المذاب فصار عجلا جسدا له خوار.

والمعنى قال السامري لموسى : علمت ما لم يعلمه غيرى فأخذت حفنة من تراب أثر حافر

فرس الرسول وهو جبريل ـ عليه‌السلام ـ فألقيت هذه الحفنة في الحلي المذاب ، فصار عجلا جسدا له خوار.

(وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) أى : ومثل هذا الفعل سولته لي نفسي ، أى زينته وحسنته لي نفسي ، لأجعل بنى إسرائيل يتركون عبادة إلهك يا موسى ، ويعبدون العجل الذي صنعته لهم.

وعلى هذا التفسير الذي سار عليه كثير من المفسرين ، يكون المراد بالرسول : جبريل ـ عليه‌السلام ـ ويكون المراد بأثره : التراب الذي أخذه من موضع حافر فرسه.

هذا ، وقد نقل الفخر الرازي عن أبى مسلم الأصفهاني رأيا آخر في تفسير الآية فقال ما ملخصه : ليس في القرآن ما يدل على ما ذكره المفسرون ، فهنا وجه آخر ، وهو أن يكون المراد بالرسول : موسى ـ عليه‌السلام ـ وبأثره : سنته ورسمه الذي أمر به ، فقد يقول الرجل : فلان يقص أثر فلان ويقتص أثره إذا كان يمتثل رسمه ، والتقدير : أن موسى لما أقبل على السامري بالتوبيخ وبسؤاله عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم بعبادة العجل ، رد عليه بقوله : بصرت بما لم يبصروا به ، أى : عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى : أخذت شيئا من علمك ودينك فنبذته ، أى : طرحته .. (1).

وعلى هذا التفسير الذي ذهب إليه أبو مسلم يكون المراد بالرسول : موسى ـ عليه‌السلام ـ ويكون المراد بأثره : دينه وسنته وعلمه.

ويكون المعنى الإجمالى للآية : أن السامري قال لموسى ـ عليه‌السلام ـ كنت قد أخذت جانبا من دينك وعلمك ، ثم تبين لي أنك على ضلال فنبذت ما أخذته عنك وسولت لي نفسي أن أصنع للناس عجلا لكي يعبدوه لأن عبادته أراها هي الحق.

وقد رجح الإمام الرازي في تفسيره ما ذهب إليه أبو مسلم فقال : واعلم أن هذا القول الذي قاله أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة للمفسرين ، ولكنه أقرب إلى التحقيق لوجوه.

١ ـ أن جبريل ليس مشهورا باسم الرسول ، ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه.

٢ ـ أنه لا بد فيه من الإضمار ، وهو قبضته من أثر حافر فرس الرسول ، والإضمار خلاف الأصل.

---

(1) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ٧٠.

٣ ـ أنه لا بد من التعسف في بيان أن السامري كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته؟ ثم كيف عرف أن لتراب حافر فرسه هذا الأثر؟ والذي ذكروه أن جبريل هو الذي رباه بعيد .. [١].

وقد رد الإمام الآلوسى على الإمام الفخر الرازي ـ رحمهما الله ـ فقال ما ملخصه:

١ ـ عهد في القرآن الكريم إطلاق الرسول على جبريل، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾. وعدم جريان ذكره فيما تقدم لا يمنع أن يكون معهودا، ويجوز أن يكون إطلاق الرسول عليه كان شائعا في بنى إسرائيل.

٢ ـ تقدير المضاف في الكلام أكثر من أن يحصى، وقد عهد ذلك في كتاب الله غير مرة.

٣ ـ رؤية السامري دون غيره لجبريل، كان ابتلاء من الله ـ تعالى ـ ليقضى الله أمرا كان مفعولا، ومعرفته تأثير ذلك الأثر دون غيره كانت بسبب ما ألقى في روعه من أنه لا يلقيه على شيء فيقول له كن كذا إلا كان ـ كما في خبر ابن عباس ـ أو كانت لما شاهد من خروج النبات بالوطء ـ كما في بعض الآثار ـ .. [٢].

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه أبو مسلم، أقرب إلى ما يفيده ظاهر القرآن الكريم، إذا ما استبعدنا تلك الروايات التي ذكرها المفسرون في شأن السامري وفي شأن رؤيته لجبريل.

ولا نرى حرجا في استبعادها، لأنها عارية عن السند الصحيح إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى أصحابه، ويغلب على ظننا أنها من الإسرائيليات التي نرد العلم فيها إلى الله ـ تعالى ـ.

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ﴾ حكاية لما قاله موسى ـ عليه السلام ـ للسامري.

والمساس: مصدر ماسّ ـ بالتشديد ـ كقتال من قاتل، وهو منفي بلا التي لنفى الجنس.

والمعنى: قال موسى للسامري: مادمت قد فعلت ذلك فاذهب، فإن لك في مدة حياتك، أن تعاقب بالنبذ من الناس، وأن تقول لهم إذا ما اقترب أحد منك: ﴿لا مِساسَ﴾ أى لا أمسّ أحدا ولا يمسّنى أحد، ولا أخالط أحدا ولا يخالطني أحد.

قال صاحب الكشاف: عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعا كليا، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته، وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضا. وإذا اتفق أن يماس أحدا ـ رجلا أو امرأة ـ حم الماس والممسوس.

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ٧١.

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٥٤.

أى أصيبا بمرض الحمى . فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح : لا مساس. وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرم ، ومن الوحش النافر في البرية .. [1].

وقال الآلوسى ما ملخصه : والسر في عقوبته على جنايته بما ذكر. أنه ضد ما قصده من إظهار ذلك ليجتمع عليه الناس ويعززوه ، فكان ما فعله سببا لبعدهم عنه وتحقيره. وقيل : عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل ، حيث نبذ فنبذ ، فإن ذلك التحامى عنه أشبه شيء بالنبذ .. [2].

قالوا : وهذه الآية الكريمة أصل في نفى أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وعدم مخالطتهم.

ثم بين . سبحانه . عقوبة السامري في الآخرة ، بعد بيان عقوبته في الدنيا فقال : ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾.

وقوله : ﴿تُخْلَفَهُ﴾ قرأها الجمهور بضم التاء وفتح اللام. أى : وإن لك موعدا في الآخرة لن يخلفك الله . تعالى . إياه. بل سينجزه لك ، فيعاقبك يومئذ العقاب الأليم الذي تستحقه بسبب ضلالك وإضلالك ، كما عاقبك في الدنيا بعقوبة الطرد والنفور من الناس.

وقرأ ابن كثير وأبو عمر ﴿لَنْ تُخْلِفَهُ﴾ بضم التاء وكسر اللام أى : وإن لك موعدا في الآخرة لن تستطيع التخلف عنه ، أو المهرب منه ، بل ستأتيه وأنت صاغر ..

ثم بين . سبحانه . ما فعله موسى . عليه‌السلام . بالعجل الذي صنعه السامري لإضلال الناس. فقال : ﴿وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً﴾.

أى : وقال موسى . أيضا . للسامري : وانظر الى معبودك العجل الذي أقمت على عبادته أنت وأتباعك في غيبتي عنكم.

﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار أمام أعينكم ، والجملة جواب لقسم محذوف ، أى : والله لنحرقنه ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ أى : ثم لنذرينّه في البحر تذرية ، بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر.

يقال : نسف الطعام ينسفه نسفا ، إذا فرقه وذراه بحيث لا يبقى منه شيء.

وقد نفذ موسى . عليه‌السلام . ذلك حتى يظهر للأغنياء الجاهلين الذين عبدوا العجل ، أنه لا يستحق ذلك. وإنما يستحق الذبح والتذرية ، وأن عبادتهم له إنما هي دليل واضح على انطماس بصائرهم ، وشدة جهلهم.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٨٥.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٥٦.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّما إِلٰهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

استئناف مسوق لإحقاق الحق وإبطال الباطل. أى : إنما المستحق للعبادة والتعظيم هو الله ـ تعالى ـ وحده ، الذي وسع علمه كل شيء. ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد قصت علينا بأسلوب بليغ حكيم ، جوانب من رعاية الله ـ تعالى ـ لنبيه موسى ـ عليه‌السلام ـ ورحمته به ، كما قصت علينا تلك المحاورات التي تمت بين موسى وفرعون ، وبين موسى والسحرة كما حدثتنا عن جانب من النعم التي أنعم الله ـ تعالى ـ بها على بنى إسرائيل ، وكيف أنهم قابلوها بالجحود والكنود وبإيذاء نبيهم موسى ـ عليه‌السلام ـ ..

ثم أشار ـ سبحانه ـ بعد ذلك إلى العبرة من قصص الأولين ، وإلى التنويه بشأن القرآن الكريم ، وإلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (١٠٠) خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (١٠٢) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾(١٠٤)

والكاف في قوله ـ تعالى ـ : ﴿كَذٰلِكَ﴾ في محل نصب نعت لمصدر محذوف ، أى : نقص عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ من أنباء ما قد سبق من أحوال الأمم الماضية ، قصصا مثل ما قصصناه عليك عن موسى وهارون. وما دار بينهما وبين فرعون وبين بنى إسرائيل.

و ﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ﴾ للتبعيض ، ويشهد لذلك أن القرآن قد صرح في كثير من آياته ، أن الله ـ تعالى ـ لم يقص على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم جميع أحوال الأمم السابقة ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ

﴿نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ (١).

ومن فوائد ما قصه الله ـ تعالى ـ عليه من أنباء السابقين : زيادة علمه ﷺ ، وتكثير معجزاته ، وتثبيت فؤاده ، وتسليته عما أصابه من سفهاء قومه ، وتذكير المؤمنين بأحوال تلك الأمم السابقة ليعتبروا ويتعظوا.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ تنويه وتعظيم لشأن القرآن الكريم.

أى : وقد أعطيناك ومنحناك من عندنا وحدنا ﴿ذِكْراً﴾ عظيما. وهو القرآن الكريم ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾.

قال الفخر الرازي : وفي تسمية القرآن بالذكر وجوه :

أحدها : أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم.

وثانيها : أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه على الناس ، ففيه التذكير والوعظ.

وثالثها : أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ (٢).

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة من يعرض عن هداية هذا القرآن فقال : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً﴾ .. ﴿خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً﴾.

والوزر في الأصل يطلق على الحمل الثقيل ، وعلى الإثم والذنب ، والمراد به هنا العقوبة الثقيلة الأليمة المترتبة على تلك الأثقال والآثام.

قال صاحب الكشاف : والمراد بالوزر : العقوبة الثقيلة الباهظة ، سماها وزرا تشبيها في ثقلها على المعاقب ، وصعوبة احتمالها ، بالحمل الذي يفدح الحامل ، وينقض ظهره ، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم (٣).

وقد أخبرنا القرآن في كثير من آياته ، أن الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون أوزارهم ، أى : أثقال ذنوبهم على ظهورهم ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ﴾ (٤).

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٤.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ٧١.

(٣) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٨٦.

(٤) سورة النحل الآية ٢٥.

أى : من أعرض عن هذا الذكر وهو القرآن الكريم فإنه بسبب هذا الإعراض والترك ، يحمل يوم القيامة على ظهره آثاما كثيرة : تؤدى إلى العقوبة المهينة من الله . تعالى ..

وقوله : ﴿خالِدِينَ فِيهِ﴾ أى : في العذاب المترتب على هذا الوزر.

﴿وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً﴾ أى : وبئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم بسبب إعراضهم عن هداية القرآن الكريم.

قال الآلوسى : قوله : ﴿وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً﴾ إنشاء للذم ، على أن «ساء» فعل ذم بمعنى بئس .. وفاعله على هذا هنا مستتر يعود على «حملا» الواقع تمييزا .. والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير : ساء حملهم حملا وزرهم [1].

ثم بين . سبحانه . أحوال المجرمين عند الحشر فقال : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾.

أى : اذكر . أيها العاقل . يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية ، ونحشر المجرمين يومئذ ونجمعهم للحساب حالة كونهم زرق العيون من شدة الهول ، أو حالة كونهم «زرقا» أى : عميا ، لأن العين إذا ذهب ضوؤها أزرق ناظرها. أو «زرقا» معناه : عطاشا ، لأن العطش الشديد يغير سواد العين فيجعله كالأزرق.

قال . تعالى . : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ. ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [2].

وقوله . سبحانه . : ﴿يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً﴾ استئناف لبيان ما يقوله بعضهم لبعض على سبيل الهمس وخفض الصوت.

أى : إن هؤلاء المجرمين يتهامسون فيما بينهم في هذا اليوم العصيب ، قائلين ما لبثتم في قبوركم إلا عشرا من الليالى أو الأيام.

ومقصدهم من هذا القول : استقصار المدة ، وسرعة انقضائها ، والندم على ما كانوا يزعمونه من أنه لا بعث ولا حساب ، بعد أن تبين لهم أن البعث حق ، وأن الحساب حق ، وأن الأمر على عكس ما كانوا يتوهمون.

وقوله . تعالى . : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ ...﴾ بيان لشمول علمه . سبحانه ..

أى : نحن وحدنا أعلم بما يقولون فيما بينهم ، لا يخفى علينا شيء مما يتخافتون به من شأن

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٥٩.

(٢) سورة الزمر الآية ٦٨.

مدة لبثهم في قبورهم أو في الدنيا.

﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أى : أعد لهم رأيا ، وأرجحهم عقلا ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾ واحدا وقيل المراد باليوم : مطلق الوقت ، وتنكيره للتقليل والتحقير. أى : ما لبثتم في قبوركم إلا زمنا قليلا.

ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لا لكونه أقرب إلى الصدق ، بل لكونه أدل على شدة الهول.

قال ـ تعالى ـ : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها﴾ أى الساعة ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها﴾ [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ أحوال الجبال وأحوال الناس يوم القيامة فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (١٠٥) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (١٠٦) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً﴾(١١٢)

والسائلون عن أحوال الجبال يوم القيامة كفار مكة ، روى أنهم قالوا للرسول ﷺ على سبيل الاستهزاء ، يا محمد إنك تدعى أن هذه الدنيا تفنى ، وأننا نبعث بعد الموت ، فأين تكون هذه الجبال ، فنزل قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً﴾.

---

(١) سورة النازعات الآية ٤٦.

وقيل : السائلون هم المؤمنون على سبيل طلب المعرفة والفهم.

وقوله : ﴿يَنْسِفُها﴾ من النسف بمعنى القلع. يقال : نسفت الريح التراب نسفا ـ من باب ضرب ـ إذا اقتلعته وفرقته.

أى : ويسألك ـ أيها الرسول الكريم ـ بعض الناس عن أحوال الجبال يوم القيامة ، فقل لهم : ينسفها ربي نسفا ، بأن يقلعها من أصولها ، ثم يجعلها كالرمل المتناثر ، أو كالصوف المنفوش الذي تفرقه الرياح.

والفاء في قوله : ﴿فَقُلْ﴾ للمسارعة إلى إزالة ما في ذهن السائل من توهم أن الجبال قد تبقى يوم القيامة.

والضمير في قوله ﴿فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً﴾ يعود إلى الجبال باعتبار أجزائها السفلى الباقية بعد النسف ، ويصح أن يعود إلى الأرض المدلول عليها بقرينة الحال ، لأنها هي الباقية بعد قلع الجبال. والقاع : هو المنكشف من الأرض دون أن يكون عليه نبات أو بناء.

والصفصف : الأرض المستوية الملساء حتى لكأن أجزاءها صف واحد من كل جهة.

أى : فيتركها بعد النسف أرضا منكشفة متساوية ملساء ، لا نبات فيها ولا بناء ...

﴿لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً﴾ أى : لا ترى في الأرض بعد اقتلاع الجبال منها ، مكانا منخفضا ، كما لا ترى فيها ﴿أَمْتاً﴾ أى : مكانا مرتفعا ، بل تراها كلها مستوية ملساء كالصف الواحد.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قد فرقوا بين العوج والعوج ، فقالوا : العوج بالكسر في المعاني : والعوج بالفتح في الأعيان ، والأرض عين ، فكيف صح فيها المكسور العين؟.

قلت : اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون ، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها ، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء ، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ، ثم استطلعت رأى المهندس فيها ، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية ، لعثر فيها على عوج في غير موضع ، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسى ، فنفى الله ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك ، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة ، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني ، فقيل فيه ، عوج بالكسر والأمت : النتوء اليسير ، يقال : مد حبله حتى ما فيه أمت .. [1]

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٨٨.

ثم بين ـ سبحانه ـ أحوال الناس يوم القيامة فقال : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ ...﴾.

والمراد بالداعي : الملك الذي يدعوهم إلى المثول للحساب.

قيل : يناديهم بقوله : أيتها العظام البالية ، والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة .. قومي إلى ربك للحساب والجزاء ، فيسمعون الصوت ويتبعونه.

والمعنى : في هذا اليوم الذي تنسف فيه الجبال ، وتصير الأرض قاعا صفصفا يقوم الناس من قبورهم ، ويتبعون من يناديهم للحساب والجزاء دون أن يحيدوا عن هذا المنادى ، أو أن يملكوا مخالفته أو عصيانه ، بل الجميع يسمع دعاءه ويستجيب لأمره.

كما قال ـ تعالى ـ : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ. خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ : مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ (١).

وقوله : ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾ أى : وخفتت وسكنت الأصوات كلها هيبة وخوفا من الرحمن ـ عزوجل ـ فلا تسمع ـ أيها المخاطب ـ في هذا اليوم الهائل الشديد ﴿إِلَّا هَمْساً﴾ أى : إلا صوتا خفيا خافتا. يقال : همس الكلام يهمسه همسا ، إذا أخفاه ، ويقال للأسد : الهموس ، لخفاء وطئه.

﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ ، وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ أى : في هذا اليوم الذي تخشع فيه الأصوات لا تنفع الشفاعة أحدا كائنا من كان ، إلا شفاعة من أذن له الرحمن في ذلك ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ أى : ورضى ـ سبحانه ـ قول الشافع فيمن يشفع له.

قال الإمام ابن كثير : وهذه الآية كقوله ـ تعالى ـ : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وكقوله : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى﴾ ، وكقوله : ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾ ...

وفي الصحيحين من غير وجه ، عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أنه قال : «آتى تحت العرش ، وأخر لله ساجدا ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقول ـ سبحانه ـ : «يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع قولك ، واشفع تشفع. قال صلى‌الله‌عليه‌وسلم : فيحد لي حدا ، فأدخلهم الجنة ، ثم أعود ، فذكر أربع مرات» صلى‌الله‌عليه‌وسلم وعلى سائر الأنبياء ...

وفي الحديث : يقول ـ تعالى ـ : «أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان

---

(١) سورة القمر الآيات ٦ ـ ٨.

فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقول ـ سبحانه ـ : أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من إيمان ، أخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرة ، من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان» [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ بيان لشمول علمه ـ سبحانه ـ لكل شيء.

أى : الله ـ تعالى ـ وحده هو الذي يعلم جميع أحوال خلقه سواء ما كان منها يتعلق بما بين أيديهم من أمور الآخرة وأهوال الموقف ، أم ما كان منها يتعلق بما خلفهم من أمور الدنيا ، أما هم فإنهم لا يحيط علمهم لا بذاته ـ تعالى ـ ولا بصفاته ، ولا بمعلوماته.

فالضمير في قوله ﴿ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ يعود على المتبعين للداعي وهم الخلق جميعا ...

وقيل : يعود للشافعين ، وقيل للملائكة ، والأول أولى لعمومه.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ...﴾ مؤكد ومقرر لما قبله من خشوع الأصوات يوم القيامة للرحمن ، ومن عدم الشفاعة لأحد إلا بإذنه ـ عزّ وجلّ ـ ..

والفعل ﴿عَنَتِ﴾ بمعنى ذلت يقال : عنا فلان يعنو عنوا ـ من باب سما ـ إذا ذل لغيره وخضع وخشع ، ومنه قيل للأسير عان لذله وخضوعه لمن أسره.

أى : وذلت وجوه الناس وخضعت في هذا اليوم لله ـ تعالى ـ وحده ﴿لِلْحَيِ﴾ أى : الباقي الذي له الحياة الدائمة التي لا فناء معها ﴿الْقَيُّومِ﴾ أى : الدائم القيام بتدبير أمر خلقه وإحيائهم وإماتتهم ورزقهم .. وسائر شئونهم.

وهذا اللفظ مبالغة في القيام. وأصله قيووم بوزن فيعول .. من قام بالأمر.

إذا حفظه ودبره.

وخصت الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ، وآثار الذل أكثر ما تكون ظهورا عليها.

وظاهر القرآن يفيد أن المراد بالوجوه جميعها ، سواء أكانت للمؤمنين أم لغيرهم ، فالكل يوم القيامة خاضع لله ـ تعالى ـ ومستسلم لقضائه ، فالألف واللام للاستغراق.

قال ابن كثير : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ قال ابن عباس وغير واحد ـ من السلف ـ خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لخالقها وجبارها الحي الذي لا يموت .. [2].

(١ ، ٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣١١.

ويرى بعضهم أن المراد بالوجوه التي ذلت وخشعت في هذا اليوم ، وجوه الكفار والفاسقين ، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقال : المراد بالوجوه وجوه العصاة ، وأنهم إذا عاينوا . يوم القيامة . الخيبة والشقوة وسوء الحساب وصارت وجوههم عانية ، أى : ذليلة خاشعة ، مثل وجوه العناة وهم الأسارى ، ونحوه قوله . تعالى . : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (١).

ويبدو لنا أن القول الأول أقرب إلى الصواب ، لأن جميع الوجوه يوم القيامة تكون خاضعة لحكم الله . تعالى . ومستسلمة لقضائه.

وقوله : ﴿وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ جملة حالية ، أى : ذلت جميع الوجوه لله . تعالى . يوم القيامة ، والحال أنه قد خاب وخسر من حمل في دنياه ظلما ، أى : شركا بالله . تعالى . أو فسوقا عن أمره . سبحانه . ولم يقدم العمل الصالح الذي ينفعه في ذلك اليوم العسير.

ثم بشر . سبحانه . المؤمنين بما يشرح صدورهم فقال : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً﴾.

أى : ومن يعمل في دنياه الأعمال الصالحات ، وهو مع ذلك مؤمن بكل ما يجب الإيمان به. فإنه في هذه الحالة ﴿فَلا يَخافُ ظُلْماً﴾ ينزل به. ولا يخاف ﴿هَضْماً﴾ لشيء من حقوقه أو ثوابه.

يقال : هضم فلان حق غيره ، إذا انتقصه حقه ولم يوفه إياه.

قالوا : والفرق بين الظلم والهضم : أن الظلم قد يكون بمنع الحق كله ، أما الهضم فهو منع لبعض الحق. فكل هضم ظلم ، وليس كل ظلم هضما.

فالآية الكريمة قد بشرت المؤمنين ، بأن الله . تعالى . بفضله وكرمه سيوفيهم أجورهم يوم القيامة ، بدون أدنى ظلم أو نقص من ثوابهم ، فالتنكير في قوله ﴿ظُلْماً وَلا هَضْماً﴾ للتقليل.

ثم نوه . سبحانه . بشأن القرآن الكريم الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ وبين بعض الحكم من إنزاله ، وطلب من نبيه ﷺ أن يسأله المزيد من العلم فقال . تعالى . :

﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (١١٣)

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٨٩.

﴿فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (١١٤)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ ...﴾ معطوف على قوله : ﴿كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ ..﴾ والكاف للتشبيه ، واسم الإشارة يعود على إنزال ما سبق من آيات.

أى : ومثل ما أنزلنا الآيات السابقة المشتملة على الآداب والأحكام والقصص ، أنزلنا عليك يا محمد القران كله ، فما نزل منه متأخرا يشبه في هدايته وإعجازه ما نزل منه متقدما.

وقد اقتضت حكمتنا أن نجعله ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ أى : بلغة العرب ، لكي يفهموه ويقعوا على ما فيه من هدايات وإرشادات وإعجاز للبشر.

وقوله : ﴿وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ معطوف على ﴿أَنْزَلْناهُ﴾ أى : أنزلناه قرآنا عربيا وكررنا ونوعنا فيه ألوانا من الوعيد على سبيل التخويف والتهديد.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى : لعل الناس يتقون ـ بسبب ذلك ـ الوقوع في الكفر والفسوق والعصيان ، ويجتنبون الآثام والسيئات ، ويصونون أنفسهم عن الموبقات فمعمول ﴿يَتَّقُونَ﴾ محذوف.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ بيان لحكمة أخرى من الحكم التي من أجلها أنزل الله القرآن الكريم.

أى : أنزلناه بهذه الصفة ، وجعلناه مشتملا على ضروب من الوعيد ، لعل قومك ـ أيها الرسول الكريم ـ يتقون الكفر والمعاصي ، أو لعل القرآن يحدث في نفوسهم ﴿ذِكْراً﴾.

أى : اتعاظا واعتبارا يصرفهم عن التردي فيما تردت فيه الأمم السابقة من آثام وموبقات أدت إلى هلاكها.

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿أَنْزَلْناهُ﴾ بالإضمار مع أن القرآن لم يسبق له ذكر في الآيات السابقة ، للإيذان بنباهة شأنه ، وعلو قدره ، وكونه مركوزا في العقول ، حاضرا في الأذهان والقلوب.

ثم أثنى ـ سبحانه ـ على ذاته بما يستحقه من صفات كريمة فقال : ﴿فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُ﴾.

أى : فجل وعظم شأن الله ـ سبحانه ـ عن إلحاد الملحدين ، وإشراك المشركين فإنه هو وحده ﴿الْمَلِكُ﴾ المتصرف في شئون خلقه ، وهو وحده الإله ﴿الْحَقُّ﴾ وكل ما سواه فهو باطل.

ثم أرشد الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ إلى كيفية تلقى القرآن من جبريل ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ..﴾.

أى : ولا تتعجل بقراءة القرآن من قبل أن ينتهى جبريل من إبلاغه إليك ، قالوا : وكان النبي ﷺ كلما قرأ عليه جبريل آية قرأها معه ، وذلك لشدة حرصه على حفظ القرآن ، ولشدة شوقه إلى سماعه ، فأرشده الله ـ تعالى ـ في هذه الآية إلى كيفية تلقى القرآن عن جبريل ، ونهاه عن التعجل في القراءة.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ﴾ (١).

ثم أمر ـ سبحانه ـ نبيه ﷺ : أن يسأله المزيد من العلم فقال : ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾.

أى : وقل ـ أيها الرسول الكريم ـ مخاطبا ربك ومتوسلا إليه ، يا رب زدني من علمك النافع.

قال الآلوسى : واستدلوا بالآية على فضل العلم حيث أمر ﷺ بطلب الزيادة منه ، وذكر بعضهم أنه ﷺ ما أمر بطلب الزيادة من شيء سوى العلم. وكان ﷺ يقول : «اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني ، وزدني علما» وكان يقول : «اللهم زدني إيمانا وفقها ويقينا وعلما» (٢).

ثم ساق ـ سبحانه ـ جانبا من قصة آدم ـ عليه السلام ـ فذكر لنا كيف أنه نسى عهد ربه له ، فأكل من الشجرة التي نهاه الله ـ تعالى ـ عن الأكل منها ، ومع ذلك فقد قبل ـ سبحانه ـ توبته ، وغسل حوبته .. قال ـ تعالى ـ :

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) وَإِذْ قُلْنا

---

(١) سورة القيامة الآيات ١٦ ـ ١٩.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٦٩.

لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى (١١٦) فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ
وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى (١١٨)
وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى
شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى (١٢٠) فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ
عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (١٢١) ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى
(١٢٢) قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ
فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى﴾(١٢٣)

واللام في قوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا ...﴾ هي الموطئة للقسم ، والمعهود محذوف ، وهو النهى عن الأكل من شجرة معينة ، كما وضحه في آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

أى : والله لقد عهدنا إلى آدم - عليه السلام - وأوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أن يخالف أمرنا فيقربها ويأكل منها ، أو من قبل أن نخبرك بذلك - أيها الرسول الكريم ..

والفاء في قوله ﴿فَنَسِيَ﴾ للتعقيب ، والمفعول محذوف. أى : فنسي العهد الذي أخذناه عليه بعدم الأكل منها.

والنسيان هنا يرى بعضهم أنه بمعنى الترك ، وقد ورد النسيان بمعنى الترك في كثير من آيات القرآن الكريم. ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا﴾ (١) أى : نترككم كما تركتم لقاء يومكم هذا وهو يوم القيامة.

---

(١) سورة الجاثية الآية ٣٤.

وعليه يكون المعنى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل بعدم الأكل من الشجرة فترك الوفاء بعهدنا وخالف ما أمرناه به.

وعلى هذا التفسير فلا إشكال في وصف الله ـ تعالى ـ له بقوله : ﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾ لأن آدم بمخالفته لما نهاه الله ـ تعالى ـ عنه وهو الأكل من الشجرة ـ صار عاصيا لأمر ربه.

ومن العلماء من يرى أن النسيان هنا على حقيقته ، أى : أنه ضد التذكر فيكون المعنى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ما عاهدناه عليه ، وغاب عن ذهنه ما نهيناه عنه ، وهو الأكل من الشجرة.

فإن قيل : إن الناسي معذور. فكيف قال الله ـ تعالى ـ في حقه : ﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾؟.

فالجواب : أن آدم ـ عليه‌السلام ـ لم يكن معذورا بالنسيان ، لأن العذر بسبب الخطأ والنسيان والإكراه. من خصائص هذه الأمة الإسلامية ، بدليل قوله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

قال القرطبي ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ..﴾ للنسيان معنيان : أحدهما : الترك ، أى ترك الأمر والعهد ، وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين ، ومنه ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ وثانيهما : قال ابن عباس : «نسى» هنا من السهو والنسيان ، وإنما أخذ الإنسان من أنه عهد إليه فنسي ... وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم في ذلك الوقت مؤاخذا بالنسيان ، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعا.

والمراد تسلية النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم أى : أن طاعة بنى آدم للشيطان أمر قديم أى : إن نقض هؤلاء ـ المشركون ـ العهد ، فإن آدم ـ أيضا ـ عهدنا إليه فنسي ..» [1].

وقوله : ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ مقرر لما قبله من غفلة آدم عن الوفاء بالعهد.

قال الجمل : وقوله : ﴿نَجِدْ﴾ يحتمل أنه من الوجدان بمعنى العلم ، فينصب مفعولين ، وهما «له» و «عزما» ويحتمل أنه من الوجود الذي هو ضد العدم فينصب مفعولا وهو ﴿عَزْماً﴾ والجار والمجرور متعلق بنجد [2].

والعزم : توطين النفس على الفعل ، والتصميم عليه ، والمضي في التنفيذ للشيء ..

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٥١.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١١٣.

أى : فنسي آدم عهدنا ، ولم نجد له ثبات قدم في الأمور ، يجعله يصبر على عدم الأكل من الشجرة بل لانت عريكته وفترت همته بسبب خديعة الشيطان له.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ بعد ذلك بشيء من التفصيل ، الأسباب التي أدت إلى نسيان آدم وضعف عزيمته فقال : ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى﴾.

أى : واذكر ـ أيها المخاطب ـ وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تكريم لا سجود عبادة ، فامتثلوا لأمرنا ، إلا إبليس فإنه أبى السجود لآدم تكبرا وغرورا وحسدا له على هذا التكريم.

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله لآدم بعد إباء إبليس عن السجود له فقال : ﴿يا آدَمُ إِنَّ هذا﴾ أى : إبليس ﴿عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ بسبب حسده لكما وحقده عليكما ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى﴾ أى : فاحذرا أن تطيعاه ، فإن طاعتكما له ستؤدى بكما إلى الخروج من الجنة ، فيترتب على ذلك شقاؤك ، أى : تعبك في الحصول على مطالب حياتك.

وأسند سبحانه إلى إبليس الإخراج لهما من الجنة ، لأنه هو المتسبب في ذلك ، عن طريق الوسوسة لهما ، وطاعتهما له فيما حرضهما عليه وهو الأكل من الشجرة ، وعبر عن التعب في طلب المعيشة بالشقاء ، لأنه بعد خروجه من الجنة سيقوم بحراثة الأرض وفلاحتها وزرعها وريها ... ثم حصدها .. ثم إعداد نتاجها للأكل ، وفي كل ذلك ما فيه من شقاء وكد وتعب.

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿فَتَشْقى﴾ ولم يقل فتشقيا كما قال ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُما﴾ لأن الكلام من أول القصة مع آدم وحده : أو لأن شقاء الرجل يدخل فيه شقاء أهله ، كما أن سعادته سعادتهم ، أو لأنه هو الذي يعود عليه التعب إذ هو المكلف بأن يقدم لها ما تحتاجه من مطالب الحياة. كالمسكن والملبس والمطعم والمشرب.

قال القرطبي ما ملخصه : قوله ﴿فَتَشْقى﴾ يعنى أنت وزوجك لأنهما في استواء العلة واحد ، ولم يقل : فتشقيا لأن المعنى معروف ، وآدم ـ عليه‌السلام ـ هو المخاطب ، وهو المقصود. وأيضا لما كان هو الكاد عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص.

وفي ذلك تعليم لنا أن نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم ، كانت كذلك نفقات بناتها على بنى آدم بحق الزوجية .. [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٥٣.

وَلا تَضْحى﴾ تعليل لما يوجبه النهى عن طاعة إبليس التي ستؤدى بهما إلى الإخراج من الجنة وإلى الشقاء في الدنيا.

والجوع : ضد الشبع. وقوله **﴿تَعْرى﴾** من العرى الذي هو خلاف اللبس.

يقال : عرى فلان من ثيابه يعرى عريا ، إذا تجرد منها.

وقوله **﴿تَضْحى﴾** أى : لا يصيبك حر الشمس في الضحى. يقال : ضحا فلان يضحى ضحوا ـ كسعى ـ إذا كان بارزا لحر الشمس في الضحى.

أى : احذر يا آدم أن تطيع إبليس فيحل بك الشقاء ، وتخرج من الجنة التي لا يصيبك فيها شيء من الجوع ، ولا شيء من العرى أو الظمأ ، ولا شيء من حر الشمس في الضحى .. وإنما أنت فيها متمتع بكل مطالب الحياة الهنيئة الناعمة الدائمة.

قال صاحب الكشاف : الشبع والري والكسوة والسكن ـ هذه الأربعة ـ هي الأقطاب التي يدور فيها كفاح الإنسان ، فذكّره استجماعها له في الجنة وأنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف ، ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا.

وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعرى والظمأ والضحو ، ليطرق سمعه بأسامى أصناف الشقوة التي حذره منها ، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ أن آدم ـ عليه‌السلام ـ مع هذه النصائح والتحذيرات لم يستطع أن يستمر على الاستجابة لنهى ربه إياه عن الأكل من الشجرة ، بل تغلب عليه ضعفه فاستمع إلى مكر الشيطان ، قال ـ تعالى ـ : **﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى﴾**.

والوسوسة : الخطرة الرديئة ، وأصلها من الوسواس ، وهو صوت الحلي ، والهمس الخفى. والوسواس ـ بكسر الواو الأولى ـ مصدر وبفتحها الاسم وهو من أسماء الشيطان ، كما قال ـ تعالى ـ : **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلهِ النَّاسِ ، مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾**.

ويقال : وسوس فلان إلى فلان ، أى : أوصلها إليه ، ووسوس له ، أى : من أجله.

أى فأوصل الشيطان وسوسته إلى آدم ، وأنهاها إليه ، بأن قال له : يا آدم ، هل أدلك على الشجرة التي من أكل منها عاش مخلدا لا يدركه الموت وصار صاحب ملك لا يفنى ، ولا يصبح باليا أبدا.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٩٢.

وناداه باسمه ، ليكون أكثر إقبالا عليه ، وأمكن في الاستماع إليه.

وعرض عليه ما عرض في صورة الاستفهام الذي بمعنى الحث والحض ، ليشعره بأنه ناصح له وحريص على مصلحته ومنفعته.

ثم أكد كل هذا التحريض بالقسم كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [1].

فكانت نتيجة مكره بآدم وخداعه له ، أن أطاعه في الأكل من الشجرة كما قال ـ تعالى ـ : ﴿فَأَكَلا مِنْها﴾ أى : فأكل آدم وزوجه من الشجرة التي نهاه ربه عن الأكل منها.

﴿فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما﴾ أى : عوراتهما ، وسميت العورة سوءة ، لأن انكشافها يسوء صاحبها ويحزنه ، ويجعل الناس تنفر منه.

﴿وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ..﴾ أى : وشرعا وأخذا يلزقان على أجسادهما من ورق الجنة ليسترا عوراتهما.

وكثير من المفسرين يقولون : إن ورق الجنة الذي أخذ آدم وحواء في لزقه على أجسادهما هو ورق شجر التين لكبر حجمه.

وقد أخذ العلماء من ذلك وجوب ستر العورة ، لأن قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ يدل على قبح انكشافها ، وأنه يجب بذل أقصى الجهد في سترها.

وقوله : ﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾ أى : وخالف آدم أمر ربه في اجتناب الأكل من الشجرة ﴿فَغَوى﴾ أى : فأخطأ طريق الصواب ، بسبب عدم طاعته ربه.

قالوا : ولكن آدم في عصيانه لربه كان متأولا ، لأنه اعتقد أن النهى عن شجرة معينة لا عن النوع كله ، وقالوا : وتسمية ذلك عصيانا لعلو منصبه ، وقد قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين.

كما قالوا : إن الأسباب التي حملت آدم على الأكل من الشجرة ، أن إبليس أقسم له بالله إنه له ناصح ، فصدقه آدم ـ عليه‌السلام ـ لاعتقاده أنه لا يمكن لأحد أن يقسم بالله كاذبا ، والمؤمن غر كريم ، والفاجر خب لئيم كما جاء في الحديث الشريف.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى﴾ بيان لفضل الله ـ تعالى ـ على آدم ، حيث قبل توبته ، ورزقه المداومة عليها.

---

(١) سورة الأعراف آية ٢١.

والاجتباء : الاصطفاء والاختيار ، أى : ثم بعد أن أكل آدم من الشجرة ، وندم على ما فعل هو وزوجه ، اجتباه ربه أى : اصطفاه وقربه واختاره ﴿فَتابَ عَلَيْهِ﴾ أى : قبل توبته ﴿وَهَدى﴾ أى : وهداه إلى الثبات عليها ، وإلى المداومة على طاعة الله ـ تعالى ـ فقد اعترف هو وزوجه بخطئهما ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ (١).

وقد أوحى الله ـ تعالى ـ إليه بكلمات كانت السبب في قبول توبته ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٢).

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات ببيان ما آل إليه أمر آدم فقال ـ تعالى ـ ﴿قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً ...﴾.

أى : انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين ، فألف الاثنين هنا تعود إلى آدم وحواء.

أما الآيات الأخرى التي جاءت بضمير الجمع ، والتي منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ...﴾ (٣).

فالضمير فيها يعود إلى آدم وزوجته وذريتهما.

وقوله : ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أى : بعض ذريتكما لبعض عدو ، بسبب التخاصم والتنازع والتدافع على حطام هذه الدنيا.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً﴾ يا بنى آدم عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب فعليكم أن تتبعوا رسلي ، وتعملوا بما اشتملت عليه كتبي.

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ﴾ بأن آمن برسلي وصدق بكتبي.

﴿فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة ، بسبب استمساكه بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

وشبيه هذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً ، فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤).

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ حسن عاقبة من اتبع هداه ، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة من أعرض عن ذكره وطاعته فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٣.

(٢) سورة البقرة الآية ٣٧.

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٤.

(٤) سورة البقرة الآية ٣٨.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى (١٢٤) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (١٢٦) وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (١٢٨) وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾(١٢٩)

وقوله : ﴿ضَنْكاً﴾ أى : شديدة الضيق. وكل شيء ضاق فهو ضنك.

وهو مصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والجمع يقال : ضنك. ككرم. عيش فلان ضنكا وضناكة إذا ضاق.

والمعنى إن من اتبع هداي الذي جاءت به رسلي فلن يضل ولن يشقى ، أما من أعرض عن ﴿ذِكْرِي﴾ أى : عن هداي الذي جاءت به رسلي ، واشتملت عليه كتبي ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾.

أى : فإن لهذا المعرض معيشة ضيقة مليئة بالهم والغم والأحزان وسوء العاقبة ، حتى ولو ملك المال الوفير ، والحطام الكثير .. فإن المعيشة الطيبة لا تكون إلا مع طاعة الله ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه ...

قال ـ تعالى ـ : ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾.

قال الإمام ابن كثير : قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ أى : في الدنيا فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى. فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة ...

وقال سفيان بن عيينة ، عن أبي حازم ، عن أبي سلمه ، عن أبي سعيد في قوله ﴿مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ قال : يضيق عليه قبره. حتى تختلف أضلاعه [١].

والمراد بالعمى في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى﴾ : عمى البصر ، بدليل قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : ﴿قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾.

وقوله ـ سبحانه ـ في آية أخرى : ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا﴾ [٢].

وقيل : المراد بالعمى : هنا أنه لا حجة له يدافع بها عن نفسه ، وقيل : المراد به : العمى عن كل شيء سوى جهنم.

والذي يبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الحق ، لأنه هو الظاهر من الآية الكريمة ، ولا قرينة تمنع من إرادة هذا الظاهر.

ويجمع بين هذه الآية وما يشبهها وبين الآيات الأخرى التي تدل على أن الكفار يبصرون ويسمعون ويتكلمون يوم القيامة ، والتي منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا ..﴾.

أقول : يجمع بين هذه الآية وما يشبهها ، وبين الآيات الأخرى بوجوه منها : أن عماهم وصممهم في أول حشرهم ، ثم يرد الله ـ تعالى ـ عليهم بعد ذلك أبصارهم وسمعهم ، فيرون النار ، ويسمعون ما يحزنهم.

قال الجمل : قوله : ﴿أَعْمى﴾ حال من الهاء في نحشره ، والمراد عمى البصر وذلك في المحشر ، فإذا دخل النار زال عنه عماه ليرى محله وحاله ، فهو أعمى في حال وبصير في حال أخرى [٣].

ومنها : تنزيل سمعهم وبصرهم وكلامهم منزلة العدم لعدم انتفاعهم بذلك فقد قال ـ تعالى ـ في شأن المنافقين : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ بتنزيل سماعهم وكلامهم وإبصارهم منزلة العدم ، حيث إنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾ استئناف مسوق لبيان ما يقوله ذلك المعرض عن طاعة الله يوم القيامة.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢١٦.

(٢) سورة الإسراء آية ٩٧.

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١١٦.

أى : قال ذلك الكافر الذي حشره الله ـ تعالى ـ يوم القيامة أعمى : يا رب لما ذا حشرتني على هذه الحال مع أنى كنت في الدنيا بصيرا؟.

وهنا يأتيه الجواب الذي يخرسه ، والذي حكاه الله ـ تعالى ـ في قوله : ﴿قالَ كَذلِكَ﴾ أى : قال الله ـ تعالى ـ في الرد عليه : الأمر كذلك ، فإنك ﴿أَتَتْكَ آياتُنا﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿فَنَسِيتَها﴾ أى : فتركتها وأعرضت عنها ﴿وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى﴾ أى : كما تركت آياتنا في الدنيا وأعرضت عنها ، نتركك اليوم في النار وفي العمى جزاء وفاقا.

ثم ساق ـ سبحانه ـ سنة من سننه التي لا تختلف فقال : ﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى﴾.

أى : ومثل ذلك الجزاء الأليم الذي أنزلناه بهؤلاء المعرضين عن ذكرنا نجازي كل من أسرف في ارتكاب السيئات والموبقات ، وكل من لم يؤمن بآيات ربه بل كذب بها وأعرض عنها ، ولعذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا ، ﴿وَأَبْقى﴾ منه أى : وأكثر بقاء ، وأطول زمانا من عذاب الدنيا.

ثم وبخ ـ سبحانه ـ أولئك الذين لم ينتفعوا بآياته فقال : ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ ..﴾.

والهمزة للاستفهام الإنكارى التوبيخي ، والفاء للعطف على مقدر ..

والمعنى : أبلغت الغفلة والجهالة بهؤلاء المشركين ، أنهم لم يتبين لهم ، أننا أهلكنا كثيرا من أهل القرون الماضية ، الذين كانوا يمشون آمنين لاهين في مساكنهم ...

وكان أهلاكنا لهم بسبب إيثارهم الكفر على الإيمان ، والغي على الرشد ، والعمى على الهدى ...

فالآية الكريمة تقريع وتوبيخ لكفار مكة الذين لم يعتبروا بما أصاب أمثالهم من الأمم السابقة ، كقوم نوح وعاد وثمود ...

قال الآلوسى : وقوله : ﴿يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ﴾ حال من ﴿الْقُرُونِ﴾ أو من مفعول ﴿أَهْلَكْنا﴾ أى : أهلكناهم وهم في حال آمن وتقلب في ديارهم. واختار بعضهم كونه حالا من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ مؤكدا للإنكار والعامل فيه ﴿يَهْدِ﴾. أى : أفلم يهد للمشركين حال كونهم ماشين في مساكن من أهلكنا من القرون السالفة من أصحاب الحجر ، وثمود ، وقوم لوط ، مشاهدين لآثار هلاكهم إذا سافروا إلى بلاد الشام وغيرها .. »[1].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٨٠.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى﴾ تذييل قصد به تعليل الإنكار ، أى : إن في ذلك الذي أخبرناهم به ، وأطلعناهم عليه من إهلاك المكذبين السابقين ، ﴿لَآياتٍ﴾ عظيمة ، وعبر كثيرة ، ودلائل واضحة لأصحاب العقول السليمة ، التي تنهى أصحابها عن القبائح والآثام.

والنهى : جمع نهية ـ بضم النون وإسكان الهاء ـ سمى العقل بها لنهيه عن القبائح.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض مظاهر فضله على هؤلاء المشركين الذين أرسل الرسول ﷺ لإنقاذهم من الكفر والضلالة فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ، لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾.

والمراد بالكلمة السابقة ، ما تفضل الله ـ تعالى ـ به من تأخير عذاب الاستئصال عن هذه الأمة التي بعث فيها الرسول ﷺ تكريما له كما قال ـ تعالى ـ ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ...﴾ أو لأن من نسلهم من يؤمن بالله حق الإيمان ، أو لحكم أخرى يعلمها ـ سبحانه ـ ولزاما : مصدر بمعنى اسم الفاعل ، وفعله لازم كقاتل.

وقوله : ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ معطوف على ﴿كَلِمَةٌ﴾.

والمعنى : ولو لا الوعد السابق منا بتأخير العذاب عن هؤلاء المشركين إلى يوم القيامة. ولو لا الأجل المسمى المحدد في علمنا لانتهاء أعمارهم ، لما تأخر عذابهم أصلا ، بل لكان العذاب لازما لهم في الدنيا ، ونازلا بهم كما نزل بالسابقين من أمثالهم في الكفر والضلال.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ بالمداومة على الصبر ، وعلى الإكثار من ذكره ـ تعالى ـ ونهاه عن التطلع إلى زينة الحياة الدنيا.

فقال ـ تعالى ـ :

﴿فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (١٣٠) وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى﴾(١٣٢)

والفاء في قوله - تعالى - : ﴿فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ ...﴾ فصيحة ، أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أن تأخير عذاب أعدائك للإمهال وليس للإهمال .. فاصبر على ما يقولونه في شأنك من أنك ساحر أو مجنون .. وسر في طريقك دون أن تلتفت إلى إيذائهم أو مكرهم واستهزائهم.

ثم أرشده - سبحانه - إلى ما يشرح صدره ، ويجلو همه فقال : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها ، وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى﴾.

أى : وعليك - أيها الرسول الكريم - أن تكثر من تسبيح ربك وتحميده وتنزيهه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وفي ساعات الليل وفي «أطراف النهار».

أى : في الوقت الذي يجمع الطرفين ، وهو وقت الزوال ، إذ هو نهاية النصف الأول من النهار ، وبداية النصف الثاني منه ، إذ في هذا التسبيح والتحميد والتنزيه لله - تعالى - والثناء عليه بما هو أهله ، جلاء للصدور ، وتفريج للكروب وأنس للنفوس ، واطمئنان للقلوب.

ويرى كثير من المفسرين ، أن المراد بالتسبيح هنا : إقامة الصلاة والمداومة عليها.

قال ابن كثير : قوله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعنى صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِها﴾ يعنى صلاة العصر ، كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي قال : كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته - أى : لا ينالكم ضيم في رؤيته بأن يراه بعضكم دون بعض - فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ هذه الآية ..

وقوله : ﴿وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أى : من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء. ﴿وَأَطْرافَ النَّهارِ﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿لَعَلَّكَ تَرْضى﴾ كما قال - سبحانه - : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾ (١).

وبعد هذا الأمر بالتسبيح ، جاء النهى عن الإعجاب بالدنيا وزينتها فقال - تعالى - : ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ..﴾.

أى : أكثر - أيها الرسول الكريم - من الاتجاه إلى ربك ، ومن تسبيحه وتنزيهه ومن المداومة على الصلاة ولا تطل نظر عينيك بقصد الرغبة والميل ﴿إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢١٩.

أى : إلى ما متعنا به أصنافا من هؤلاء المشركين ، بأن منحناهم الجاه والمال والولد.

وما جعلناه لهم في هذه الدنيا بمثابة الزهرة التي سرعان ما تلمع ثم تذبل وتزول.

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ﴿أَزْواجاً مِنْهُمْ﴾ أى : أصنافا من الكفرة ، وهو مفعول ﴿مَتَّعْنا﴾ قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به .. وقيل الخطاب له ﷺ والمراد أمته ، لأنه كان أبعد الناس عن إطالة النظر إليها ، وهو القائل : «الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ما أريد به وجه الله ـ تعالى ـ» وكان ﷺ شديد النهى عن الاغترار بها.

ويؤخذ من الآية أن النظر غير الممدود معفو منه ، وكأن المنهي عنه في الحقيقة هو الإعجاب بذلك ، والرغبة فيه ، والميل إليه.

وقوله : ﴿زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ أى : زينتها وبهجتها. وهو منصوب بمحذوف يدل عليه ﴿مَتَّعْنا﴾.

أى : جعلنا لهم زهرة ، أو على أنه مفعول ثان ، بتضمين متعنا معنى أعطينا ، فأزواجا مفعول أول ، وزهرة هو المفعول الثاني .. [1].

وقوله : ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ بيان للحكمة من هذا التمتيع والعطاء أى متعنا هؤلاء الكافرين بالأموال والأولاد .. لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم بهذا المتاع ، فإذا آمنوا وشكروا زدناهم من خيرنا ، وإذا استمروا في طغيانهم وجحودهم وكفرهم ، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

فالجملة الكريمة تنفر العقلاء من التطلع إلى ما بين أيدى الكفار من متاع ، لأن هذا المتاع سيئ العاقبة ، إذا لم يستعمل في طاعة الله ـ تعالى ـ..

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ تذييل قصد به الترغيب فيما عند الله ـ تعالى ـ من طيبات.

أى : وما رزقك الله إياه ـ أيها الرسول الكريم ـ في هذه الدنيا من طيبات. وما ادخره لك في الآخرة من حسنات ، خير وأبقى مما متع به هؤلاء الكافرين من متاع زائل سيحاسبهم الله ـ تعالى ـ عليه يوم القيامة حسابا عسيرا ، لأنهم لم يقابلوا نعم الله عليهم بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والكفران.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد رسمت للمؤمن أفضل الطرق وأحكمها ، لكي يحيا حياة فاضلة طيبة ، حياة يعتز فيها صاحبها بالمعاني الشريفة الباقية ، ويعرض عن المظاهر والزخارف الزائلة.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٨٣.

ثم كلف الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يأمر أهل بيته بالمداومة على إقامة الصلاة فقال : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها﴾.

والمراد بأهل بيته ﷺ أزواجه وبناته : وقيل : ما يشملهم ويشمل معهم جميع المؤمنين من بنى هاشم. وقيل المراد بهم : جميع أتباعه من أمته.

أى : وأمر ـ أيها الرسول الكريم ـ أهل بيتك بالمداومة على إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص واطمئنان ، واصطبر على تكاليفها ومشاقها ، وعلى إقامتها كاملة غير منقوصة ، وعلى تحقيق آثارها الطيبة في نفسك.

وقد ساق بعض المفسرين عن تفسيره لهذه الآية أحاديث منها ما أخرجه البيهقي عن عبد الله بن سلام قال : كان النبي ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وتلا هذه الآية : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ ..﴾.

وأخرج مالك والبيهقي عن أسلم قال : كان عمر بن الخطاب يصلى من الليل ما شاء الله ـ تعالى ـ أن يصلى حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ويقول لهم : الصلاة ، الصلاة ويتلو هذه الآية ... [1].

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى﴾ تشجيع وتحريض للمؤمنين على إقامة الصلاة ، ودفع لما يتوهمه البعض من أن المداومة على إقامة الصلاة قد تشغل الإنسان عن السعى في طلب المعاش.

أى : مر ـ أيها الرسول الكريم ـ أهلك بالمداومة على الصلاة ، واصطبر على تكاليفها ، فهذه الصلاة هي من أركان العبادات التي خلقك الله وخلق عباده من أجلها ، ولا يصح أن يشغلكم عنها أى شاغل من سعى في طلب الرزق أو غيره ، فنحن لا نكلفكم أن ترزقوا أنفسكم أو غيركم ، وإنما نحن الذين نرزقكم ونرزق الخلق جميعا قال ـ تعالى ـ : ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُها ..﴾ [2].

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [3].

وقوله ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى﴾ أى : والعاقبة الحميدة لأهل التقوى والخشية من الله ـ تعالى ـ الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة ..

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٨٥.

(٢) سورة هود الآية ٦.

(٣) سورة العنكبوت الآية ٦٠.

روى الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله ـ تعالى ـ : «يا بن آدم. تفرغ لعبادتي ، املأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك».

وروى ابن ماجة عن زيد بن ثابت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من كانت الدنيا همه ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن كان الآخرة نيته ، جمع له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة [1].

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بإيراد بعض الشبهات التي أثارها المشركون حول النبي ﷺ ورد عليها بما يبطلها فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَقالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى(١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى﴾(١٣٥)

ومرادهم بالآية في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَقالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ معجزة حية من المعجزات التي اقترحوها عليه ﷺ كتفجير الأنهار حول مكة ، وكرقيه إلى السماء ، وكنزول الملائكة معه ..

أى : وقال الكافرون على سبيل التعنت والعناد للرسول ﷺ هلا أتيت لنا يا محمد بآية من الآيات التي طلبناها منك ، أو بآية من الآيات التي أتى بها الأنبياء من قبلك ، كالعصا بالنسبة لموسى ، والناقة بالنسبة لصالح.

فهم ـ كما يقول الآلوسى ـ : «بلغوا من المكابرة والعناد إلى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال ، من قبيل الآيات ، حتى اجترءوا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٦٢.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى﴾ رد على جهالاتهم وجحودهم.

والمراد بالبينة القرآن الكريم الذي هو أم الآيات ، ورأس المعجزات.

والمراد بالصحف الأولى : الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل والزبور.

والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والاستفهام لتقرير الإتيان وثبوته.

والمعنى : أجهلوا ولم يكفهم اشتمال القرآن الذي جئت به ـ أيها الرسول الكريم ـ على بيان ما في الصحف الأولى التي أنزلناها على الرسل السابقين ، ولم يكفهم ذلك في كونه معجزة حتى طلبوا غيرها؟.

قال صاحب الكشاف : اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوة ، فقيل لهم : أو لم تأتكم آية من أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز ، يعنى القرآن ، من جهة أن القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ، ودليل صحته لأنه معجزة ، وتلك ليست بمعجزات ، فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها ، افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة. [1].

وقال ابن كثير : قوله : ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى﴾ يعنى : القرآن العظيم ، الذي أنزله الله ـ تعالى ـ عليه ﷺ وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور ، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها ، فإن القرآن مهيمن عليها .. وهذه الآية كقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ* أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [2].

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ما من نبي إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» [3].

ومنهم من يرى أن المراد بالبينة : الكتب السماوية السابقة.

فيكون المعنى : أو لم يكف هؤلاء الجاهلين أن الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل قد بشرت بك وبينت نعوتك وصفاتك ، وهم معترفون بصدقها ، فكيف لا يقرون بنبوتك.

قال القرطبي : وقوله : ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى﴾ يريد التوراة والإنجيل

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٩٩.

(٢) سورة العنكبوت الآيتان ٥٠ ، ٥١.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٢٣.

والكتب المتقدمة ، وذلك أعظم آية إذ أخبر بما فيها. وقيل : أو لم تأتهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه في الكتب المتقدمة من البشارة .. [(١)].

وعلى كلا التفسيرين فالآية الكريمة شهادة من الله ـ تعالى ـ بصدق النبي ﷺ فيما بلغه عنه ، ورد مبطل لشبهات الكافرين ولأقوالهم الباطلة ، وإن كان تفسير البينة هنا بالقرآن أظهر وأوضح.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى﴾ كلام مستأنف لتقرير ما قبله من أن القرآن الكريم هو معجزة المعجزات ، وآية الآيات وأرفعها وأنفعها.

أى : ولو أنا أهلكنا هؤلاء الكافرين بعذاب الاستئصال ، من قبل مجيء الرسول ﷺ إليهم ومعه هذا القرآن الكريم معجزة له ، لقالوا على سبيل الاعتذار يوم القيامة : يا ربنا هلا أرسلت إلينا في الدنيا رسولا من عندك ومعه المعجزات التي تدل على صدقه ، فكنا في هذه الحالة اتبعنا آياتك التي جاءنا بها وصدقناه وآمنا به ، من قبل أن يحصل لنا الذل والهوان والخزي والافتضاح في الآخرة.

والمقصود من الآية الكريمة قطع أعذارهم ، أى : لو أنا أهلكناهم قبل ذلك ، لقالوا ما قالوا ، ولكنا لم نهلكهم بل أرسلنا إليهم رسولنا ، فبلغهم ما أرسلناه به ، فانقطع عذرهم ، وبطلت حجتهم.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [(٢)].

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بهذه الآية التي أمر فيها رسوله ﷺ أن يهددهم بسوء العاقبة ، إذا ما استمروا في طغيانهم يعمهون ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى﴾.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الكافرين : كل واحد منا ومنكم متربص بالآخر ، ومنتظر لما يؤول إليه أمر صاحبه.

وما دام الأمر كذلك ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وانتظروا ما يؤول إليه حالنا وحالكم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ بعد زمن قريب. ﴿مَنْ﴾ هم ﴿أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ﴾ أى : الطريق الواضح

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٣٦٤.

(٢) سورة القصص الآية ٤٧.

المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ومن هم الذين تجنبوا الضلالة ، واهتدوا إلى ما يسعدهم في دينهم وفي دنياهم وفي آخرتهم.

وقريب من هذه الآية في المعنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [2].

* * *

وبعد فهذه سورة طه ، وهذا تفسير تحليلي لها ، وكما أنها قد افتتحت بنفي إرادة الشقاء للنبي ﷺ فقد اختتمت بهذه البشارة له ﷺ ولأتباعه وبهذا التهديد لأعدائهم ...

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا وبهجة صدورنا ، وشفيعنا يوم الدين ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم ..

د. محمد سيد طنطاوى

---

(١) سورة القمر آية ٢٦.

(٢) سورة الفرقان آية ٤٢.

تفسير

سورة الأنبياء

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد : فهذا تفسير تحليلي لسورة (الأنبياء) وأسأل الله . تعالى . أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده وشفيعا لنا يوم نلقاه. ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

المؤلف

د / محمد سيد طنطاوى

١ . سورة الأنبياء ، من السور المكية. وعدد آياتها اثنتا عشرة ومائة عند الكوفيين. وعند غيرهم إحدى عشرة آية ومائة. وكان نزولها بعد سورة إبراهيم.

قال الآلوسي : وهي سورة عظيمة ، فيها موعظة فخيمة ، فقد أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية ، وابن عساكر ، عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرمه عامر ، وكلم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فقال : إني استقطعت رسول الله ﷺ واديا ما في العرب واد أفضل منه. وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك.

فقال عامر : لا حاجة لي في ذلك ، فقد نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا.

ثم قرأ : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ..﴾ [1].

٢ . وعند ما نقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، نراها في مطلعها تسوق لنا ما يهز القلوب ، ويحملها على الاستعداد لاستقبال يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح ، ويزجرها عن الغفلة والإعراض.

قال . تعالى . : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ. ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ..﴾.

٣ . ثم تحكى السورة بعد ذلك ألوانا من الشبهات التي أثارها المشركون حول الرسول ﷺ وحول دعوته ، وردت عليهم بما يبطل شبهاتهم وأقوالهم ، فقال . تعالى . : ﴿بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ ، بَلْ هُوَ شاعِرٌ ، فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ* ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ* وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ* وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ﴾.

٤ . ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ادلة متعددة على وحدانية الله . تعالى . وعلى شمول قدرته. منها قوله . عزّ وجلّ . : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ* لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ* لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾.

(١) تفسير الآلوسي ج ١٧ ص ٢.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما ، وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ* وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ* وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ* وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ﴾.

٥ ـ وبعد أن ذكرت السورة ألوانا من نعم الله على خلقه ، وحكت جانبا من تصرفات المشركين السيئة مع النبي ﷺ أتبعت ذلك بتسليته ﷺ عما قالوه في شأنه.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾.

٦ ـ ثم عرضت السورة الكريمة جانبا من قصص بعض الأنبياء ، تارة على سبيل الإجمال ، وتارة بشيء من التفصيل ، فتحدثت عن موسى وهارون ، وعن إبراهيم ولوط ، وعن إسحاق ويعقوب ، وعن نوح وأيوب ، وعن داود وسليمان ، وعن إسماعيل وإدريس ، وعن يونس وزكريا.

وفي نهاية حديثها عنهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ عقبت بالمقصود الأساسى من رسالتهم ، وهو دعوة الناس جميعا إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ، وأنهم جميعا قد جاءوا برسالة واحدة في جوهرها ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.

٧ ـ ثم تحدثت في أواخرها عن أشراط الساعة ، وعن أهوالها ، وعن أحوال الناس فيها.

قال ـ تعالى ـ : ﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ* وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ﴾.

٨ ـ ثم ختم ـ سبحانه ـ سورة الأنبياء بالحديث عن سنة من سننه التي لا تتخلف ، وعن رسالة نبيه ﷺ وعن موقفه من أعدائه ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ* إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ* وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ* قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ* فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ ، وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ* إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ* وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ* قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾.

وبعد : فهذا عرض إجمالى لسورة الأنبياء ، ومنه نرى أنها قد أقامت ألوانا من الأدلة على وحدانية الله . تعالى . ، وعلى صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن يوم القيامة حق ...

كما حكت شبهات المشركين وردت عليها بما يبطلها ، كما ساقت نماذج متعددة من قصص الأنبياء . عليهم الصلاة والسلام.

ونسأل الله . تعالى . أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. محمد سيد طنطاوى

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾(٦)

وقوله . سبحانه . : ﴿اقْتَرَبَ﴾ من القرب الذي هو ضد البعد.

والمعنى : قرب الزمن الذي يحاسب فيه الناس على أعمالهم في الدنيا ، والحال أن الكافرين منهم في غفلة تامة عن هذا الحساب ، وفي إعراض مستمر عن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح.

قال الإمام ابن كثير : هذا تنبيه من الله . عَزَّوَجَلَّ . على اقتراب الساعة ودنوها ، وأن الناس في غفلة عنها ، أى لا يعملون لها ، ولا يستعدون من أجلها.

قال . تعالى . : ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ...﴾ وقال : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَ

﴿الْقَمَرُ* وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ (١).

وعبر سبحانه ـ بالقرب مع أنه قد مضى على نزول هذه الآية وأمثالها أكثر من أربعة عشر قرنا ، لأن كل آت وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، قريب الوقوع ، ولأن ذلك الوقت وإن كان كبيرا في عرف الناس ، إلا أنه عند الله ـ تعالى ـ قليل ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٢).

وقال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً* وَنَراهُ قَرِيباً﴾ (٣).

وقال ـ تعالى ـ : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ ..﴾ بلفظ العموم ، مع أن ما بعده من ألفاظ الغفلة والإعراض يشعر بأن المراد بهم الكافرون ، للتنبيه على أن الحساب سيشمل الجميع ، إلا أنه بالنسبة للكافرين سيكون حسابا عسيرا.

قال صاحب الكشاف : وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، على معنى : أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم ، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم ، مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء للمحسن والمسيء. وإذا قرعت لهم العصا ، ونبهوا عن سنة الغفلة ، وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر ، أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا (٤).

وفي التعبير عن اقتراب يوم القيامة باقتراب الحساب ، زيادة في الترهيب والتخويف ، وفي الحض على الاستعداد لهذا اليوم ، لأنه يوم يحاسب فيه الناس على أعمالهم في الدنيا حسابا دقيقا ، ولن تملك فيه نفس لنفس شيئا ، وإنما يجازى فيه كل إنسان بحسب عمله.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ بيان لمواقف هؤلاء الغافلين اللاهين ممن يذكرهم بأهوال ذلك اليوم.

والمراد بالذكر : ما ينزل من آيات القرآن على النبي ﷺ.

والمراد بالمحدث : الحديث العهد بالنزول على النبي ﷺ وهو صفة لذكر.

أى : أن هؤلاء الغافلين المعرضين عن الاستعداد ليوم الحساب ، لا يصل إلى أسماعهم شيء من القرآن الكريم ، الذي أنزله الله ـ تعالى ـ على قلب نبيه صلى‌الله‌عليه‌وسلم آية فآية ، أو سورة بعد سورة في أوقات متقاربة ، إلا استمعوا إلى هذا القرآن المحدث تنزيله على الرسول

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٢٤.

(٢) سورة الحج الآية ٤٧.

(٣) سورة المعارج الآية ٦ ، ٧.

(٤) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٠١.

ﷺ وهم يلعبون ، دون أن يحرك منهم عاطفة نحو الإيمان به ، فهم لانطماس بصيرتهم ، وقسوة قلوبهم ، وجحود نفوسهم للحق ، لا يتعظون ولا يعتبرون.

وقوله : ﴿ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ ..﴾ يشعر بأن ما نزل من قرآن قد وصل إليهم دون أن يتعبوا أنفسهم في الحصول عليه ، بل أتاهم وهم في أماكنهم بدون سعى إليه.

وقوله ﴿ذِكْرٍ﴾ فاعل و ﴿مِنْ﴾ مزيدة للتأكيد.

وقوله ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بمحذوف صفة لذكر ، و ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية أى : ما يأتيهم من ذكر كائن من ربهم وخالقهم ورازقهم ، في حال من الأحوال ، إلا استمعوه وهم هازلون مستهترون.

وقوله : ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ حال أخرى من أحوالهم الغريبة التي تدل على نهاية طغيانهم وفجورهم ، لأنهم بجانب استماعهم إلى ما ينزل من القرآن بلعب وغفلة ، تستقبله قلوبهم . التي هي محل التدبر والتفكر . بلهو واستخفاف.

ثم حكى . سبحانه . لونا من ألوان مكرهم وخبثهم فقال : ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ والنجوى : المسارة بالحديث ، وإخفاؤه عن الناس.

أى : بعد أن استمعوا إلى القرآن بإعراض ولهو واستهتار ، اختلى بعضهم ببعض ، وبالغوا في إخفاء ما يضمرونه من سوء نحو النبي ﷺ ونحو ما جاء به من عند الله . تعالى . ، وحاولوا أن يظهروا ذلك فيما بينهم فحسب ، مبالغة منهم في المكر السيئ الذي حاق بهم.

وقوله . سبحانه . : ﴿هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ. أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ بيان لما قالوه في تناجيهم من سوء.

والاستفهام للنفي والإنكار.

أى : أنهم قالوا في تناجيهم : ما هذا الذي يدعى النبوة ، وهو محمد ﷺ إلا بشر مثلكم ، ولا يمكن أن يكون رسولا ، وما جاءنا به إنما هو السحر بعينه ، فكيف تذهبون إليه ، وتقبلون منه ما يدعيه ، والحال أنكم تعاينون بأبصاركم سحره.

وما حملهم على هذا القول الباطل إلا توهمهم أن الرسول لا يكون من البشر ، وأن كل ما يظهر على يد مدعى النبوة من البشر من خوارق ، إنما هو من قبيل السحر.

قال الآلوسى : وأرادوا بقولهم : «ما هذا إلا بشر مثلكم» أى : من جنسكم ، وما أتى به سحر ، تعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول وأنتم تعاينون أنه سحر. قالوا ذلك بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون إلا ملكا ، وأن كل ما يظهر على يد

البشر من الخوارق من قبيل السحر. وعنوا بالسحر. هنا القرآن الكريم ، ففي ذلك إنكار لحقيته على أبلغ وجه ، قاتلهم الله . تعالى . : أنّى يؤفكون. وإنما أسروا ذلك ، لأنه كان على طريق توثيق العهد ، وترتيب مبادئ الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد في هدم أمر النبوة. وإطفاء نور الدين ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون [١].

هذا ، ودعوى المشركين أن الرسول لا يكون بشرا ، قد حكاها القرآن في كثير من آياته ، ومن ذلك قوله . تعالى . : ﴿وما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى ، إِلَّا أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ [٢].

وقد رد الله . تعالى . عليهم هذه الدعوى الكاذبة في كثير من آيات كتابه . أيضا ، ومن ذلك قوله عزّ وجلّ . : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى ..﴾ [٣].

ثم حكى . سبحانه . بعد ذلك ما لقنه لنبيه ﷺ من الرد عليهم ، فقال : ﴿قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أى : قال الرسول ﷺ في الرد على ما تناجوا به سرا : ربي الذي أرسلني لإخراجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. يعلم ما تقولونه سواء كان سرا أم جهرا ، وسواء أكان القائل موجودا في السماء أم في الأرض ، وهو وحده السميع لجميع ما يسمع ، العليم بكل شيء في هذا الكون.

وما دام الأمر كذلك فأنا سأمضى في طريقي مبلغا رسالته . سبحانه . ، أما أنتم فسترون سوء عاقبتكم إذا ما سرتم في طريق الكفر والعناد.

وفي قراءة سبعية بلفظ قل على الأمر للنبي ﷺ .

أى : قل لهم . أيها الرسول الكريم . ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم.

وقوله . تعالى . : ﴿بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ ، بَلِ افْتَراهُ ، بَلْ هُوَ شاعِرٌ﴾ إضراب من جهته . تعالى . ، وانتقال من حكاية قولهم السابق ﴿هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ..﴾ إلى حكاية أقوال أخرى باطلة قالوها في شأنه ﷺ وفي شأن ما جاء به.

أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بما قالوه قبل ذلك في شأن الرسول ﷺ من أنه

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٩.

(٢) سورة الإسراء الآية ٩٤.

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٩.

بشر وما جاء به سحر ، بل أضافوا إلى ذلك أن القرآن أضغاث أحلام. أى : أخلاط كأخلاط الأحلام ، وأنه أباطيل لا حقيقة لها.

والأضغاث : جمع ضغث. وأصله ما جمع من أنواع شتى من النبات ثم حزم في حزمة واحدة.

والأحلام : جمع حلم ـ بضم الحاء وسكون اللام ـ وهو ما يراه النائم مما ليس بحسن.

وقد استعير هذا التركيب لما يراه النائم من وساوس وأحلام خلال نومه ﴿بَلِ افْتَراهُ﴾ أى : اختلق هذا القرآن من عند نفسه.

﴿بَلْ هُوَ شاعِرٌ﴾ أى : أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم شاعر ـ في زعمهم ـ وما أتى به هو نوع من الشعر التخييلى الذي لا حقيقة له.

ثم أضافوا إلى هذا التخبط واضطراب قولهم : ﴿فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾.

ومرادهم بالآية هنا : آية كونية ، والجملة جواب لشرط محذوف يفصح عنه السياق ، والتقدير : إن لم يكن كما قلنا في شأنه من أنه شاعر بل كان رسولا حقا فليأتنا بخارق يدل على صدقه كناقة صالح ، وعصا موسى ، وإحياء عيسى للأموات .. فإن المرسلين السابقين فعلوا ذلك.

وكأنهم ـ لانطماس بصائرهم وشدة جهالاتهم ـ لا يعتبرون القرآن الذي هو آية الآيات ـ لا يعتبرونه آية ومعجزة تدل على صدقه صلى‌الله‌عليه‌وسلم.

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد صورت تخبط هؤلاء المشركين تصويرا حكيما ، شأنهم في ذلك شأن الحائر المضطرب الذي لا يستطيع الثبات على قرار ، بل هو لتمحله وتعلله ينتقل من دعوى باطلة إلى أخرى أشد منها بطلانا.

وقد نفى القرآن عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم كل هذه الدعاوى الباطلة ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ* وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (١).

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ* لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ (٢).

---

(١) سورة الحاقة الآيات ٤١ ـ ٤٣.

(٢) سورة يس الآيتان ٦٩ ـ ٧٠.

ثم بين . سبحانه . جانبا من مظاهر فضله ورحمته بهؤلاء الذين أرسل إليهم رسوله محمدا ﷺ فقال : ﴿ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

أى : أن هؤلاء الجاهلين من قومك . أيها الرسول الكريم . قد طلبوا منك آية كونية كالتي جاء بها موسى وعيسى وصالح .. وهذه الخوارق عند ما جاء بها هؤلاء الرسل ولم يؤمن بها أقوامهم أهلكنا هؤلاء الأقوام ، وفقا لسنتنا التي لا تتخلف في إهلاك من يكذبون بآياتنا ، ولو أنا أعطيناك هذه الخوارق ولم يؤمن بها قومك لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين ، لذا اقتضت حكمتنا ورحمتنا أن نمنع عنهم ما طلبوه ، لأنهم بشر كالسابقين. ومادام السابقون لم يؤمنوا بهذه الخوارق فهؤلاء أيضا لن يؤمنوا بها.

فالاستفهام في قوله : ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ للإنكار. أى : أن هؤلاء الكافرين من أمتك . أيها الرسول الكريم . لن يؤمنوا بهذه الخوارق التي طلبوها متى جاءتهم لأنهم لا يقلون عتوا وعنادا عن السابقين الذين لم يؤمنوا بها فأهلكهم الله.

وصدق الله إذ يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ (١).

ثم بين . سبحانه . أن حكمته قد اقتضت أن يكون جميع الرسل من البشر وأن يعيشوا الحياة التي تقتضيها الطبيعة البشرية ، وأن يؤيدهم الله . تعالى . بالمعجزات الدالة على صدقهم ، فقال . تعالى . :

﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾(٩)

أى : وما أرسلنا قبلك . أيها الرسول الكريم . إلى الأمم السابقة إلا رسلا من البشر ، ليعيشوا حياة البشر ، ويتمكنوا من التعامل والتخاطب والتفاهم مع من هم من جنسهم ، ولو كان الرسل من غير البشر لما كانت هناك وشيجة ورابطة بينهم وبين أقوامهم.

---

(١) سورة يونس الآيتان ٩٦ . ٩٧.

وهذه الجملة رد مفحم على المشركين الجاهلين الذين استبعدوا أن يكون الرسول بشرا وقالوا قبل ذلك : ﴿هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾.

وقوله . تعالى . ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ استئناف مبين لكيفية الإرسال.

أى : اقتضت حكمتنا أن يكون الرسل من الرجال ، وأن نبلغهم ما نكلفهم به عن طريق الوحى المنزل إليهم من جهتنا.

وقوله . سبحانه . : ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ توبيخ لهم وتجهيل ، لأنهم قالوا ما قالوا بدون تعقل أو تدبر.

والمراد بأهل الذكر : علماء أهل الكتاب الذين كان المشركون يرجعون إليهم في أمور دينهم.

والفاء في قوله : ﴿فَسْئَلُوا ..﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها. وجواب الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه.

أى : مادامت قد بلغت بكم الجهالة أن تستبعدوا أن يكون الرسول بشرا فاسألوا أهل العلم في ذلك ، فسيبينون لكم أن الرسل السابقين لم يكونوا إلا رجالا.

قال القرطبي : قوله . تعالى . : ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي ﷺ وسماهم أهل الذكر ، لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء ، مما لم تعرفه العرب ، وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب في أمر النبي ﷺ .

وقال ابن زيد : أراد بالذكر : القرآن. أى : فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن .. [1].

ثم أكد . سبحانه . هذه الحقيقة وهي كون الرسل من البشر فقال : ﴿وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ﴾.

والضمير في ﴿جَعَلْناهُمْ﴾ يعود إلى الرسل ، والجسد مصدر جسد الدم يجسد . من باب فرح . إذا التصق بغيره ، وأطلق على الجسم جسد ، لالتصاق أجزائه بعضها ببعض ، ويطلق هذا اللفظ على الواحد المذكر وغيره ولذلك أفرد ، أو هو أفرد لإرادة الجنس.

أى : وما جعلنا الرسل السابقين عليك يا محمد أجسادا لا تأكل ولا تشرب كالملائكة ، وإنما جعلناهم مثلك يأكلون ويشربون ويتزوجون ويتناسلون ويعتريهم ما يعترى البشر من

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٧٢.

سرور وحزن ، ويقظة ونوم .. وغير ذلك مما يحسه البشر.

وما جعلناهم ـ أيضا ـ خالدين في هذه الحياة بدون موت ، وإنما جعلنا لأعمارهم أجلا محددا تنتهي حياتهم عنده بدون تأخير أو تقديم.

قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ ..﴾ بيان لسنة الله ـ تعالى ـ الجارية مع رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ..

أى : ثم صدقنا هؤلاء الرسل ما وعدناهم به من جعل العاقبة لهم ﴿فَأَنْجَيْناهُمْ﴾ من العذاب الذي أنزلناه بأعدائهم. وأنجينا معهم ﴿مَنْ نَشاءُ﴾ إنجاءهم من المؤمنين بهم.

﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ الذين تجاوزوا الحدود في كفرهم وتطاولهم على الرسل الكرام ، وإعراضهم عن دعوتهم.

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة من أول السورة إلى هنا ، قد أنذرت الناس باقتراب يوم الحساب ، وحذرتهم من الغفلة عنه ، ومن الإعراض عن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح ، وحكت ما قاله المشركون من تهم باطلة تتعلق بالرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم وبما جاء به من عند ربه ـ تعالى ـ وردت عليها بما يزهقها ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن ما أنزله على نبيه صلى‌الله‌عليه‌وسلم هو خير الآيات وأخلدها وأشرفها ، وأنه يشرف الأمة التي تنتسب إليه ، وأن الأمم السابقة التي كذبت بالخوارق والمعجزات التي جاء بها الرسل ـ عليهم‌السلام ـ أهلكها الله ـ تعالى ـ هلاك استئصال ـ فقال ـ تعالى ـ :

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

(١) سورة الزمر الآية ٣٠ ، ٣١.

تُسْئَلُونَ (١٣) **قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ** (١٤) **فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ**﴾(١٥)

قال الآلوسى : «قوله ـ تعالى ـ : ﴿**لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً ..**﴾ كلام مستأنف لتحقيق حقية القرآن العظيم ، الذي ذكر في صدر السورة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته ، واستهزاؤهم به ، واضطرابهم في أمره ، وبيان علو مرتبته ، إثر تحقيق رسالته ﷺ ، ببيان أنه كسائر الرسل الكرام ، وقد صدر الكلام بالتوكيد القسمي ، إظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه وإيذانا ، بأن المخاطبين في أقصى مراتب النكير ، والخطاب لقريش ، وجوز أن يكون لجميع العرب.» [(١)].

والمعنى : لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب عن طريق رسولنا محمد ﷺ كتابا عظيم الشأن ، نير البرهان ، مشتملا على ما يسعدكم ، وهذا الكتاب ﴿**فِيهِ ذِكْرُكُمْ**﴾ أى : فيه شرفكم ، وعلو منزلتكم ، وحسن موعظتكم ، وشفاء صدوركم.

﴿**أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ ذلك ، مع أن هذا الأمر واضح ، ولا يحتاج إلى جدال أو مناقشة.

فالاستفهام لإنكار عدم تدبرهم في شأن هذا الكتاب الذي أنزله الله ـ تعالى ـ ليظفروا بسببه بالذكر الجميل ، وبالموعظة الحسنة ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ**﴾ [(٢)].

وإن من مظاهر كون القرآن الكريم فيه ذكر العرب وشرفهم ، أنه نزل بلغتهم ، وأنه المعجزة الباقية الخالدة بخلاف غيره من المعجزات التي أيد الله ـ تعالى ـ بها الرسل السابقين ، وأنه الكتاب الذي قادوا به البشرية قرونا طويلة. عند ما حملوه إلى الناس ، فقرأوه عليهم ، وشرحوا لهم أحكامه وآدابه وتشريعاته .. وما أصيب العرب في دينهم ودنياهم إلا يوم أن تخلوا عن العمل بهدايات هذا الكتاب ، وقصروا في تبليغه إلى الناس.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أنزله بالقوم الظالمين فقال : ﴿**وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ**﴾.

و «كم» هنا خبرية مفيدة للتكثير ، وهي في محل نصب على أنها مفعول مقدم «لقصمنا».

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٤.

(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤.

وأصل القصم : كسر الشيء حتى ينقطع وينفصل عن غيره ، يقال : قصم فلان ظهر فلان ، إذا كسره حتى النهاية ، بخلاف الفصم فهو صدع الشيء من غير قطع وانفصال.

قال القرطبي : «والقصم : الكسر ، يقال : قصمت ظهر فلان ، وانقصمت سنه ، إذا انكسرت.

والمعنى ها هنا به الإهلاك. وأما الفصم ـ بالفاء ـ فهو الصدع في الشيء من غير بينونة» [1].

أى : وكثيرا من القرى الظالمة التي تجاوز أهلها حدود الحق ، ومردوا على الكفر والضلال ، أبدناها مع أهلها ، وعذبناها عذابا نكرا ، بسبب ظلمهم وبغيهم ، وأنشأنا من بعدهم قوما آخرين ليسوا مثلهم.

وأوقع ـ سبحانه ـ فعل القصم على القرى ، للإشعار بأن الهلاك قد أصابها وأصاب أهلها معها. فالكل قد دمره ـ سبحانه ـ تدميرا.

أما عند الإنشاء فقد أوقع الفعل على القوم فقال : ﴿وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ﴾ للإيماء إلى أن هؤلاء القوم الآخرين ، الذين لم يكونوا أمثال السابقين ، هم الذين ينشئون القرى ويعمرونها.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ [2].

ثم صور ـ سبحانه ـ حال هؤلاء الظالمين عند ما أحسوا بالعذاب وهو نازل بهم فقال : ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ﴾.

وقوله : ﴿أَحَسُّوا﴾ من الإحساس. وهو إدراك الشيء بالحاسة. يقال : أحس فلان الشيء ، إذا علمه بالحس ، وأحس بالشيء ، إذا شعر به بحاسته.

وقوله : ﴿يَرْكُضُونَ﴾ من الركض وهو السير السريع ، وأصله : أن يضرب الرجل دابته برجله ليحثها على الجري والسرعة في المشي. والمقصود به هنا : الهرب بسرعة.

أى : فلما أحس هؤلاء الظالمون عذابنا المدمر ، وأيقنوا نزوله بهم ، وعلموا ذلك علما مؤكدا ، إذا هم يخرجون من قريتهم ﴿يَرْكُضُونَ﴾ أى : يهربون بسرعة وذعر ، حتى لكأنهم من اضطرابهم وخوفهم يظنون أن ذلك سينجيهم.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٧٤.

(٢) سورة الإسراء الآية ١٧.

وإذا هنا فجائية ، والجملة بعدها جواب «لما».

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ﴾ حكاية لما تقوله لهم الملائكة وهم يركضون هربا ـ على سبيل التهكم والاستهزاء.

أى : يقال لهم من جهة الملائكة أو من جهة المؤمنين لا تركضوا هاربين ﴿وَارْجِعُوا إِلى﴾ قريتكم وإلى ﴿ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أى : وإلى ما نعمتم فيه من العيش الهنيء. والخير الوفير ، الذي أبطركم وجعلكم تجحدون النعم ، ولم تستعملوها فيما خلقت له.

فقوله : ﴿أُتْرِفْتُمْ﴾ من الترفه ـ بالتاء المشددة مع الضم ـ وهي النعمة والطعام الطيب. يقال : ترف فلان ـ كفرح ـ إذا تنعم. وفلان أترفته النعمة ، إذا أطغته أو نعمته.

وقوله : ﴿وَمَساكِنِكُمْ﴾ معطوف على ﴿ما﴾.

أى : لا تهربوا وارجعوا إلى ما نعمتم فيه من العيش الهنيء ، وإلى مساكنكم التي كنتم تسكنونها ، وتتفاخرون بها.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ أى يقصدكم غيركم لسؤالكم عما نزل بكم ، فتجيبوا عن علم ومشاهدة.

قال صاحب الكشاف : «قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ تهكم بهم وتوبيخ ، أى : ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم. فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة.

أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم ، وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم حشمكم وعبيدكم ، ومن تملكون أمره. وينفذ فيه أمركم ونهيكم ، ويقول لكم : بم تأمرون؟ وبما ذا ترسمون؟

وكيف نأتى ونذر كعادة المنعمين المخدّمين.

أو يسألكم الناس في أنديتكم .. ويستشيرونكم في المهمات. ويستضيئون بآرائكم.

أو يسألكم الوافدون عليكم ، ويستمطرون سحائب أكفكم .. قيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم ، وتوبيخا إلى توبيخ» (١).

وهنا أدرك هؤلاء الظالمون ، أن الأمر جد لا هزل ، وأن العذاب نازل بهم لا محالة ، وأن القائلين لهم لا تركضوا ، إنما يتهكمون بهم. فأخذ أولئك الظالمون يتفجعون ويتحسرون قائلين : ﴿يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ﴾.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٠٦.

والويل : الفضيحة والبلية والمصيبة التي يعقبها الهلاك. وهي كلمة جزع وتحسر.

وتستعمل عند ما تحيط بالإنسان داهية عظيمة ، وكأن المتحسر لنزول مصيبة به ، ينادى ويلته ويطلب حضورها بعد تنزيلها منزلة من ينادى.

أى : قالوا عند ما تيقنوا أن الهلاك نازل بهم : يا هلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا ، مستوجبين للعذاب. بسبب إعراضنا عن الحق ، وتكذيبنا لمن جاء به.

واسم الإشارة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ﴾ يعود إلى الكلمات التي قالوها على سبيل التحسر عند ما يئسوا من الخلاص والهرب ، وتأكدوا من الهلاك ، وهي قولهم : ﴿يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ﴾.

أى : فما زالوا يرددون تلك الكلمات بتفجع وتحسر واستعطاف.

وسميت هذه الكلمات دعوى ، لأن المولول كأنه يدعو الويل قائلا : أيها الويل هذا أوانك فأقبل نحوي.

وقوله : ﴿حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ﴾ بيان لما آل إليه حالهم.

وخامدين : من الخمود بمعنى الهمود والانطفاء والانتهاء. يقال : خمدت النار تخمد خمدا وخمودا ، إذا سكن لهيبها ، وانطفأ شررها.

أى : فما زالت تلك كلماتهم حتى جعلناهم في الهمود والهلاك كالنبات المحصود بالمناجل ، وكالنار الخامدة بعد اشتعالها.

وهكذا تكون عاقبة الظالمين. وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يدل على قدرته ووحدانيته ، وعلى أن من في السموات والأرض لا يستكبرون عن عبادته ـ تعالى ـ ، فقال ـ عزوجل ـ :

﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ

عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ﴾(٢٠)

والمعنى : إننا لم نخلق السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله ، لم نخلق ذلك عبثا ، وإنما خلقنا هذه المخلوقات بحكمتنا السامية ، وقدرتنا النافذة ، ومشيئتنا التي لا يقف في وجهها شيء.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ، من أن خلق السموات والأرض وما بينهما لم يكن عبثا ، وإنما لحكم بالغة ، مستتبعة لغايات جليلة ، ومنافع عظيمة.

و «لو» هنا حرف امتناع لامتناع. أى : امتناع وقوع فعل الجواب لامتناع وقوع فعل الشرط.

واللهو : الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة ، ولا يتناسب مع الجد ، وهو قريب من العبث الباطل تقول : لهوت بهذا الشيء ألهو لهوا ، إذا تشاغلت به عن الجد ، ويطلقه بعضهم على الولد والزوجة والمرأة.

أى : لو أردنا ـ على سبيل الفرض والتقدير ـ أن نتخذ ما نتلهى به ، لاتخذناه من عندنا ومن جهتنا دون أن يمنعنا أحد مما نريده ولكنا لم نرد ذلك لأنه مستحيل علينا استحالة ذاتية ، فيستحيل علينا أن نريده.

فالآية الكريمة من باب تعليق المحال على المحال ، لأن كلا الأمرين يتنافى مع حكمة الله ـ تعالى ـ ومع ذاته الجليلة.

وقوله : ﴿إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾ تأكيد لامتناع إرادة اللهو ، و ﴿أَنْ﴾ نافية ، أى : ما كنا فاعلين ذلك ، لأن اتخاذ اللهو يستحيل علينا.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾ إضراب عن إرادة اتخاذ اللهو ، وإثبات لما تقتضيه ذاته ـ تعالى ـ مما يخالف ذلك.

والقذف : الرمي بسرعة. والاسم القذاف ـ ككتاب ـ ، وهو سرعة السير ، ومنه قولهم : ناقة قذاف ـ بكسر القاف ـ إذا كانت متقدمة على غيرها في السير.

ويدمغه : أى. يمحقه ويزيله. قال القرطبي : وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ.

أى : ليس من شأننا أن نتخذ لهوا ، وإنما الذي من شأننا وحكمتنا ، أن نلقى بالحق الذي

أرسلنا به رسلنا ، على الباطل الذي تشبث به الفاسقون ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أى : فيقهره ويهلكه ويزيله إزالة تامة.

والتعبير القرآنى البليغ ، يرسم هذه السنة الإلهية في صورة حسية متحركة حتى لكأنما الحق قذيفة تنطلق بسرعة فتهوي على الباطل فتشق أم رأسه ، فإذا هو زاهق زائل.

قال الآلوسى : وفي إذا الفجائية ، والجملة الاسمية ، من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان مالا يخفى ، فكأنه زاهق من الأصل [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ وعيد شديد لأولئك الكافرين الذين نسبوا إلى الله ـ تعالى ـ مالا يليق به ، ووصفوه بأن له صاحبة وولدا ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً﴾.

أى : ولكم ـ أيها الضالون المكذبون ـ الويل والهلاك ، من أجل وصفكم له ـ تعالى ـ بما لا يليق بشأنه الجليل.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ استئناف مؤكد لما قبله من أن جميع المخلوقات خاضعة لقدرته ـ تعالى ..

أى : وله وحده ـ سبحانه ـ جميع من في السموات والأرض ، خلقا ، وملكا ، وتدبيرا ، وتصرفا وإحياء ، وإماتة ، لا يخرج منهم أحد عن علمه وقدرته ـ عزّ وجلّ ..

ثم بين ـ سبحانه ـ نماذج من عباده الطائعين له ، بعد أن حكى أقوال أولئك الضالين ، فقال : ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ* يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ﴾.

والاستحسار : الكلل والتعب. يقال : حسر البصر يحسر حسورا ـ من باب قعد ـ إذا تعب من طول النظر ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أى : كليل متعب.

أى : ومن عنده من مخلوقاته وعلى رأسهم الملائكة المقربون ، لا يستكبرون عن عبادته ـ سبحانه ـ بل يخضعون له خضوعا تاما ﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أى : ولا يكلون ولا يتعبون.

بل هم ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ الله ـ تعالى ـ ويحمدونه ويكبرونه. طوال الليل والنهار بدون فتور

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٢٠.

أو تراخ أو تقصير. يقال : فتر فلان عن الشيء يفتر فتورا ، إذا سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة ، ويقال : فتر الماء . من باب قعد . إذا سكن حره فهو فاتر.

قالوا : وذلك لأن تسبيح الملائكة لله . تعالى . يجرى منهم مجرى التنفس منا ، فهو سجية وطبيعة فيهم وكما أن اشتغالنا لا يمنعنا من الكلام ، فكذلك اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الأعمال [1].

وبعد أن بين . سبحانه . أن من مخلوقاته من يقوم بتسبيحه وعبادته بدون انقطاع أو فتور ، أتبع ذلك بتوبيخ المشركين وبإقامة الأدلة على وحدانيته ، واستحالة أن يكون هناك من يشاركه في ألوهيته فقال . تعالى . :

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٢٥)

قال الإمام الرازي : اعلم أن الكلام من أول السورة إلى هنا كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالا وجوابا ، وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد ونفى الأضداد والأنداد ..» [2].

والاستفهام في قوله ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ .. للإنكار والتوبيخ. وقوله : ﴿يُنْشِرُونَ﴾ من النشر بمعنى الإحياء والبعث. يقال : أنشر الله . تعالى . الموتى : إذا بعثهم بعد موتهم.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٢٣.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ٩١.

والمعنى : إن هؤلاء الضالين قد أشركوا مع الله . تعالى . آلهة أخرى في العبادة ، فهل هذه الآلهة التي اتخذوها تستطيع أن تعيد الحياة إلى الأموات؟

كلا إنها لا تستطيع ذلك بإقرارهم ومشاهدتهم ، ومادام الأمر كذلك فكيف أباحوا لأنفسهم أن يتخذوا آلهة لا تستطيع أن تفعل شيئا من ذلك أو من غيره؟

إن اتخاذهم هذا لمن أكبر الأدلة وأوضحها على جهالاتهم وسفاهاتهم وسوء تفكيرهم.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر. وما كانوا يدّعون ذلك لآلهتهم ، لأنهم كانوا ينكرون البعث أصلا ويقولون : من يحيي العظام وهي رميم؟ قلت : الأمر كما ذكرت ولكنهم بادعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار ، لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور ، والإنشار من جملة المقدورات. وفيه باب من التهكم بهم ، والتوبيخ والتجهيل ، وإشعار بأن ما استبعدوه من الله . تعالى . لا يصح استبعاده ، لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة [1].

وقوله . سبحانه . ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ متعلق باتخذوا ، و «من» ابتدائية ، أى : اتخذوها من أجزاء الأرض كالحجارة وما يشبهها ، ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للآلهة ، أى : اتخذوا آلهة كائنة من الأرض .. وعلى كلا التقديرين فالمراد بهذا التعبير التحقير والتجهيل.

ثم ساق . سبحانه . دليلا عقليا مستمدا من واقع هذا الكون فقال : ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾.

أى : لو كان في السموات والأرض آلهة أخرى سوى الله . تعالى . ، تدبر أمرهما ، لفسدتا ولخرجتا عن نظامهما البديع ، الذي لا خلل فيه ولا اضطراب.

وذلك لأن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم .. فيختل النظام لهذا الكون ، ويضطرب الأمر ، ويعم الفساد في هذا العالم.

ولما كان المشاهد غير ذلك إذ كل شيء في هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق دل الأمر على أن لهذا الكون كله ، إلها واحدا قادرا حكيما لا شريك له.

قال صاحب الكشاف : «والمعنى لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٠٩.

وفيه دلالة على أمرين : أحدهما : وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحدا.

الثاني : أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده ، لقوله ﴿إِلَّا اللهُ﴾.

فإن قلت : لم وجب الأمران؟ قلت : لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف.

قال عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق : كان والله أعز على من دم ناظري. ولكن لا يجتمع فحلان في شول . أى : في عدد مع النياق . [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيه لله ـ تعالى ـ عما قاله الجاهلون في شأنه ـ عزّوجلّ ـ ..

أى : فتنزيها لله وتقديسا وتبرئة لذاته عن أن يكون له شريك في ألوهيته ، وجل عما وصفه به الجاهلون.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ تأكيد لوحدانيته وقدرته ـ سبحانه ـ أى : لا يسأله سائل ـ سبحانه ـ عما يفعله بعباده من إعزاز وإذلال. وهداية وإضلال ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وإسعاد وإشقاء .. لأنه هو الرب المالك المتصرف في شئون خلقه ، وهم يسألون يوم القيامة عن أعمالهم وأقوالهم لأنهم عبيده ، وقد أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، فمنهم من اتبع الرسل فسعد وفاز ، ومنهم من استحب العمى على الهدى فشقي وهلك.

وبعد أن ساق ـ سبحانه ـ دليلا عقليا على وحدانيته ، أتبعه بدليل آخر نقلي ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ ، هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ..﴾.

قال الآلوسى ما ملخصه : هذا إضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة ، لخلوها من خصائصها التي من جملتها الإنشار ، إلى تبكيتهم ومطالبتهم بالبرهان على دعواهم الباطلة ، وتحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد ، وبطلان الإشراك .. [2].

أى : إن هؤلاء الكافرين قد أشركوا مع الله ـ تعالى ـ آلهة أخرى في العبادة ، بسبب جهلهم وعنادهم وجحودهم للحق .. قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ على سبيل التبكيت والتوبيخ ﴿هاتُوا بُرْهانَكُمْ﴾ على أن مع الله ـ تعالى ـ آلهة أخرى تستحق مشاركته في

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١١١.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٣١.

العبادة والطاعة؟ ولا شك أنهم لا برهان لهم على ذلك.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ زيادة في تبكيتهم وفي إظهار عجزهم ، أى : هذا الوحى الإلهى الناطق بتوحيد الله ـ تعالى ـ موجود في القرآن الكريم المشتمل على ذكر المعاصرين لي من أتباعى ، وموجود في كتب الأنبياء السابقين ، كالتوراة التي أنزلها الله على موسى ، والإنجيل الذي أنزله على عيسى ، فمن أين أتيتم أنتم بهؤلاء الشركاء ، وكيف اتخذتموهم آلهة مع أنهم لا برهان عليهم لا من جهة العقل ولا من جهة النقل؟

فاسم الإشارة ﴿هذا﴾ في قوله : ﴿هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ مبتدأ ، مشار به إلى الوحى الإلهى ، وقد أخبر عنه ـ سبحانه ـ بخبرين ـ كما يقول الشيخ الجمل ـ : «فبالنظر للخبر الأول يراد به القرآن ، وبالنظر للخبر الثاني يراد به ما عداه من الكتب السماوية» (١).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ إضراب من جهته ـ تعالى ـ عن مناقشتهم ومطالبتهم بالبرهان ، وانتقال من الأمر بتبكيتهم إلى الأمر بإهمالهم استصغارا لشأنهم.

أى : دعهم ـ أيها الرسول الكريم ـ في باطلهم يعمهون فإنهم قوم أكثرهم يجهلون الحق ، ولا يستطيعون التمييز بينه وبين الباطل. فهم لأجل ذلك منصرفون عن الهدى ، ومتجهون إلى الضلال ، ومن جهل شيئا عاداه.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن جميع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قد أمروا أقوامهم بإخلاص العبادة لله ، ونبذ الشرك والشركاء ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

أى : وما أرسلنا من قبلك من رسول يا محمد إلا وأ فهمناه عن طريق وحينا أنه لا إله يستحق العبادة والطاعة إلا أنا ، فعليه أن يأمر قومه بطاعتي وعبادتي والخضوع لي وحدي.

هذا ، والمتدبر لهذه الآيات الكريمة ، يراها قد أقامت أحكم الأدلة العقلية والنقلية على وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار. وعلى أن الذين يتخذون معه آلهة أخرى سفهاء جاهلون.

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك شبهة من الشبهات الباطلة التي تفوه بها المشركون ، ورد عليهم ردا مفحما ، فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٢٤.

﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾(٢٩)

قال الآلوسى ما ملخصه : «قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً﴾ ، حكاية لجناية فريق من المشركين لإظهار بطلانها ، وبيان تنزهه ـ سبحانه ـ عن ذلك ، إثر بيان تنزهه ـ جل وعلا ـ عن الشركاء على الإطلاق ، وهم حي من خزاعة قالوا : الملائكة بنات الله ، ونقل الواحدي أن قريشا وبعض العرب قالوا ذلك.

والآية مشنعة على كل من نسب إلى الله ـ تعالى ـ ذلك كاليهود والنصارى ..» (١).

أى : وقال المشركون الذين انطمست بصائرهم عن معرفة الحق «اتخذ الرحمن ولدا سبحانه».

أى : تنزه وتقدس الله ـ تعالى ـ عن ذلك جل وعلا عما يقولونه علوا كبيرا.

وقوله : ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ﴾ إضراب عما قالوه ، وإبطال له ، وثناء على ملائكته الذين زعم فريق من المشركين أنهم بنات الله.

وعباد : جمع عبد. والعبودية لله ـ تعالى ـ معناها : إظهار التذلل له ـ سبحانه ـ ، والخضوع لذاته.

ومكرم : اسم مفعول من أكرم ، وإكرام الله ـ تعالى ـ لعبده معناه : إحسانه إليه وإنعامه عليه.

أى : لقد كذب هؤلاء المشركون في زعمهم أن الملائكة بنات الله ، والحق أن الملائكة هم عباد مخلوقون له ـ تعالى ـ ومقربون إليه ومكرمون عنده.

وقوله : ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أى : لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ، ولا يقولون شيئا

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٣٢.

بدون إذنه ، كما هو شأن العبيد الطائعين لسيدهم.

وأصل الكلام : لا يسبق قولهم قوله ـ عزّ وجلّ ـ إلا أنه ـ سبحانه ـ أسند السبق إليهم ، تنزيلا لسبق قولهم لقوله ، منزلة سبقهم إياه ، للإشعار بمزيد طاعتهم وتنزيههم عن كل قول بغير إذنه ـ تعالى ـ.

وقوله : (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) بيان لتبعيتهم له ـ تعالى ـ في الأعمال إثر بيان تبعيتهم له ـ سبحانه ـ في الأقوال.

أى : وهم بأمره وحده يعملون لا بأمر أحد سواه ، ولا بأمر أنفسهم ، كما قال ـ تعالى ـ في آية أخرى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ) [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ مظهرا من مظاهر علمه الشامل ، وحكمه النافذ ، فقال (يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ ..) أى : يعلم ـ سبحانه ـ أحوالهم كلها صغيرها وكبيرها ، متقدمها ومتأخرها ، (وَلا يَشْفَعُونَ) لأحد من خلقه إلا لمن ارتضى الله ـ تعالى ـ شفاعتهم له.

(وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) أى : وهم لخوفهم من الله ومن عقابه حذرون وجلون.

فأنت ترى أن الله ـ تعالى ـ قد وصف الملائكة في هذه الآيات بجملة من الصفات الكريمة التي تدل على طاعتهم المطلقة لله ـ تعالى ـ وعلى إكرامه ـ سبحانه ـ لهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك أنهم مع كرامتهم عند الله ـ تعالى ـ لو ادعى أحد منهم ـ على سبيل الفرض ـ أنه إله ، لعاقبه الله عقابا شديدا ، فقال ـ تعالى ـ : (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ ، فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ).

أى : ومن يقل من الملائكة ـ على سبيل الفرض والتقدير ـ (إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ) أى : من دون الله ـ عزّ وجلّ ـ «فذلك» الذي ادعى هذا الادعاء الكاذب «نجزيه جهنم» أى : نجعل جزاءه الإلقاء في جهنم كسائر المجرمين الكاذبين ، ولا يغنى عنه ما سبق له من طاعة وتكريم (كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) أى : مثل هذا الجزاء الرادع الفظيع نجزى كل ظالم لم يضع الأمور في غير موضعها ، إذ أن حقوق الله ـ تعالى ـ لا يجوز لأحد ـ كائنا من كان ـ أن ينسبها لنفسه ، سواء أكان ملكا مقربا ، أم نبيا مرسلا.

وبعد أن ساق ـ سبحانه ـ ألوانا من الأدلة الكونية الشاهدة بوحدانيته ، ومن الأدلة

---

(١) سورة التحريم آية ٦.

النقلية النافية للشركاء ، ومن الأدلة الوجدانية التي تهيج القلوب نحو الحق .. أتبع ذلك بتحريض الكافرين على التدبر في ملكوت السموات والأرض ، لعل هذا التدبر يهديهم إلى الإيمان ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٣٣)

وقوله ﴿رَتْقاً﴾ مصدر رتقه رتقا : إذا سده. يقال : رتق فلان الفتق رتقا ، إذا ضمه وسده ، وهو ضد الفتق الذي هو بمعنى الشق والفصل.

وللعلماء في معنى هذه الآية أقوال أشهرها : أن معنى ﴿كانَتا رَتْقاً﴾ أن السماء كانت صماء لا ينزل منها مطر ، وأن الأرض كانت لا يخرج منها نبات ، ففتق الله ـ تعالى ـ السماء بأن جعل المطر ينزل منها ، وفتق الأرض بأن جعل النبات يخرج منها.

وهذا التفسير منسوب إلى ابن عباس ، فقد سئل عن ذلك فقال : كانت السموات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت ، فلما خلق ـ سبحانه ـ للأرض أهلا ، فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات [1].

ومنهم من يرى أن المعنى : كانت السموات والأرض متلاصقتين كالشيء الواحد ، ففتقهما الله ـ تعالى ـ بأن فصل بينهما ، فرفع السماء إلى مكانها ، وأبقى الأرض في مقرها ، وفصل بينهما بالهواء.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٣٢.

قال قتادة قوله ﴿كَانَتَا رَتْقاً﴾ يعنى أنهما كانا شيئا واحدا ففصل الله بينهما بالهواء [1].

ومنهم من يرى أن معنى «كانتا رتقا» أن السموات السبع كانت متلاصقة بعضها ببعض ففتقها الله ـ تعالى ـ بأن جعلها سبع سموات منفصلة ، والأرضون كانت كذلك رتقا ، ففصل الله ـ تعالى ـ بينها وجعلها سبعا.

قال مجاهد : كانت السموات طبقة واحدة مؤتلفة ، ففتقها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضين كانت طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا [2].

وقد رجح بعض العلماء المعنى الأول فقال ما ملخصه : كونهما «كانتا رتقا» بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر ، والأرض لا تنبت ، ففتق ـ سبحانه ـ السماء بالمطر والأرض بالنبات ، هو الراجح وتدل عليه قرائن من كتاب الله ـ تعالى ـ منها :

أن قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ يدل على أنهم رأوا ذلك لأن الأظهر في رأى أنها بصرية ، والذي يرونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر ، والأرض لا نبات فيها. فيشاهدون بأبصارهم نزول المطر من السماء ، وخروج النبات من الأرض.

ومنها : أنه ـ سبحانه ـ أتبع ذلك بقوله : ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ﴾ والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله. أى : وجعلنا من الماء الذي أنزلناه بفتقنا السماء ، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض ، كل شيء حي.

ومنها : أن هذا المعنى جاء موضحا في آيات أخرى ، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ. وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ﴾ والمراد بالرجع : نزول المطر من السماء تارة بعد أخرى ، والمراد بالصدع : انشقاق الأرض عن النبات. واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية والفخر الرازي.

فإن قيل : هذا الوجه مرجوح ، لأن المطر لا ينزل من السموات ، بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا؟

قلنا : إنما أطلق عليه لفظ الجمع ، لأن كل قطعة فيها سماء كما يقال : ثوب أخلاق ـ أى : قطع [3].

والآية الكريمة مسوقة لتجهيل المشركين وتوبيخهم على كفرهم ، مع أنهم يشاهدون بأعينهم ما يدل دلالة واضحة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، ويعلمون أن من كان كذلك ،

(١ ، ٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٨٣.

(٣) راجع تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ٥٦٢ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى.

لا يصح أن تترك عبادته إلى عبادة حجر أو نحوه، مما لا يضر ولا ينفع.

والمعنى: أو لم يشاهد الذين كفروا بأبصارهم، ويعلموا بعقولهم، أن السموات والأرض كانتا رتقا، بحيث لا ينزل من السماء مطر، ولا يخرج من الأرض نبات، ففتق الله. تعالى. السماء بالمطر، والأرض بالنبات.

إنهم بلا شك يشاهدون ذلك، ويعقلونه بأفكارهم. ولكنهم لاستيلاء الجحود والعناد عليهم، يعبدون من دونه. سبحانه. مالا ينفع من عبده، ولا يضر من عصاه.

وقال. سبحانه.: ﴿كانَتا﴾ بالتثنية، باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء، ونوع الأرض، كما في قوله. عزّ وجلّ.: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا ..﴾.

وقوله. تعالى.: ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ..﴾ تأكيد لمضمون ما سبق، وتقرير لوحدانيته ونفاذ قدرته. سبحانه. والجعل بمعنى الخلق. و ﴿مِنَ﴾ ابتدائية.

أى: وخلقنا من الماء بقدرتنا النافذة، كل شيء متصف بالحياة الحقيقية وهو الحيوان، أو كل شيء نام فيدخل النبات، ويراد من الحياة ما يشمل النمو.

وهذا العام مخصوص بما سوى الملائكة والجن مما هو حي، لأن الملائكة. كما جاء في بعض الأخبار خلقوا من النور، والجن مخلوقون من النار.

قال. تعالى. ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ﴾.

قال القرطبي: وفي قوله. تعالى.: ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ﴾ ثلاث تأويلات: أحدها: أنه خلق كل شيء من الماء. قاله قتادة. الثاني: حفظ حياة كل شيء بالماء: الثالث: وجعلنا من ماء الصلب. أى: النطفة. كل شيء حي .. [1].

وقوله: ﴿أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكار لعدم إيمانهم مع وضوح كل ما يدعو إلى الإيمان الحق، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه هذا الإنكار.

أى: أيشاهدون بأعينهم ما يدل على وحدانية الله وقدرته. ومع ذلك لا يؤمنون؟

إن أمرهم هذا لمن أعجب العجب، وأغرب الغرائب!!.

ثم ساق. سبحانه. أدلة أخرى على وحدانيته وقدرته فقال: ﴿وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ..﴾.

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٨٤.

الرواسي : جمع راسية ، من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ ، والمراد بها الجبال الثابتة الراسخة في الأرض.

أى : وجعلنا في الأرض جبالا ثوابت ، كراهة أن ﴿تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أى : أن تضطرب وتتحرك بهم الأرض. يقال : ماد الشيء يميد ميدا . من باب باع إذا تحرك واهتز.

﴿وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ، والفجاج. جمع فج وهو الطريق الواسع. والسبل : جمع سبيل وهو الطريق. وهو بدل من ﴿فِجاجاً﴾.

أى : وجعلنا في الأرض طرقا واسعة ، ومنافذ متعددة ، لعلهم بذلك يهتدون ويتوصلون إلى الأماكن التي يريدون الوصول إليها. ويعلمون أن الذي وهبهم كل هذه النعم ، هو الله . تعالى . الذي يجب أن يخلصوا له العبادة والطاعة.

﴿وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ﴾ أى : وجعلنا السماء سقفا للأرض كما يكون السقف للبيت ، وجعلناه محفوظا من السقوط ومن التشقق ، ومن كل شيطان رجيم. وهم . أى المشركون . عن آياتها الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلمنا. معرضون ذاهلون ، لا يتعظون ولا يتذكرون.

ومن الآيات الدالة على حفظ السماء من السقوط ، قوله . تعالى . : ﴿... وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

ومن الآيات الدالة على حفظها من التشقق والتفطر قوله . سبحانه . : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ.﴾ (٢).

وعلى حفظها من الشياطين قوله . تعالى . : ﴿وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ﴾ (٣).

ومن الآيات الدالة على إعراض هؤلاء المشركين عن العبر والعظات قوله . سبحانه . : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾ (٤).

ثم ختم . سبحانه . هذه الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته بقوله . تعالى . ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

أى : وهو وحده . سبحانه . الذي خلق بقدرته الليل والنهار بهذا النظام البديع ، وخلق الشمس والقمر بهذا الإحكام العجيب «كل» أى : كل واحد من الشمس والقمر يسير في فلكه وطريقه المقدر له بسرعة وانتظام ، كالسابح في الماء.

---

(١) سورة الحج الآية ٦٥.

(٢) سورة ق الآية ٦.

(٣) سورة الحجر الآية ١٧.

(٤) سورة يوسف الآية ١٠٥.

وقوله : ﴿يَسْبَحُونَ﴾ من السبح وهو المر السريع في الماء أو الهواء.

وجاء يسبحون بضمير العقلاء. لكون السباحة المسندة إليهما من فعل العقلاء ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾.

هذا والمتأمل في هذه الآيات يراها قد ساقت جملة من الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وعلى كمال قدرته.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن مصير البشر جميعا إلى الفناء ، وأن كل نفس ذائقة الموت ، وأن من طبيعة الإنسان تعجل الأمور قبل أوانها ، وأن المشركين لو علموا المصير السيئ الذي ينتظرهم يوم القيامة ، لما قالوا ما قالوه من باطل ، ولما فعلوا ما فعلوه من قبائح ، قال ـ تعالى ـ :

﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾(٤١)

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ أى دوام البقاء في الدنيا.

نزلت حين قالوا : نتربص بمحمد ﷺ ريب المنون. وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوته ويقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ، ولعله يموت كما مات شاعر بنى فلان ، فقال الله ـ تعالى ـ : قد مات الأنبياء قبلك يا محمد ، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ، فهكذا نحفظ دينك وشرعك .. [1].

والاستفهام في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ﴾ للإنكار والنفي ..

والمعنى : وما جعلنا ـ أيها الرسول الكريم ـ لبشر من قبلك ـ كائنا من كان ـ الخلود في هذه الحياة ، وأنت إن مت فهم ـ أيضا ـ سيموتون في الوقت الذي حدده الله ـ تعالى ـ لانقضاء عمرك وأعمارهم ، وما دام الأمر كذلك فذرهم في جهالتهم يعمهون ، ولا تلتفت إلى شماتتهم فيك ، أو إلى تربصهم بك ، فإنك ميت وإنهم ميتون ، وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ، ورحم الله الإمام الشافعى حيث يقول :

تمنى أناس أن أموت. وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغى خلاف الذي مضى ... تهيأ لأخرى مثلها ، وكأن قد

وقال شاعر آخر :

إذا ما الدهر جر على أناس ... كلاكله أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

ثم أكد ـ سبحانه ـ عدم خلود بشر في هذه الحياة فقال : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

أى : كل نفس أوجدها الله ـ تعالى ـ في هذه الحياة ، ستذوق مرارة نزول الموت بها. ومفارقة روحها لجسدها.

قال الآلوسى ما ملخصه : والموت عند الأشعرى ، كيفية وجودية تضاد الحياة ، وعند كثيرين غيره : أنه عدم الحياة عما من شأنه الحياة بالفعل.

وقال بعضهم : المراد بالنفس هنا : النفس الإنسانية لأن الكلام مسوق لنفى خلود البشر.

واختير عمومها لتشمل نفوس البشر والجن وسائر نفوس الحيوان [2].

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٨٧.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٤٥.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ بيان لسنة من سننه ـ تعالى ـ في معاملة عباده.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَنَبْلُوكُمْ﴾ من البلو بمعنى الاختبار والامتحان. يقال : فلان بلاه الله بخير أو شر يبلوه بلوا ، وأبلاه وابتلاه ابتلاء ، بمعنى امتحنه [1].

وقوله : ﴿فِتْنَةً﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه.

أى : كل نفس ذائقة الموت ، ونختبركم في هذه الحياة بألوان من النعم وبألوان من المحن ، لنرى أتشكرون عند النعمة ، وتصبرون عند المحنة ، أم يكون حالكم ليس كذلك؟ وفي جميع الأحوال فإن مرجعكم إلينا لا محالة ، وسنجازيكم بما تستحقون من ثواب على شكركم وصبركم ، وسنجازى غير الشاكرين وغير الصابرين بما يستحقون من عقاب ، ولا يظلم ربك أحدا.

قال بعض العلماء : «والابتلاء بالشر مفهوم أمره ليتكشف مدى احتمال المبتلى ، ومدى صبره على الضر ، ومدى ثقته في ربه ، ورجائه في رحمته .. فأما الابتلاء بالخير فهو في حاجة إلى بيان.

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة. فكثيرون يصمدون أمام الابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير.

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف ، وقليلون هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة.

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان ، فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل. وقليلون هم الذين يصبرون على الثراء ومغرياته وما يثيره من أطماع.

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ، وقليلون هم الذين يصبرون على الدعة ، ولا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال.

إن الابتلاء بالشر قد يثير الكبرياء ، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب لاستقبال الشدة .. أما الرخاء فقد يرخى الأعصاب ويفقدها المقاومة .. إلا من عصم الله ، وصدق رسوله الله ﷺ حيث يقول : «عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» [2].

---

(١) المصباح المنير ص ٨٦.

(٢) في ظلال القرآن ج ١٧ ص ٥٣٣ للأستاذ سيد قطب رحمه الله.

وشبيه بهذه الآية قوله . تعالى . : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (١).

وقوله . سبحانه . : ﴿وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢).

ثم حكى . سبحانه . جانبا من السفاهات التي كان المشركون يقابلون بها النبي ﷺ فقال : ﴿وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾.

أى : وإذا أبصرك المشركون . أيها الرسول الكريم . سخروا منك ، واستخفوا بك وقالوا على سبيل التهوين من شأنك : ﴿أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أى : أهذا هو مدعى النبوة الذي يذكر آلهتكم بسوء ويعيبها ، وينفى شفاعتها لنا ، وأنها تقربنا إلى الله زلفى.

وقوله . سبحانه . : ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ﴾ في محل نصب حال من ضمير القول المقدر.

أى : أنهم يقولون فيما بينهم أهذا هو الرسول الذي يذكر آلهتكم بسوء ، والحال أن هؤلاء المشركين الجاهلين ، كافرون بالقرآن الذي أنزله الله . تعالى . عليك . أيها الرسول الكريم . لتخرج الناس به من الظلمات إلى النور.

فالآية الكريمة تنعى على هؤلاء المشركين جهالاتهم وسفاهاتهم ، حيث استكثروا على الرسول ﷺ أن يذم آلهتهم التي لا تنفع ولا تضر ولم يستكثروا على أنفسهم ، أن يكفروا بخالقهم وبذكره الذي أنزله على نبيه ﷺ ليكون رحمة لهم.

قال صاحب الكشاف : الذكر يكون بخير وبخلافه. فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد. كقولك للرجل : سمعت فلانا يذكرك ، فإن كان الذاكر صديقا فهو ثناء ، وإن كان عدوا فهو ذم ، ومنه قوله : ﴿أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾.

والمعنى : أنهم عاكفون على ذكر آلهتهم بهممهم ، وربما يجب أن لا تذكر به من كونهم شفعاء وشهداء. ويسوءهم أن يذكرها ذاكر بخلاف ذلك. وأما ذكر الله . تعالى . وما يجب أن يذكر به من الوحدانية ، فهم به كافرون لا يصدقون به أصلا ، فهم أحق بأن يتّخذوا هزوا منك ، فإنك محق وهم مبطلون .. فسبحان من أضلهم حتى تأدبوا مع الأوثان ، وأساءوا الأدب مع الرحمن» (٣).

---

(١) سورة الأنعام الآية ٤٢.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٦٨.

(٣) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١١٦.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما جبل عليه الإنسان من تسرع وتعجل فقال : ﴿خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ﴾.

والعجل : طلب الشيء وتحريه قبل أوانه ، وهو ضد البطء.

والمراد بالإنسان : جنسه.

والمعنى : خلق جنس الإنسان مجبولا على العجلة والتسرع فتراه يستعجل حدوث الأشياء قبل وقتها المحدد لها ، مع أن ذلك قد يؤدى إلى ضرره.

فالمراد من الآية الكريمة وصف الإنسان بالمبالغة في تعجل الأمور قبل وقتها ، حتى لكأنه مخلوق من نفس التعجل. والعرب تقول : فلان خلق من كذا ، يعنون بذلك المبالغة في اتصاف هذا الإنسان بما وصف به ، ومنه قولهم خلق فلان من كرم ، وخلقت فلانة من الجمال.

وقوله : ﴿سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ تهديد وزجر لأولئك الكافرين الذين كانوا يستعجلون العذاب.

أى : سأريكم عقابي وانتقامي منكم ـ أيها المشركون ـ فلا تتعجلوا ذلك فإنه آت لا ريب فيه.

قال ابن كثير : والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هنا : أنه ـ سبحانه ـ لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم. فقال ـ سبحانه ـ : ﴿خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ لأنه ـ تعالى ـ يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر ، ولهذا قال : ﴿سَأُرِيكُمْ آياتِي﴾ أى : نقمى واقتدارى على من عصاني ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (١).

وقال الآلوسى : «والنهى عن استعجالهم إياه ـ تعالى ـ مع أن نفوسهم جبلت على العجلة ، ليمنعوها عما تريده وليس هذا من التكليف بما لا يطاق. لأنه ـ سبحانه ـ أعطاهم من الأسباب ما يستطيعون به كف النفس عن مقتضاها ، ويرجع هذا النهى إلى الأمر بالصبر» (٢).

ثم أكد ـ سبحانه ـ ما يدل على تعجلهم لما فيه هلاكهم فقال : ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾.

أى : أن هؤلاء المشركين بلغ من طغيانهم وجهلهم أنهم كانوا يتعجلون العذاب الذي

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٣٦.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٤٩.

توعدهم الله . تعالى . به إذا ما استمروا على كفرهم. ويقولون للرسول ﷺ ولأصحابه . على سبيل التهكم والاستهزاء . متى يقع هذا العذاب الذي توعدتمونا به. إننا مترقبون له ، فإن كنتم صادقين في وعيدكم ، فأسرعوا في إنزاله. وأسرعوا في دعوة ربكم . سبحانه . أن يأتى بالساعة.

وجواب الشرط لقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ محذوف ، لدلالة ما قبله عليه. أى : إن كنتم صادقين في وعيدكم بأن هناك عذابا ينتظرنا ، فأتوا به بسرعة.

وهنا يسوق القرآن ما يدل على غفلتهم وسوء تفكيرهم ، وعلى أنهم لو كانوا يعلمون ما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة ، لما تفوهوا بما تفوهوا به . فيقول . سبحانه . ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ ، وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

وجواب «لو» محذوف. و «يعلم» بمعنى يعرف ، و «حين» مفعوله.

أى : لو عرف الكافرون وقت وقوع العذاب بهم. وما فيه من فظائع تجعلهم يعجزون عن دفع النار عن وجوههم وعن ظهورهم .. لو يعرفون ذلك لما استعجلوه. ولما استخفوا بالنبي ﷺ وبأصحابه ، لكن عدم معرفتهم هي التي جعلتهم يستعجلون ويستهزئون.

وخص . سبحانه . الوجوه والظهور بالذكر. لكونهما أظهر الجوانب ، ولبيان أن العذاب سيغشاهم من أمامهم ومن خلفهم دون أن يملكوا له دفعا.

وقال . سبحانه . ﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ لبيان أنهم مع عجزهم عن دفع العذاب بأنفسهم. فإن غيرهم . أيضا . لن يستطيع دفعه عنهم.

قال صاحب الكشاف : «جواب «لو» محذوف. و «حين» مفعول به ليعلم. أى : لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم : «متى هذا الوعد» وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام ، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم ، ولا يجدون ناصرا ينصرهم ؛ لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم به هو الذي هونه عندهم ، ويجوز أن يكون «يعلم» متروكا بلا تعدية ، بمعنى : لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين ، لما كانوا مستعجلين ، وحين : منصوب بمضمر ، أى حين «لا يكفون عن وجوههم النار» يعلمون أنهم كانوا على الباطل .. »[1].

وقوله . سبحانه . ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ .. بيان لسرعة قيام الساعة ، ومفاجأتها لهم. أى : بل تأتيهم الساعة الموعود بها ، وبعذابهم فيها ، مفاجأة من غير شعور بمجيئها

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١١٨.

«فتبهتهم» أى : فتدهشهم وتحيرهم ، والبهت : الانقطاع والحيرة.

«فلا يستطيعون ردها» أى : فلا يستطيعون دفع الساعة أوردها عنهم ﴿وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أى : ولا هم يمهلون لتوبة أو معذرة.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآيات الكريمة بتسلية النبي ﷺ عما أصابه من هؤلاء المشركين ، فقال : ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ، فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ. ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾.

أى : ولقد استهزئ ـ أيها الرسول الكريم ـ برسل كثيرين من قبلك ، فنزل بهؤلاء المشركين المستهزئين برسلهم ، العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا ، ويستعجلون رسلهم في نزوله.

وصدرت الآية الكريمة بلام القسم وقد ، لزيادة تحقيق مضمونها وتأكيده ، وتنوين الرسل : للتفخيم والتكثير ، أى : والله لقد استهزئ برسل كثيرين ذوى شأن خطير كائنين في زمان قبل زمانك.

وعبر ـ سبحانه ـ بالفعل حاق ، لأن هذه المادة تستعمل في إحاطة المكروه ، فلا يقال : فلان حاق به الخير ، ولأنها تدل على الشمول واللزوم.

أى : فنزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا نزولا شاملا ، أحاط بهم من كل جهة إحاطة تامة.

وبذلك تكون الآيات الكريمة ، قد بينت جانبا من سنن الله ـ تعالى ـ في خلقه ، وحكت بعض الأفعال القبيحة التي كان المشركون يفعلونها مع النبي ﷺ وهددتهم عليها تهديدا شديدا ، وسلّت النبي ﷺ عما ارتكبوه في حقه.

ثم أمر ـ سبحانه ـ رسوله ﷺ أن يذكّر هؤلاء الجاحدين بنعمه ـ تعالى ـ وأن ينذرهم بأسه وعقابه إذا ما استمروا في كفرهم ، فقال ـ عزّ وجلّ ـ :

﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ

أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾(٤٧)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿يَكْلَؤُكُمْ﴾ أى : يرعاكم ويحفظكم. يقال : فلان كلأ فلانا كلأ وكلاءة ـ بالكسر ـ إذا حرسه ، واكتلأ فلان من غيره ، إذا احترس منه.

والاستفهام للإنكار والتقريع.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المستهزئين بك وبما جئت به من عند ربك : قل لهم من الذي يحرسكم ويحفظكم «بالليل» وأنتم نائمون «والنهار» وأنتم متيقظون «من الرحمن» أى : من عذاب الرحمن وبأسه إذا أراد أن يهلككم بسبب عكوفكم على كفركم وشرككم.

وتقديم الليل على النهار ، لما أن الدواهي فيه أكثر ، والأخذ فيه أشد ، واختار ـ سبحانه ـ لفظ الرحمن ، للإشعار بأنهم يعيشون في خيره ورحمته. ومع ذلك لا يشكرونه ـ تعالى ـ على نعمه.

ولذا ـ أخبر ـ سبحانه ـ عنهم بقوله : ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أى : بل هم بعد كل هذا الإنكار عليهم ، والتنبيه لهم عن ذكر ربهم وكتابه الذي أنزله لهدايتهم ، معرضون شاردون ، لا يحاولون الانتفاع بتوجيهاته ، ولا يستمعون إلى إرشاداته.

فالجملة الكريمة تنفى عنهم الانتفاع بما يوجهه الرسول ﷺ إليهم من هدايات وعظات.

ثم وجه - سبحانه - إليهم سؤالا آخر فقال : ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا ..﴾؟.

و ﴿أَمْ﴾ هنا هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة ، فهي مشتملة على معنى الإضراب والإنكار.

والمعنى : وسلهم - أيها الرسول الكريم - مرة أخرى : ألهؤلاء الجاحدين آلهة أخرى تستطيع أن تحرسهم وترعاهم سوانا نحن؟ كلا لبس لهم ذلك.

فالجملة الكريمة إضراب عن وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم على جهالاتهم بسبب اعتمادهم على آلهة لا تنفع ولا تضر.

وقوله : ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ نفى على أبلغ وجه لأن تكون هناك آلهة ترعاهم سوى الله - تعالى - أى : كلا .. ليس لهم آلهة تمنعهم من عذابنا إن أردنا إنزاله بهم ، فإن هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن نصر غيرهم ، ولا هم منا يصحبون ، أى : يجارون ويمنعون من نزول الضر بهم.

قال ابن جرير : «وقوله ﴿يُصْحَبُونَ﴾ بمعنى يجارون ، تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان. بمعنى أجيرك وأمنعك منه. وهؤلاء إذا لم يصحبوا بالجوار ، ولم يكن لهم مانع من عذاب الله ، مع سخط الله عليهم ، فلم يصحبوا بخير ولن ينصروا [1]».

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة أخرى من نعم الله عليهم لم يحسنوا شكرها ، فقال - تعالى - : ﴿بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ..﴾.

أى : لا تلتفت - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء المشركين الذين أعرضوا عن ذكر ربهم ، والذين زعموا أن آلهتهم تضر أو تنفع ، فإننا قد كلأناهم برعايتنا بالليل والنهار ، ومتعناهم وآباءهم من قبلهم بالكثير من متع الحياة الدنيا ، حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة ، فحملهم ذلك على الطغيان والبطر والإصرار على الكفر. وسنأخذهم في الوقت الذي نريده أخذ عزيز مقتدر ، فإن ما أعطيناه لهم من نعم إنما هو على سبيل الاستدراج لهم.

ثم يلفت - سبحانه - أنظارهم إلى الواقع المشاهد في هذه الحياة فيقول : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ﴾.

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ٢٣.

وللعلماء في تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال منها : أن المراد بنقص الأرض من أطرافها : إهلاك المشركين السابقين الذين كذبوا رسلهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وهم يمرون على قرى بعض هؤلاء المكذبين ، ويرون آثارهم وقد دمرت ديارهم.

والمعنى : أفلا ينظر هؤلاء المشركون الذين كذبوك يا محمد ، فيرون بأعينهم ما حل بأمثالهم ممن كذبوا الرسل من قبلك. وكيف أننا طوينا الأرض بهم. وجعلناهم أثرا بعد عين.

والاستفهام في قوله : ﴿أَفَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ للإنكار.

أى : لم تكن الغلبة والعاقبة في يوم من الأيام لمن كذبوا رسل الله . تعالى . وإنما الغلبة والظفر وحسن العاقبة لمن آمن بالرسل وصدقهم واتبع ما جاءوا به من عند ربهم.

وقد أشار الإمام ابن كثير إلى هذا المعنى بقوله : «أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه ، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين. ولهذا قال : ﴿أَفَهُمُ الْغالِبُونَ﴾.

يعنى : بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون [1].

ومنها أن المراد بنقص الأرض من أطرافها : نقص أرض الكفر ودار الحرب ، وتسليط المسلمين عليها وانتزاعها من أيديهم بدليل الاستفهام الإنكارى في قوله ﴿أَفَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ أى : لا .. ليسوا هم الذين يغلبون جندنا ، وإنما جندنا هم الغالبون.

وقد صدر الآلوسى تفسيره لهذا القول فقال : «أفلا يرون أنا تأتى الأرض» أى : أرض الكفرة «ننقصها من أطرافها» بتسليط المسلمين عليها ، وحوز ما يحوزونه منها ، ونظمه في سلك ملكهم .. «أفهم الغالبون» على رسول الله ﷺ والمؤمنين.

والمراد إنكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص أرض الكفرة بتسليط المؤمنين عليها ، كأنه قيل : أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم ، وفي التعريف تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون فيها [2].

وقال صاحب الكشاف : «فإن قلت : أى فائدة في قوله ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ﴾؟.

قلت : فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدى المسلمين ، وأن عساكرهم وسراياهم كانت

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٣٨.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٥٣.

تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ، ناقصة من أطرافها [1].

وهذان الرأيان مع وجاهتهما ، إلا أن الرأى الأول الذي ذهب إليه ابن كثير أكثر شمولا ، لأنه يتناول ما أصاب المكذبين للرسل السابقين من عقاب كما يشمل التهديد للمكذبين المعاصرين للعهد النبوي ، بأنهم إذا استمروا في طغيانهم فسيحل بهم ما حل بمن سبقوهم.

وهناك من يرى أن المراد بنقص الأرض من أطرافها : موت العلماء ، أو خرابها عند موت أهلها ، أو نقص الأنفس والثمرات .. ولكن هذه الآراء ليس معها ما يرجحها.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يوجه إلى هؤلاء المشركين إنذارا حاسما ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ..﴾.

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إنى بعد أن بينت لكم ما بينت من هدايات وإرشادات أنذركم عن طريق الوحى الصادق ، بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، فلا تستعجلوا ذلك فكل آت قريب ، وسترون فيها ما ترون من أهوال وعذاب.

وقوله ﴿وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ﴾ توبيخ لهم وتجهيل.

أى : ولا يسمع الصم دعاء من يدعوهم إلى ما ينفعهم ، ولا يلتفتون إلى إنذار من ينذرهم وذلك لكمال جهلهم ، وشدة عنادهم ، وانطماس بصائرهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم عند ما ينزل بهم شيء من العذاب فقال : ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ﴾.

أى : ولئن أصاب هؤلاء المشركين شيء قليل من عذاب ربك يا محمد. ليقولن على سبيل التفجع والتحسر وإظهار الخضوع : يا ويلنا ـ أى يا هلاكنا ـ إنا كنا ظالمين ، ولذلك نزل بنا هذا العذاب ، وفي هذا التعبير ألوان من المبالغات منها : ذكر المس الذي يكفى في تحققه إيصال ما ، ومنها : ما في النفح من النزارة والقلة ، يقال : نفح فلان فلانا نفحة ، إذا أعطاه شيئا قليلا ومنها. البناء الدال على المرة والواحدة كما يفيد ذلك التعبير بالنفحة. أى : نفحة واحدة من عذاب ربك ، والمقصود من الآية الكريمة بيان سرعة تأثر هؤلاء المشركين ، بأقل شيء من العذاب الذي كانوا يستعجلونه ، وأنهم إذا ما نزل بهم شيء منه ، أصيبوا بالهلع والجزع ، وتنادوا بالويل والثبور والاعتراف بالظلم وتجاوز الحدود.

ثم بين ـ سبحانه ـ مظهرا من مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة فقال : ﴿وَنَضَعُ

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٢٠.

الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ..﴾.

أي : ونحضر الموازين العادلة لمحاسبة الناس على أعمالهم يوم القيامة ولإعطاء كل واحد منهم ما يستحقه من ثواب أو عقاب ، دون أن يظلم ربك أحدا من خلقه.

﴿وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾ أي : وإن كانت الأعمال التي عملها الإنسان في الدنيا في نهاية الحقارة والقلة ، أتينا بها في صحيفة عمله لتوزن ، وكفى بنا عادّين ومحصين على الناس أعمالهم ، إذ لا يخفى علينا شيء منها سواء أكان قليلا أم كثيرا.

قال ابن كثير : قوله : ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ﴾ الأكثر على أنه ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه (١).

وقال القرطبي : «الموازين : جمع ميزان ، فقيل : إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلف ميزانا توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات في كفة ، والسيئات في كفة. وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله .. وقيل : ذكر الميزان مثل وليس ثمّ ميزان وإنما هو العدل ، والذي وردت به الأخبار ، وعليه السواد الأعظم القول الأول. و» القسط «صفة الموازين ووحد لأنه مصدر .. (٢).

واللام في قوله ﴿لِيَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ قيل للتوقيت. أي للدلالة على الوقت ، كقولهم : جاء فلان لخمس ليال بقين من الشهر. وقيل هي لام كي ، أي : لأجل يوم القيامة ، أو بمعنى في أي : في يوم القيامة.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ بيان للعدل الإلهى ، وأنه ـ سبحانه ـ لا يظلم أحدا شيئا مما له أو عليه ، أي : فلا تظلم نفس شيئا من الظلم لا قليلا ولا كثيرا.

وقوله ﴿وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها﴾ تصوير لدقة الحساب ، وعدم مغادرته لشيء من أعمال الناس ، إذ الخردل حب في غاية الصغر والدقة. ومثقال الشيء : وزنه.

وأنث الضمير في قوله «بها» وهو راجع إلى المضاف الذي هو «مثقال» وهو مذكر. لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه الذي هو «حبة من خردل».

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾ بيان لإحاطة اللّه ـ تعالى ـ : بعلم كل شيء. كما قال ـ تعالى ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ (٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٣٩.

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٩٤.

(٣) سورة آل عمران الآية ٥.

وفي معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ اللَّه لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ، وإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ويُؤْتِ مِنْ لَدُنْه أَجْراً عَظِيماً﴾ [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّه إِنَّ اللَّه لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [2].

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أولئك المشركين بجانب من نعم اللَّه ـ تعالى ـ عليهم ، وحضهم على التدبر والاتعاظ ، وأنذرتهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا في كفرهم وشركهم ، وصورت لهم دقة الحساب يوم القيامة ، وأن كل إنسان سيحاسب على عمله سواء أكان صغيرا أم كبيرا ، ولا يظلم ربك أحدا.

وبعد أن فصل ـ سبحانه ـ الحديث عن دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، ورد على المشركين ردا يفحمهم ، أتبع ذلك بالحديث عن قصص بعض الأنبياء تسلية للرسول صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وتثبيتا لقلبه ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ولَقَدْ آتَيْنا مُوسى وهارُونَ الْفُرْقانَ وضِياءً وذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناه أَفَأَنْتُمْ لَه مُنْكِرُونَ﴾ (٥٠)

والمراد بالفرقان وبالضياء وبالذكر : التوراة ، فيكون الكلام من عطف الصفات. والمعنى : ولقد أعطينا موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ كتاب التوراة ليكون فارقا بين الحق والباطل ، وليكون ـ أيضا ـ ضياء يستضيء به أتباعه من ظلمات الكفر والضلالة ، وليكون ذكرا حسنا لهم ، وموعظة يتعظون بما اشتمل عليه من آداب وأحكام.

قال الآلوسي : «قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ولَقَدْ آتَيْنا مُوسى وهارُونَ الْفُرْقانَ وضِياءً وذِكْراً ..﴾.

نوع تفصيلي لما أجمل في قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿وما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾.

---

(١) سورة النساء الآية ٤٠.

(٢) سورة لقمان الآية ١٦.

وتصديره بالتوكيد القسمي لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه.

والمراد بالفرقان : التوراة ، وكذا بالضياء والذكر. والعطف كما في قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

وقيل : الفرقان هنا : النصر على الأعداء .. والضياء التوراة أو الشريعة. وعن الضحاك : أن الفرقان فرق البحر .. [١].

وخص المتقين بالذكر ، لأنهم هم الذين انتفعوا بما اشتمل عليه هذا الكتاب من هدايات.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ..﴾ صفة مدح للمتقين.

أي : آتينا موسى وهارون الكتاب الجامع لصفات الخير ليكون هداية للمتقين ، الذين من صفاتهم أنهم يخافون ربهم وهو غير مرئى لهم ، ويخشون عذابه في السر والعلانية ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي : وهم من الساعة وما يقع فيها من حساب دقيق خائفون وجلون وليسوا كأولئك الكافرين الجاحدين الذين يستعجلون حدوثها.

وخصت الساعة بالذكر مع أنها داخلة في الإيمان بالغيب ، للعناية بشأنها حيث إنها من أعظم المخلوقات ، وللردّ على من أنكرها واستعجل قيامها.

واسم الإشارة في قوله : ﴿وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ﴾ للقرآن الكريم ، أي : وهذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم هو ذكر وشرف لكم ، وهو كذلك كثير الخيرات والبركات لمن اتبع توجيهاته.

والاستفهام في قوله : ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ للتوبيخ والإنكار ، والخطاب للمشركين.

أي : كيف تنكرون كونه من عند اللّه مع أنكم بمقتضى فصاحتكم تدركون من بلاغته ، ما لا يدركه غيركم ، ومع أنكم تعترفون بنزول التوراة على موسى وهارون.

إن إنكاركم لكون القرآن من عند اللّه ، لهو دليل واضح على جحودكم للحق بعد أن تبين لكم.

قال الجمل : وتقديم الجار والمجرور على المتعلق ، دل على التخصيص ، أي : أفأنتم للقرآن خاصة دون كتاب اليهود تنكرون؟ فإنهم كانوا يراجعون اليهود فيما عنّ لهم من المشكلات [٢].

ثم تسوق السورة بعد ذلك بشيء من التفصيل قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه ،

---

(١) تفسير الآلوسي ج ١٧ ص ٥٧.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٣٢.

وما دار بينه وبينهم من محاورات ومحاولات فتقول :

وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ (٥١) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (٥٢) قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (٥٣) قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٥٤) قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)

وقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه ، قد وردت في سور متعددة منها : سورة البقرة ، والعنكبوت ، والصافات.

وهنا تحدثنا سورة الأنبياء عن جانب من قوة إيمانه ـ عليه السلام ـ ومن سلامة حجته ومن تصميمه على تنفيذ ما يرضى اللّه ـ تعالى ـ بالقول والعمل.

والمراد بالرشد : الهداية إلى الحق والبعد عن ارتكاب ما نهى اللّه ـ تعالى ـ عنه.

والمراد بقوله ـ تعالى ـ * (مِنْ قَبْلُ) * أي : من قبل أن يكون نبيا.

والمعنى : ولقد آتينا ـ بفضلنا وإحساننا ـ إبراهيم ـ عليه السلام ـ الرشد إلى الحق ، والهداية إلى الطريق المستقيم ، «من قبل» أي : من قبل النبوة بأن جنبناه ما كان عليه قومه من كفر وضلال.

وقد اكتفى الإمام ابن كثير بهذا المعنى في قوله ـ تعالى ـ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فقال : يخبر ـ تعالى ـ عن خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، أنه آتاه رشده من قبل.

أي : من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا

آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ ..﴾ [1].

ومن المفسرين من يرى أن المقصود بقوله ـ تعالى ـ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي : من قبل موسى وهارون ، فقد كان الحديث عنهما قبل ذلك بقليل في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ ...﴾.

فيكون المعنى : ولقد آتينا إبراهيم رشده وهداه ، ووفقناه للنظر والاستدلال على الحق ، من قبل موسى وهارون ، لأنه يسبقهما في الزمان.

وقد رجح هذا المعنى الإمام الآلوسي فقال : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ﴾.

أي : الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو الرشد الكامل ، أعنى : الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا .. «من قبل» أي : من قبل موسى وهارون ، وقيل : من قبل البلوغ ... والأول مروى عن ابن عباس وابن عمر ، وهو الوجه الأوفق لفظا ومعنى ، أما لفظا فللقرب ، وأما معنى فلأن ذكر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ للتأسى ، وكان القياس أن يذكر نوح ثم إبراهيم ثم موسى ، لكن روعي في ذلك ترشيح التسلي والتأسي ، فقد ذكر موسى ، لأن حاله وما قاساه من قومه .. أشبه بحال نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم [2].

ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع للمعنيين. أي : أن اللّه ـ تعالى ـ قد أعطى إبراهيم رشده ، من قبل النبوة ، ومن قبل موسى وهارون لسبقه لهما في الزمان.

وقوله : ﴿وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ﴾ بيان لكمال علم اللّه ـ تعالى ـ أي : وكنا به وبأحواله وبسائر شؤونه عالمين ، بحيث لا يخفى علينا شيء من أحواله أو من أحوال غيره.

وقوله : ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ﴾ بيان لما جابه به إبراهيم أباه وقومه من قول سديد يدل على شجاعته ورشده.

أي : وكنا به عالمين. وقت أن قال لأبيه وقومه على سبيل الإرشاد والتنبيه : ما هذه التماثيل الباطلة التي أقبلتم عليها ، وصرتم ملازمين لعبادتها بدون انقطاع.

وسؤاله ـ عليه السلام ـ لهم بما التي هي لبيان الحقيقة ، من باب تجاهل العارف ، لأنه يعلم أن هذه الأصنام مصنوعة من الأحجار أو ما يشبهها ، وإنما أراد بسؤاله تنبيههم إلى فساد فعلهم. حيث عبدوا ما يصنعونه بأيديهم.

وعبر عن الأصنام بالتماثيل ، زيادة في التحقير من أمرها ، والتوهين من شأنها ، فإن

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٤١.

(٢) تفسير الآلوسي ج ١٧ ص ٥٨.

التمثال هو الشيء المصنوع من الأحجار أو الحديد أو نحو ذلك ، على هيئة مخلوق من مخلوقات اللَّه ـ تعالى ـ كالإنسان والحيوان ، يقال : مثلت الشيء بالشيء إذا شبهته به.

فهو ـ عليه السلام ـ سماها باسمها الحقيقي الذي تستحقه ، دون أن يجاريهم في تسميتها آلهة.

وقوله : ﴿عاكِفُونَ﴾ من العكوف بمعنى المداومة والملازمة. يقال : عكف فلان على الشيء إذا لازمه وواظب عليه ، ومنه الاعتكاف لأنه حبس النفس عن التصرفات العادية.

وفي التعبير عن عبادتهم لها بالعكوف عليها ، تفظيع لفعلهم وتنفير لهم منه ، حيث انكبوا على تعظيم من لا يستحق التعظيم ، وتعلقوا بعبادة تماثيل هم صنعوها بأيديهم.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ﴾ حكاية لما قالوه في ردهم على إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو رد يدل على تحجر عقولهم ، وانطماس بصائرهم حيث قلدوا فعل آبائهم بدون تدبر أو تفكر.

أي : قالوا في جوابهم على إبراهيم ـ عليه السلام ـ وجدنا آباءنا يعبدون هذه التماثيل فسرنا على طريقتهم.

وهنا يرد عليهم إبراهيم بقوله : ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

أي : لقد كنتم أنتم وآباؤكم الذين وجدتموهم يعبدون هذه الأصنام ، في ضلال عجيب لا يقادر قدره ، وفي فساد ظاهر واضح لا يخفى أمره على عاقل ، لأن كل عاقل يعلم أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة أو التقديس أو العكوف عليها ، والباطل لا يصير حقا بفعل الآباء له.

وعند ما واجههم إبراهيم ـ عليه السلام ـ بهذا الحكم البين الصريح ، قالوا له : ﴿أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾.

أي : أجئتنا يا إبراهيم بالحق الذي يجب علينا اتباعه ، أم أنت من اللاعبين اللاهين الذين يقولون ما يقولون بقصد الهزل والملاعبة.

وسؤالهم هذا يدل على تزعزع عقيدتهم. وشكهم فيما هم عليه من باطل ، إلا أن التقليد لآبائهم. جعلهم يعطلون عقولهم «ويستحبون العمى على الهدى».

ويجوز أن يكون سؤالهم هذا من باب الإنكار عليه. واستبعاد أن يكون آباؤهم على باطل ، وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : «بقوا متعجبين من تضليله إياهم ، وحسبوا أن ما قاله ، إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة ، لا على طريق الجد ، فقالوا له : هذا الذي جئتنا

به ، أهو جد وحق أم لعب وهزل [1].

وقد رد عليهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ ردا حاسما يدل على قوة يقينه فقال : ﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ والأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ..﴾.

أي : قال لهم إبراهيم بلغة الواثق بأنه على الحق : أنا لست هازلا فيما أقوله لكم ، وإنما أنا جاد كل الجد في إخباركم أن اللّه ـ تعالى ـ وحده هو ربكم ورب آبائكم ، ورب السماوات والأرض ، فهو الذي خلقهن وأنشأهن بما فيهن من مخلوقات بقدرته التي لا يعجزها شيء.

وقوله : ﴿وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ تذييل المقصود به تأكيد ما أخبرهم به ، وما دعاهم إليه. أي : وأنا على أن اللّه ـ تعالى ـ هو ربكم ورب كل شيء من الشاهدين ، الذين يثقون في صدق ما يقولون ثقة الشاهد على شيء لا يشك في صحته.

ثم أضاف إلى هذا التأكيد القولي ، تأكيدا آخر فعليا ، فقال لهم : ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾.

أي : وحق الله الذي فطركم وفطر كل شيء ، لأجتهدن في تحطيم أصنامكم ، بعد أن تنصرفوا بعيدا عنها. وتولوها أدباركم.

وأصل الكيد : الاحتيال في إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه. وقد عبر به إبراهيم عن تكسير الأصنام وتحطيمها ، لأن ذلك يحتاج إلى احتيال وحسن تدبير.

وقد نفذ إبراهيم ما توعد به الأصنام ، فقد انتهز فرصة ذهاب قومه بعيدا عنها فحطمها ، قال تعالى ـ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

والفاء في قوله : «فجعلهم» فصيحة. والجذاذ القطع الصغيرة جمع جذاذة من الجذ بمعنى القطع والكسر.

أي : فولوا مدبرين عن الأصنام فجعلها بفأسه قطعا صغيرة ، بأن حطمها عن آخرها ـ سوى الصنم الأكبر لم يحطمه بل تركه من غير تكسير. لعلهم إليه يرجعون فيسألونه كيف وقعت هذه الواقعة وهو حاضر ، ولم يستطع الدفاع عن إخوته الصغار؟!!.

ولعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد فعل ذلك ليقيم لهم أوضح الأدلة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة ، لأنها لم تستطع الدفاع عن نفسها ، وليحملهم على التفكير في أن الذي يجب أن يكون معبودا ، إنما هو اللّه الخالق لكل شيء ، والقادر على كل شيء.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٢٢.

قال الآلوسي ما ملخصه : وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ لبيان وجه الكسر واستبقاء الكبير ، وضمير «إليه» عائد إلى إبراهيم ، أي : لعلهم يرجعون إلى إبراهيم ، فيحاجهم ويبكتهم.

وعن الكلبي : أن الضمير للكبير ، أي : لعلهم يرجعون إلى الكبير ، كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات فيقولون له : ما لهؤلاء مكسورة ، وما لك صحيحا ، والفأس في عنقك أو في يدك؟ وحينئذ يتبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ، ويظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم .. »[1].

وعاد القوم إلى أصنامهم بعد تركهم إياها لفترة من الوقت ، فوجدوها قد تحطمت إلا ذلك الكبير ، فأصابهم ما أصابهم من الذهول والعجب ، ويصور القرآن الكريم ذلك فيقول :

قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّه لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَه إِبْراهِيمُ (٦٠) قالُوا فَأْتُوا بِه عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (٦٢) قالَ بَلْ فَعَلَه كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥)

أي : وحين رجع القوم من عيدهم ورأوا ما حل بأصنامهم «قالوا» على سبيل التفجع والإنكار : «من فعل هذا» الفعل الشنيع «بآلهتنا» التي نعظمها «إنه» أي هذا الفاعل «لمن الظالمين» لهذه الآلهة. لإقدامه على إهانتها وهي الجديرة بالتعظيم . في زعمهم . ، ولمن الظالمين لنفسه حيث سيعرضها للعقوبة منا.

---

(١) تفسير الآلوسي ج ١٧ ص ٦٢.

﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم وهم الذين سمعوا من إبراهيم قوله: «وتاللَّه لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين». ﴿سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَه إِبْراهِيمُ﴾ والمراد بالذكر هنا: الذكر بالسوء والذم.

أي: سمعنا فتى يذكرهم بالنقص والذم والتهديد بالكيد، وهذا الفتى يقال له إبراهيم، ولعله هو الذي فعل بهم ما فعل.

وهنا تشاوروا فيما بينهم وقالوا. إذا كان الأمر كذلك: ﴿فَأْتُوا بِه﴾ وأحضروه ﴿عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي: أمام أعينهم ليتمكنوا من رؤيته على أتم وجه ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ مساءلتنا له، ومواجهتنا إياه بالعقوبة التي يستحقها على فعله هذا، أو يشهدون عليه بأنه هو الذي حطم الأصنام.

قال ابن كثير: وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم، أن يتبين في هذا المحفل العظيم، كثرة جهلهم، وقلة عقلهم، في عبادة هذه الأصنام، التي لا تدفع عن نفسها ضرا، ولا تملك لها نصرا..» (١).

وجاؤا بإبراهيم - عليه السلام - وقالوا له على سبيل الاستنكار والتهديد: «أأنت فعلت هذا» التكسير والتحطيم «بآلهتنا» التي نعبدها «يا إبراهيم»؟

وهنا يرد عليهم إبراهيم - عليه السلام - بتهكم ظاهر، واستهزاء واضح فيقول: ﴿بَلْ فَعَلَه كَبِيرُهُمْ هذا﴾ يعني الذي تركه بدون تحطيم، فإن كنتم لم تصدقوا قولي ﴿فَسْئَلُوهُمْ﴾ عمن فعل بهم ذلك ﴿إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أي: إن كانوا ممن يتمكن من النطق أجابوكم وأخبروكم عمن فعل بهم ما فعل.

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - لم يقصد بقوله هذا الإخبار بأن كبير الأصنام هو الذي حطمها، أو سؤالهم للأصنام عمن حطمها، وإنما الذي يقصده هو الاستهزاء بهم، والسخرية بأفكارهم، فكأنه يقول لهم: إن هذه التماثيل التي تعبدونها من دون اللَّه. لا تدرى إن كنت أنا الذي حطمتها أم هذا الصنم الكبير، وأنتم تعرفون أنى قد بقيت قريبا منها بعد أن وليتم عنها مدبرين، وإذا كان الأمر كذلك فانظروا من الذي حطمها إن كانت لكم عقول تعقل؟

قال صاحب الكشاف: هذا - أي قول إبراهيم لهم: بل فعله كبيرهم هذا - من معاريض الكلام، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الخاصة من علماء المعاني.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٤٣.

والقول فيه أن قصد إبراهيم . عليه السلام . لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها على أسلوب تعريضي ، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم.

وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتابا بخط رشيق . وأنت شهير بحسن الخط . : أأنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط ، ولا يقدر إلا على خربشة فاسدة . أي كتابة رديئة . فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب ، تقرير أن هذه الكتابة لك. مع الاستهزاء به .. [1].

وهذا التفسير للآية الكريمة من أن إبراهيم . عليه السلام . قد قال لقومه ما قال على سبيل الاستهزاء بهم ، هو الذي تطمئن إليه قلوبنا ، وقد تركنا أقوالا أخرى للمفسرين في معنى الآية ، نظرا لضعف هذه الأقوال بالنسبة لهذا القول.

وقوله . سبحانه . : ﴿فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بيان للأثر الذي أحدثه رد إبراهيم . عليه السلام ..

أي : أنهم بعد أن قال لهم إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ ، أخذوا في التفكر والتدبر ، فرجعوا إلى أنفسهم باللوم ، وقال بعضهم لبعض إنكم أنتم الظالمون ، حيث عبدتم مالا يستطيع الدفاع عن نفسه أو حيث تركتم آلهتكم بدون حراسة.

ولكن هذا الأثر ، وهذا اللوم لأنفسهم ، لم يلبث إلا قليلا حتى تبدد ، بسبب استيلاء العناد والجحود عليهم ، فقد صور القرآن حالهم بعد ذلك فقال : ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾.

وقوله : ﴿نُكِسُوا﴾ فعل مبنى للمجهول من النكس ، وهو قلب الشيء من حال إلى حال ، وأصله : قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفله.

أي : ثم انقلبوا من لومهم لأنفسهم لعبادتهم لما لا يقدر على دفع الأذى عنه ، إلى التصميم على كفرهم وضلالهم ، فقالوا لإبراهيم على سبيل التهديد : لقد علمت أن هذه الأصنام لا تنطق ، فكيف تأمرنا بسؤالها؟ إن أمرك هذا لنا لهو دليل على أنك تسخر بعقولنا ، ونحن لن نقبل ذلك ، وسننزل بك العقاب الذي تستحقه.

وقد شبه القرآن الكريم عودتهم إلى باطلهم وعنادهم ، بعد رجوعهم إلى أنفسهم باللوم ، شبه ذلك بالانتكاس ، لأنهم بمجرد أي خطرت لهم الفكرة السليمة ، أطفأوها بالتصميم على

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٢٤.

الكفر والضلال ، فكان مثلهم كمثل من انتكس على رأسه بعد أن كان ما شيا على قدميه ، فيا له من تصوير بديع لحالة من يعود إلى الظلام ، بعد أن يتبين له النور.

والجملة الكريمة ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾ جواب لقسم محذوف ، معمول لقول محذوف ، والتقدير : ثم نكسوا على رؤسهم قائلين : واللّه لقد علمت ما هؤلاء ينطقون.

ولم يملك إبراهيم إزاء انتكاسهم على رؤسهم ، إلا أن يوبخهم بعنف وضيق ، . وهو الحليم الأواه المنيب . وقد قابلوا تأنيبه لهم بتوعده بالعذاب الشديد ، ولكن اللّه . تعالى . نجاه من مكرهم ، قال . تعالى . :

قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً ولا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ ولِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قالُوا حَرِّقُوه وانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٦٨) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (٦٩) وأَرادُوا بِه كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) ونَجَّيْناه ولُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ (٧١) ووَهَبْنا لَه إِسْحاقَ ويَعْقُوبَ نافِلَةً وكُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (٧٢) وجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وإِقامَ الصَّلاةِ وإِيتاءَ الزَّكاةِ وكانُوا لَنا عابِدِينَ (٧٣)

أي : قال إبراهيم لقومه بعد أن ضاق بهم ذرعا : أتتركون عبادة اللّه الذي خلقكم ، وتعبدون غيره أصناما لا تنفعكم بشيء من النفع ، ولا تضركم بشيء من الضر ، ثم يضيف إلى

هذا التبكيت لهم ، الضجر منهم ، فيقول : ﴿أُفٍّ لَكُمْ ولِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّه أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

و «أف» اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر. وأصله صوت المتضجر من استقذار الشيء. واللام في قوله ﴿لَكُمْ﴾ لبيان المتضجر لأجله.

أي : سحقا وقبحا لكم ، ولما تعبدونه من أصنام متجاوزين بها عبادة اللَّه . تعالى . عن جهل وسخف وطغيان.

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ ما أنتم فيه من ضلال واضح ، فترجعون عنه إلى عبادة الواحد القهار.

وعند ما وصل إبراهيم في توبيخهم وتبكيتهم إلى هذا الحد أخذتهم العزة بالإثم ، شأنهم في ذلك شأن كل طاغية جهول ، يلجأ إلى القوة الغاشمة بعد أن تبطل حجته ، فقالوا فيما بينهم : ﴿حَرِّقُوه وانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾.

أي : قال بعضهم لبعض بعد أن عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة ، وبعد أن رأوا إبراهيم قد أفحمهم بمنطقه الحكيم : ﴿حَرِّقُوه﴾ أي : بالنار ، فإنها أشد العقوبات.

قيل : إن الذي اقترح عليهم ذلك هو رئيسهم : نمرود بن كنعان. وقيل : هو رجل من الفرس اسمه : هينون.

وقوله : ﴿وانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ ..﴾ بيان لسبب تحريقه بالنار.

أي : حرقوه بالنار من أجل الانتصار لآلهتكم التي حطمها في غيبتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾.

أي : إن كنتم بحق تريدون أن تنصروا آلهتكم نصرا يرضيها ، فأحرقوه بالنار.

قال صاحب الكشاف : أجمعوا رأيهم . لما غلبوا . بإهلاكه ، وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح. لم يكن أحد أبغض إليه من المحق ولم يبق له مفزع إلا مناصبته العداء ، كما فعلت قريش برسول اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم حين عجزوا عن المعارضة.

والذي أشار بإحراقه : نمروذ. وعن ابن عمر : رجل من أعراب العجم. واختاروا المعاقبة بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه ، ولذلك جاء : «لا يعذب بالنار إلا خالقها» [(١)].

وقوله تعالى : ﴿قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ ..﴾ مسبوق بكلام محذوف يفهم من سياق القصة.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٢٦.

والتقدير : وأحضر قوم إبراهيم الحطب ، وأضرموا نيرانا عظيمة ، وألقوا بإبراهيم فيها ، فلما فعلوا ذلك ، قلنا : يا نار كوني ـ بقدرتنا وأمرنا ـ ذات برد ، وذات سلام على إبراهيم ، فكانت كما أمرها الله ـ تعالى ـ ، وصدق ـ سبحانه ـ إذ يقول : ﴿بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١).

وتحولت النار إلى برد وسلام على إبراهيم ، وأراد الكافرون به كيدا ، أى إحراقا بالنار «فجعلناهم» بإرادتنا وقدرتنا «الأخسرين» حيث لم يصلوا إلى ما يريدون ، ولم يحققوا النصر لآلهتهم ، بل رد الله ـ تعالى ـ كيدهم في نحورهم.

وقال ـ سبحانه ـ ﴿فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ بالإطلاق لتشمل خسارتهم كل خسارة سواء أكانت دنيوية أم أخروية.

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات آثارا منها : أن إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ حين جيء به إلى النار ، قالت الملائكة : يا ربنا ما في الأرض أحد يعبدك سوى إبراهيم ، وأنه الآن يحرق فأذن لنا في نصرته!!

فقال ـ سبحانه ـ : إن استغاث بأحد منكم فلينصره. وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به ، وأنا وليه ، فخلوا بيني وبينه ، فهو خليلي ليس لي خليل غيره.

فأتى جبريل ـ عليه‌السلام ـ إلى إبراهيم ، فقال له : ألك حاجة؟ فقال إبراهيم : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فنعم!!

فقال له جبريل : فلم لا تسأله؟ فقال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ : حسبي من سؤالى علمه بحالي .. (٢).

ثم بين ـ سبحانه ـ نعما أخرى أنعم بها على إبراهيم فقال : ﴿وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ﴾.

والضمير في قوله : ﴿وَنَجَّيْناهُ﴾ يعود إلى إبراهيم. و «لوطا» هو ابن أخيه ، وقيل : ابن عمه.

والمراد بالأرض التي باركنا فيها : أرض الشام على الصحيح وعدّى ﴿نَجَّيْناهُ﴾ بإلى ، لتضمينه معنى أخرجناه.

أى : وأخرجناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها ، بأن جعلناها مهبطا للوحى ، ومبعثا

---

(١) سورة البقرة الآية ١١٧.

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٦٨.

للرسل لمدة طويلة ، وبأن جعلناها كذلك عامرة بالخيرات وبالأموال وبالثمرات للأجيال المتعاقبة.

والآية الكريمة تشير إلى هجرة إبراهيم ومعه لوط ـ عليهما السلام ـ من أرض العراق التي كانا يقيمان فيها ، إلى أرض الشام ، فرارا بدينهما. بعد أن أراد قوم إبراهيم أن يحرقوه بالنار ، فأبطل الله ـ تعالى ـ كيدهم ومكرهم ، ونجاه من شرهم.

وقد أشار ـ سبحانه ـ إلى ذلك في آيات أخرى منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ..﴾ [1].

وقوله ـ تعالى ـ ﴿وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً ..﴾ بيان لنعمة أخرى من النعم التي أنعم الله ـ سبحانه ـ بها على إبراهيم.

والنافلة : الزيادة على الأصل. ولذا سميت صلاة السنن نافلة ، لأنها زيادة على الصلوات المفروضة. وإسحاق هو ابن إبراهيم. ويعقوب هو ابن إسحاق.

فلفظ «نافلة» حال من يعقوب أى : ووهبنا لإبراهيم يعقوب حال كونه زيادة على إسحاق. ﴿وَكُلًّا﴾ من المذكورين وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب.

﴿جَعَلْنا صالِحِينَ﴾ أى : جعلناهم أفرادا صالحين ، بأن وفقناهم لما نحبه ونرضاه ، وشرفناهم بالنبوة والرسالة.

﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ أى : وجعلنا هؤلاء المذكورين ، أئمة في الخير ، يهدون ويرشدون غيرهم إلى الدين الحق بسبب أمرنا لهم بذلك ، وتكليفهم بتبليغ وحينا إلى الناس.

قال صاحب الكشاف : قوله ـ سبحانه ـ : ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله ، فالهداية محتومة عليه ، مأمور بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ، ويتثاقل عنها ، وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل» [2].

وقوله : ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ﴾ أى : وأوحينا إليهم أن يفعلوا الطاعات ، وأن يأمروا الناس بفعلها ، وأوحينا إليهم كذلك ﴿إِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ﴾ أى : أن يقيموا الصلاة وأن يؤدوا الزكاة وأن يأمروا غيرهم بذلك.

وعطف إقام الصلاة وإيتاء الزكاة على فعل الخيرات من باب عطف الخاص على العام.

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٢٦.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٢٧.

للاهتمام به إذ الصلاة أفضل العبادات البدنية والزكاة أفضل العبادات المالية ﴿وَكانُوا لَنا عابِدِينَ﴾ لا لغيرنا ، فهم لم يخطر ببالهم عبادة أحد سوانا ، لأنهم من المصطفين الأخيار.

هذا ، والمتأمل في هذه الآيات الكريمة التي وردت في قصة إبراهيم مع قومه. يراها قد حكت لنا غيرة إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ على دين الله ـ تعالى ـ وقوة حجته في الدفاع عن الحق ، ومجاهدته بما يعتقده بدون خوف من قومه ، وجمعه في دعوته بين القول والعمل.

كما يراها قد بينت لنا أن من يدافع عن دين الله ـ تعالى ـ يدافع الله ـ سبحانه ـ عنه ، وينصره على أعدائه ، ويرد كيدهم في نحورهم.

كما يراها ـ أيضا ـ قد أشارت إلى أن من هاجر من أرض إلى أخرى من أجل إعلاء كلمة الله ـ تعالى ـ رزقه الله نظير ذلك الخير والبركة ، والذرية الصالحة التي تهدى غيرها إلى الطريق المستقيم.

ثم ساق ـ سبحانه ـ جانبا من قصة لوط ـ عليه‌السلام ـ مع قومه فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٧٥)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلُوطاً﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره المذكور بعده وهو ﴿آتَيْناهُ﴾.

أى : وآتيناه لوطا ـ عليه‌السلام ـ ﴿حُكْماً﴾ أى : نبوة ، أو حكمة تهديه إلى ما يجب فعله أو تركه و «علما» أى : علما كثيرا لما ينبغي علمه وفهمه.

﴿وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ﴾ والمراد بالقرية : قرية سدوم التي أرسل الله ـ تعالى ـ لوطا لأهلها.

والأعمال الخبيثة التي كانوا يعملونها على رأسها الإشراك بالله ـ تعالى ـ وفاحشة اللواط التي اشتهروا بها دون أن يسبقهم إليها أحد. كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ* أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ ، وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ (١) وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ (٢) الْمُنْكَرَ ، فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللهِ إِنْ

(١) السبيل : الطريق.

(٢) ناديكم : مجالسكم.

﴿كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ..﴾ (١).

أى : ونجينا لوطا بفضلنا ورحمتنا من العذاب الذي حل بأهل قريته الذين كانوا يعملون الأعمال الخبائث ، كالشرك بالله ـ تعالى ـ واللواط ، وقطعهم الطريق ، وارتكابهم المنكر في مجالسهم.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ﴾ تعليل لنجاة لوط ـ عليه‌السلام ـ مما حل بهم.

أى : جعلنا هذه القرية عاليها سافلها ، ونجينا لوطا ومن آمن معه من العذاب الذي حل بسكانها ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ أى : أصحاب عمل سيئ ﴿فاسِقِينَ﴾ أى : خارجين عن طاعتنا.

﴿وَأَدْخَلْناهُ﴾ أى : لوطا ﴿فِي رَحْمَتِنا﴾ أى : في أهل رحمتنا في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى.

ثم ذكرت السورة الكريمة جانبا من قصة نوح مع قومه. قال ـ تعالى ـ ..

﴿وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٧٧)

أى : واذكر ـ أيضا ـ أيها المخاطب عبدنا «نوحا» ـ عليه‌السلام ـ ﴿إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ﴾ أى : حين نادانا واستجار بنا من قبل زمان إبراهيم ومن جاء بعده من الأنبياء.

وهذا النداء الذي نادى به نوح ربه ، قد جاء ذكره في آيات منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ* وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٢).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً﴾ (٣).

﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ﴾ أى : أجبنا له دعاءه ، ولم نخيب له رجاء فينا.

---

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٢٨ ، ٢٩.

(٢) سورة الصافات الآيتان ٧٥ ـ ٧٦.

(٣) سورة نوح الآية ٢٦.

﴿فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ﴾ الذين آمنوا به وصدقوه ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أى : من الطوفان العظيم الذي أغرق الكافرين ، والذي كانت أمواجه كالجبال.

وأصل الكرب : الغم الشديد. يقال : فلان كربه هذا الأمر ، إذا ضايقه وجعله في أقصى درجات الهم والخوف.

قال الآلوسى : «وكأنه على ما قيل من كرب الأرض ، وهو قلبها بالحفر. إذ الغم يثير النفس إثارة ذلك ، أو من كربت الشمس إذا دنت للمغيب ، فإن الغم الشديد ، تكاد شمس الروح تغرب منه .. وفي وصفه بالعظيم تأكيد لشدته» [1].

﴿وَنَصَرْناهُ﴾ بفضلنا وإحساننا ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا. وعلى أن نوحا رسولا من رسلنا.

والمراد بهؤلاء القوم : قومه الذين لبث نوح فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما. يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله. فلم يؤمن به إلا قليل منهم.

﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ أى : إنهم كانوا قوما يعملون أعمال السوء والقبح ﴿فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بسبب إصرارهم على الكفر والعصيان ، ولم ننج منهم إلا من اتبع نوحا عليه‌السلام.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من قصة نبيين كريمين هما داود وسليمان فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٧٣.

إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ﴾(٨٢)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَداوُدَ﴾ منصوب ـ أيضا ـ بفعل مقدر ، أو معطوف على قوله سبحانه ـ قبل ذلك : ﴿وَنُوحاً إِذْ نادى﴾.

وسليمان هو ابن داود ، وكلاهما من أنبياء الله ـ سبحانه ـ ، وينتهى نسبهما إلى يعقوب ـ عليه‌السلام ـ وكانت وفاتهما قبل ميلاد المسيح ـ عليه‌السلام ـ بألف سنة تقريبا ، وقد جمع الله ـ تعالى ـ لهما بين الملك والنبوة.

والحرث : الزرع. قيل : كان كرما ـ أى عنبا ـ تدلت عناقيده.

وقوله : ﴿نَفَشَتْ﴾ من النفش وهو الرعي بالليل خاصة. يقال : نفشت الغنم والإبل ، إذا رعت ليلا بدون راع.

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات روايات ملخصها : أن رجلين دخلا على داود ـ عليه‌السلام ـ أحدهما صاحب زرع ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الزرع لداود : يا نبي الله ، إن غنم هذا قد نفشت في حرثى فلم تبق منه شيئا ، فحكم داود ـ عليه‌السلام ـ لصاحب الزرع أن يأخذ غنم خصمه في مقابل إتلافها لزرعه.

وعند خروجهما التقيا بسليمان ـ عليه‌السلام ـ فأخبراه بحكم أبيه. فدخل سليمان على أبيه فقال له : يا نبي الله ، إن القضاء غير ما قضيت ، فقال له : كيف؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الزرع لينتفع بها ، وادفع الزرع إلى صاحب الغنم ليقوم عليها حتى يعود كما كان. ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده ، فيأخذ صاحب الزرع زرعه ، وصاحب الغنم غنمه .. فقال داود ـ عليه‌السلام ـ القضاء ما قضيت يا سليمان [1].

والمعنى : اذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ قصة داود وسليمان ، وقت أن كانا يحكمان في الزرع الذي «نفشت فيه غنم القوم» أى : تفرقت فيه وانتشرت ليلا دون أن يكون معها راع فرعته وأفسدته.

قال القرطبي : «ولم يرد ـ سبحانه ـ بقوله ﴿إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ﴾ : الاجتماع في

---

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ٣٨ ، وتفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٤٩.

الحكم وإن جمعهما في القول ، فإن حكمين على حكم واحد لا يجوز وإنما حكم كل واحد منهما على انفراده ، وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله ـ تعالى ـ له [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ﴾ جملة معترضة جيء بها لبيان شمول علم الله ـ تعالى ـ وإحاطته بكل شيء.

أى : وكنا لما حكم به كل واحد منهما عالمين وحاضرين ، بحيث لا يغيب عنا شيء مما قالاه.

وضمير الجمع في قوله ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ : لداود وسليمان ، واستدل بذلك من قال إن أقل الجمع اثنان ، وقيل : ضمير الجمع يعود عليهما وعلى صاحب الزرع وصاحب الحرث أى : وكنا للحكم الواقع بين الجميع شاهدين.

والضمير المنصوب في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ﴾ يعود إلى القضية أو المسألة التي عرضها الخصمان على داود وسليمان.

أى : ففهمنا سليمان الحكم الأنسب والأوفق في هذه المسألة أو القضية ، وذلك لأن داود ـ كما يقول العلماء. قد اتجه في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث. وهذا عدل فحسب. أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير ، وهذا هو العدل الحي الإيجابى في صورته البانية الدافعة ، وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء» [2].

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾ ثناء من الله ـ تعالى ـ على داود وسليمان ـ عليهما‌السلام ـ والمقصود من هذا الثناء دفع ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أن داود لم يكن مصيبا في حكمه.

أى : وكلا من داود وسليمان قد أعطيناه من عندنا ﴿حُكْماً﴾ أى : نبوة وإصابة في القول والعمل ﴿وَعِلْماً﴾ أى : فقها في الدين ، وفهما سليما للأمور.

وقد توسع بعض المفسرين في الحديث عن هذا الحكم الذي أصدره داود وسليمان في قضية الحرث أكان بوحي من الله إليهما ، أم كان باجتهاد منهما ، وقد رجح بعض العلماء أنه كان باجتهاد منهما فقال : اعلم أن جماعة من العلماء قالوا : إن حكم داود وسليمان في الحرث المذكور في هذه الآية كان بوحي ، إلا أن ما أوحى إلى سليمان كان ناسخا لما أوحى إلى داود.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٣٠٧.

(٢) في ظلال القرآن ج ١٧ ص ٥٥١.

وفي الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحي ، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته ، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده ، ولم يستوجب لوما ولا ذما لعدم إصابته.

كما أثنى ـ سبحانه ـ على سليمان بالإصابة في قوله ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ﴾ وأثنى عليهما في قوله : ﴿وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾.

فدل قوله ﴿إِذْ يَحْكُمانِ﴾ على أنهما حكما فيها معا ، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر ، ولو كان وحيا لما ساغ الخلاف. ثم قال : ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود ، ولو كان حكمه فيها بوحي لكان مفهما إياها كما ترى.

فقوله : ﴿إِذْ يَحْكُمانِ﴾ مع قوله ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحي بل باجتهاد ، وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهيم الله إياه ذلك.

والقرينة الثانية : هي أن قوله ـ تعالى ـ ﴿فَفَهَّمْناها﴾ يدل على أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع ، لا أنه ـ تعالى ـ أنزل عليه فيها وحيا جديدا ناسخا ، لأن قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَفَهَّمْناها﴾ أليق بالأول من الثاني كما ترى .. [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ نماذج من النعم التي أنعم بها على داود ـ عليه‌السلام ـ فقال : ﴿وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾.

والتسخير : التذليل أى : وجعلنا الجبال والطير يسبحن الله ـ تعالى ـ ويقدسنه مع داود ، امتثالا لأمره ـ سبحانه ..

قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته ، بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويبا. ولهذا لما مر النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم على أبى موسى الأشعرى ، وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب ، فوقف واستمع إليه وقال : «لقد أوتى هذا من مزامير آل داود» [2].

وقال صاحب الكشاف : «فإن قلت : لم قدمت الجبال على الطير؟ قلت : لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب ، وأدل على القدرة ، وأدخل في الإعجاز ، لأنها جماد ، والطير حيوان ، إلا أنه غير ناطق ، روى أنه كان يمر بالجبال مسبحا وهي تجاوبه ، وقيل : كانت تسير معه حيث سار .. [3].

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٥ ص ٥٩٩ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٥٢.

(٣) الكشاف ج ٣ ص ١٢٩.

وتسبيح الجبال والطير مع داود ـ عليه السلام ـ هو تسبيح حقيقى ، ولكن بكيفية يعلمها الله ـ تعالى ـ كما قال ـ سبحانه ـ ﴿تَسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..﴾ (١).

وشبيه بالآية التي معنا قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (٢).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ* إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ* وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (٣).

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾ أى : وكنا فاعلين ذلك لداود من تسخير الجبال والطير معه يسبحن الله وينزهنه عن كل سوء ، على سبيل التكريم له. والتأييد لنبوته ، إذ أن قدرتنا لا يعجزها شيء ، سواء أكان هذا الشيء مألوفا للناس أم غير مألوف.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ﴾ بيان لنعمة أخرى من النعم التي أنعم الله بها على داود.

واللبوس : كل ما يلبس كاللباس والملبس : والمراد به هنا : الدروع.

أى : وبجانب ما منحنا داود من فضائل ، فقد علمناه من لدنا صناعة الدروع بحذق وإتقان ، وهذه الصناعة التي علمناه إياها بمهارة وجودة ﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾.

أى : لتجعلكم في حرز ومأمن من الإصابة بآلة الحرب. وتقى بعضكم من بأس بعض ، لأن الدرع تقى صاحبها من ضربات السيوف ، وطعنات الرماح.

يقال : أحصن فلان فلانا ، إذا جعله في حرز وفي مكان منيع من العدوان عليه.

والاستفهام في قوله : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ﴾ للحض والأمر أى : فاشكروا الله ـ تعالى ـ على هذه النعم ، بأن تستعملوها في طاعته ـ سبحانه ـ..

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : «وهذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب. لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله في خلقه ، فمن طعن في ذلك فقط طعن في الكتاب والسنة ، وقد أخبر الله ـ تعالى ـ عن نبيه داود أنه كان يصنع الدروع ، وكان ـ أيضا ـ يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤.

(٢) سورة سبأ الآية ١٠.

(٣) سورة ص الآيات ١٧ ـ ١٩.

يده ، وكان آدم حراثا ، ونوح نجارا ، ولقمان خياطا ، وطالوت دباغا ، فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس ، وفي الحديث : «إن الله يحب المؤمن المحترف المتعفف ، ويبغض السائل الملحف» (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من نعمه على سليمان بن داود فقال : ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾.

وقوله : ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ﴾ معطوف على معمول «سخرنا» في قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ﴾ و «عاصفة» حال من الريح.

أى : وسخرنا لسليمان الريح حال كونها عاصفة أى : شديدة الهبوب ، كما سخرنا مع أبيه الجبال يسبحن والطير.

يقال : عصفت الريح تعصف إذا اشتدت ، فهي عاصف وعاصفة وعصوف سميت بذلك لتحطيمها ما تمر عليه فتجعله كالعصف وهو التبن.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ أى : جعلناها مع قوتها وشدتها تجرى بأمر سليمان وإذنه إلى الأرض التي باركنا فيها وهي أرض الشام. وقيل : يحتمل أن يكون المراد بها ما هو أعم من أرض الشام.

ووصفت الريح هنا بأنها عاصفة ، وفي آية أخرى بأنها رخاء قال ـ تعالى ـ : ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ﴾ (٢). لأنها تارة تكون عاصفة ، وتارة تكون لينة رخاء. على حسب ما تقتضيه حكمته ـ سبحانه ـ.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : «فإن قلت : وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما؟.

قلت : كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم ، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة ، على ما قال : «غدوها شهر ورواحها شهر» فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء في نفسها وعاصفة في عملها ، مع طاعتها لسليمان على حسب ما يريد» (٣).

وقال ـ سبحانه ـ هنا : ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ أى تجرى بأمره إلى تلك الأرض في حال إيابه ورجوعه إليها ، حيث مقر مملكته ومسكنه. فالمقصود من الآية الكريمة الإخبار عن جريانها في حال عودته إلى مملكته.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٣٢١.

(٢) سورة ص الآية ٣٦.

(٣) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٣٠.

أما الآية الأخرى التي تقول : ﴿فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ﴾ أى : حيث أراد لها أن تجرى ، فالمقصود منها الإخبار عن جريها بإذنه في غير حال عودته إلى مملكته ، وبذلك أمكن الجمع بين الآيتين ، إذ الجهة فيهما منفكة.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ﴾ أى : وكنا بكل شيء يجرى في هذا الكون عالمين علما مطلقا لا كعلم غيرنا من خلقنا. فإنه علم محدود بما نشاؤه ونقدره.

فالجملة الكريمة بيان لإحاطة علم الله ـ تعالى ـ بكل شيء ، والتنبيه بأن ما أعطاه الله ـ تعالى ـ لسليمان ، إنما كان بإرادته ـ سبحانه ـ وعلمه.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ﴾ بيان لمنة أخرى من المنن الكثيرة التي امتن بها ـ سبحانه ـ على عبده ونبيه سليمان.

ويغوصون من الغوص وهو النزول تحت الماء ، ومنه الغواص الذي ينزل تحت الماء لاستخراج الجواهر وغيرها.

وقوله : ﴿مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ في محل نصب عطفا على معمول ﴿سَخَّرْنا﴾ ، السابق.

أى : وسخرنا ـ أيضا ـ لسليمان من يغوص له ، أى : لأجله ، من الشياطين ، فينزلون تحت مياه البحار ليستخرجوا له منها الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان.

وفي التعبير بقوله : ﴿لَهُ﴾ إشعار بأن غوصهم لم يكن لمنفعة أنفسهم أو باختيارهم ، وإنما هم كانوا يغوصون من أجل مصلحة سليمان ـ عليه‌السلام ـ وبأمره.

وقوله : ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ﴾ أى : لم تكن مهمتهم الغوص فقط وإنما كان سليمان يسخرهم ويكلفهم بأعمال أخرى كثيرة كبناء المدائن والقصور وصنع التماثيل والمحاريب .. كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ ، وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ، وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١).

فاسم الإشارة في قوله ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ﴾ يعود إلى الغوص أى : ويعملون له عملا كثيرا سوى ذلك الغوص.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ﴾ أى : وكنا لهؤلاء الشياطين حافظين من أن يخرجوا عن طاعته. أو أن يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون له.

---

(١) سورة سبأ الآيتان ١٢ ، ١٣.

وتلك نعمة كبرى لسليمان . عليه السلام . حيث جعل . سبحانه . الشياطين لا يستطيعون أن يزيغوا عن أمره.

هذا وقد ذكر بعض المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآيات قصصا متعددة منها قصة بساط الريح الذي قيل إن سليمان كان يجلس عليه هو وجنده ، فيطير بهم إلى الشام في وقت قصير ، ومنها صفة حمل الريح له وصفة جنوده من الجن والإنس والطير.

وقد رأينا عدم ذكر ذلك هنا ، لأنه لم يرد ما يؤيده من الآثار الصحيحة.

ثم ساق . سبحانه . جانبا من قصة أيوب . عليه السلام . وهي قصة تمثل الابتلاء بالضر في أشد صوره. قال . تعالى . :

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ﴾(٨٤)

قال ابن كثير : «يذكر الله . تعالى . عن أيوب . عليه السلام . ما كان قد أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير ، وأولاد كثيرون ، ومنازل مرضية. فابتلي في ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلي في جسده .. ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته .. وقد كان نبي الله أيوب غاية في الصبر ، وبه يضرب المثل في ذلك. (١).

وقال الآلوسي : وهو ابن أموص بن رزاح بن عيص بن إسحاق. وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط ، وأن أباه ممن آمن بإبراهيم فعلى هذا كانت بعثته قبل موسى وهارون. وقيل : بعد شعيب ، وقيل : بعد سليمان ..» (٢).

والضر . بالفتح . يطلق على كل ضرر . وبالضم . خاص بما يصيب الإنسان في نفسه من مرض وأذى وما يشبههما.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٥٤.

(٢) تفسير الآلوسي ج ١٧ ص ٨٠.

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - عبدنا أيوب - عليه السلام - وقت أن نادى ربه ، وتضرع إليه بقوله : يا رب أنى أصابنى ما أصابنى من الضر والتعب ، وأنت أجل وأعظم رحمة من كل من يتصف بها.

فأنت ترى أن أيوب - عليه السلام - لم يزد في تضرعه عن وصف حاله ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ ووصف خالقه - تعالى - بأعظم صفات الرحمة دون أن يقترح شيئا أو يطلب شيئا ، وهذا من الأدب السامي الذي سلكه الأنبياء مع خالقهم - عز وجل - ..

قال صاحب الكشاف : «ألطف - أيوب - في السؤال ، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرح بالمطلوب. ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت : يا أمير المؤمنين ، مشت جرذان - أى فئران - بيتي على العصى!! فقال لها : ألطفت في السؤال ، لا جرم لأجعلنها تثب وثب الفهود ، وملأ بيتها حبا ..» [1].

وبعد أن دعا أيوب ربه - تعالى - بهذه الثقة ، وبهذا الأدب والإخلاص ، كانت الإجابة المتمثلة في قوله - تعالى - : ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ﴾ أى دعاءه وتضرعه ﴿فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ أى : فأزلنا ما نزل به من بلاء في جسده ، وجعلناه سليما معافى. بأن أمرناه أن يضرب برجله الأرض ففعل ، فنبعت له عين فاغتسل منها ، فزال عن بدنه كل مرض أصابه بإذن الله - تعالى - ..

قال - سبحانه - : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ. ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ ..﴾ [2].

وقال - تعالى - : ﴿وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ أى : لم نخيب رجاء أيوب حين دعانا ، بل استجبنا له دعاءه ، بفضلنا وكرمنا ، فأزلنا عنه المرض الذي نزل به ، ولم نكتف بهذا - أيضا - بل عوضناه عمن فقده من أولاده ، ورزقناه مثلهم معهم.

قال الآلوسى ما ملخصه : «قوله : ﴿وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ فقال : «رد الله - تعالى - امرأته إليه ، وزاد في شبابها ، حتى ولدت له ستا وعشرين ذكرا».

فالمعنى على هذا : آتيناه في الدنيا مثل أهله عددا مع زيادة مثل آخر.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٣٠.

(٢) سورة ص الآيتان ٤١ ، ٤٢.

وعن قتادة : إن الله أحيا له أولاده الذين هلكوا في بلائه ، وأوتى مثلهم في الدنيا .. [1].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله ـ تعالى ـ : ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ﴾ أى : أجبنا له دعاءه ، وفعلنا معه ما فعلناه من ألوان الخيرات ، من أجل رحمتنا به ، ومن أجل أن يكون ما فعلناه معه عبرة وعظة وذكرى لغيره من العابدين حتى يقتدوا به في صبره على البلاء ، وفي المداومة على شكرنا في السراء والضراء.

وخص ـ سبحانه ـ العابدين بالذكرى ، لأنهم أكثر الناس بلاء وامتحانا. ففي الحديث الشريف : «أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل».

وفي حديث آخر : «يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه» [2].

وقد كان أيوب آية في الصبر ، وبه يضرب المثل في ذلك.

هذا ، وقصة أيوب ـ عليه‌السلام ـ ستأتى بصورة أكثر تفصيلا في سورة «ص» ، وقد تركنا هنا أقوالا عن كيفية مرضه ، وعن مدة هذا المرض .. نظرا لضعفها ، ومنافاتها لعصمة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من الأمراض المنفرة.

ثم أشارت السورة إشارات مجملة إلى قصة كل من إسماعيل وإدريس وذي الكفل ، قال ـ تعالى ـ :

﴿وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٨٦)

وإسماعيل : هو الابن الأكبر لإبراهيم ـ عليهما‌السلام ـ وهو الذبيح الذي افتداه الله ـ تعالى ـ بذبح عظيم.

وإدريس : هو واحد من أنبياء الله ـ تعالى ـ ، قالوا : وهو جد نوح ـ عليه‌السلام ـ وأنه ولد في حياة آدم ، وبعث بعد موته.

أما ذو الكفل : فقد قال الآلوسى في شأنه ما ملخصه : ظاهر نظم ذي الكفل في سلك

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٨١.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٥٤.

الأنبياء أنه منهم ، وهذا ما ذهب إليه الأكثر. واختلف في اسمه : فقيل : بشر وهو ابن أيوب ، بعثه الله ـ تعالى ـ بعد أبيه ، وكان مقيما بالشام.

وقيل : هو إلياس بن ياسين وينتهى نسبه إلى هارون ـ عليه‌السلام ـ ..

وقيل : هو زكريا والد يحيى ـ عليهما‌السلام ـ وسمى بذلك لكفالته مريم.

وقيل : لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا ..» [1].

ثم مدح ـ سبحانه ـ هؤلاء الأنبياء فقال : (كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ) أى : كل واحد منهم من عبادنا الصابرين الذين تحملوا في سبيلنا الكثير من المصاعب والآلام.

(وَأَدْخَلْناهُمْ) بفضلنا وإحساننا (فِي رَحْمَتِنا) التي وسعت كل شيء (إِنَّهُمْ مِنَ) عبادنا (الصَّالِحِينَ) لحمل رسالتنا ، وتبليغها إلى أقوامهم بصدق وصبر وأمانة.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من قصة يونس ـ عليه‌السلام ـ فقال :

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) (٨٨)

والمراد بذي النون : يونس بن متى ـ عليه‌السلام ـ ، والنون : الحوت. وجمعه نينان وأنوان. وسمى بذلك لابتلاع الحوت له.

قال ـ تعالى ـ : (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ* فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ* فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ..) [2].

وملخص قصة يونس «أن الله ـ تعالى ـ أرسله إلى أهل نينوى بالعراق في حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله ـ عزوجل ـ فاستعصوا عليه ، فضاق بهم ذرعا ، وتركهم وهو غضبان ليذهب إلى غيرهم ، فوصل إلى شاطئ البحر ، فوجد سفينة

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٨٢.

(٢) سورة الصافات الآيات ١٣٩ ـ ١٤٢.

فركب فيها ، وفي خلال سيرها في البحر ضاقت بركابها ، فقال ربانها : إنه لا بد من أحد الركاب يلقى بنفسه في البحر لينجو الجميع من الغرق. فجاءت القرعة على يونس ، فألقى بنفسه في اليم فالتقمه الحوت .. ثم نبذه إلى الساحل بعد وقت يعلمه الله . تعالى . ، فأرسله . سبحانه . إلى قومه مرة أخرى فآمنوا.

وسيأتى تفصيل هذه القصة في سورة الصافات . بإذن الله ..

والمعنى : واذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ . عبدنا ذا النون. وقت أن فارق قومه وهو غضبان عليهم ، لأنهم لم يسارعوا إلى الاستجابة له.

قال الجمل : وقوله : ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً﴾ أى : غضبان على قومه ، فالمفاعلة ليست على بابها فلا مشاركة كعاقبت وسافرت ، ويحتمل أن تكون على بابها من المشاركة ، أى غاضب قومه وغاضبوه حين لم يؤمنوا في أول الأمر» [1].

وقوله . تعالى . : ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ بيان لما ظنه يونس . عليه السلام . حين فارق قومه غاضبا عليهم بدون إذن من ربه . عز وجل ..

أى : أن يونس قد خرج غضبان على قومه لعدم استجابتهم لدعوته فظن أن لن نضيق عليه ، عقابا له على مفارقته لهم من غير أمرنا ، أو فظن أننا لن نقضي عليه بعقوبة معينة في مقابل تركه لقومه بدون إذننا.

فقوله : ﴿نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ بمعنى نضيق عليه ونعاقبه. يقال : قدر الله الرزق يقدره . بكسر الدال وضمها . إذا ضيقه. ومنه قوله . تعالى . : ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [2].

وقوله : ﴿وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ..﴾ [3] أى : ضيقه عليه.

ثم بين . سبحانه . ما كان يردده يونس وهو في بطن الحوت فقال : ﴿فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

والفاء في قوله ﴿فَنادى﴾ فصيحة.

والمراد بالظلمات : ظلمات البحر ، وبطن الحوت ، والليل.

أى : خرج يونس غضبان على قومه. فحدث له ما حدث من التقام الحوت له ، فلما صار

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٤٣.

(٢) سورة الرعد الآية ٢٦.

(٣) سورة الفجر الآية ١٦.

في جوفه المظلم ، بداخل البحر المظلم ، أخذ يتضرع إلينا بقوله : أشهد أن لا إله إلا أنت يا إلهى مستحق للعبادة ، ﴿سُبْحانَكَ﴾ أى : أنزهك تنزيها عظيما ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسي حين فارقت قومي بدون إذن منك. وإنى أعترف بخطئي . يا إلهى . فتقبل توبتي ، واغسل حوبتي.

هذا وقد ذكر ابن جرير وابن كثير وغيرهما من المفسرين هنا روايات متعددة عن المدة التي مكثها يونس في بطن الحوت ، وعن فضل الدعاء الذي تضرع به إلى الله . تعالى . ، ومن ذلك ما رواه ابن جرير عن سعد بن أبي وقاص . رضى الله عنه . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «باسم الله الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس بن متى». قال : قلت : يا رسول الله ، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال : «هي ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة ، إذا دعوا بها. ألم تسمع قول الله . تعالى . : ﴿فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ* فَاسْتَجَبْنا لَهُ ، وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به» [1].

ثم بين . سبحانه . أنه قد أجاب ليونس دعاءه فقال : ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ﴾ أى : دعاءه وتضرعه ﴿وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِ﴾ أى : من الحزن الذي كان فيه حين التقمه الحوت وصار في بطنه.

وقد بين . سبحانه . في آية أخرى ، أن يونس . عليه السلام . لو لم يسبح الله للبث في بطن الحوت إلى يوم البعث. قال . تعالى . : ﴿فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وقوله . تعالى . : ﴿وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ بشارة لكل مؤمن يقتدى بيونس في إخلاصه وصدق توبته ، ودعائه لربه.

أى : ومثل هذا الإنجاء الذي فعلناه مع عبدنا يونس ، ننجي عبادنا المؤمنين من كل غم ، متى صدقوا في إيمانهم ، وأخلصوا في دعائهم.

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من قصة زكريا ويحيى فقال . تعالى . :

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ٦٥.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ﴾(٩٠)

وزكريا هو ابن آزن بن بركيا ، ويتصل نسبه بسليمان . عليه السلام . ، وكان عيسى قريب العهد به ، حيث كفل زكريا مريم أم عيسى.

أى : واذكر . أيها المخاطب . حال زكريا . عليه السلام . وقت أن نادى ربه وتضرع إليه فقال : يا رب لا تتركني فردا أى : وحيدا بدون ذرية ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ﴾ أى : وأنت خير حي باق بعد كل الأموات.

فكانت نتيجة هذا الدعاء الخالص أن أجاب الله لزكريا دعاءه فقال : ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ﴾ أى دعاءه وتضرعه.

﴿وَوَهَبْنا لَهُ﴾ بفضلنا وإحساننا ابنه ﴿يَحْيى﴾ . عليهما السلام ..

﴿وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ﴾ بأن جعلناها تلد بعد أن كانت عقيما تكريما له ورحمة به.

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ﴾ تعليل لهذا العطاء الذي منحه . سبحانه . لأنبيائه . عليهم الصلاة والسلام . والضمير في «إنهم» يعود للأنبياء السابقين. وقيل : يعود إلى زكريا وزوجه ويحيى.

أى : لقد أعطيناهم ما أعطيناهم من ألوان النعم ، لأنهم كانوا يبادرون في فعل الخيرات التي ترضينا ، ويجتهدون في أداء كل قول أو عمل أمرناهم به.

﴿وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً﴾ أى : ويجأرون إلينا بالدعاء ، راغبين في آلائنا ونعمنا وراهبين خائفين من عذابنا ونقمنا.

فقوله ﴿رَغَباً وَرَهَباً﴾ مصدران بمعنى اسم الفاعل ، منصوبان على الحال ، وفعلهما من باب «طرب» ﴿وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ﴾ أى : مخبتين متضرعين لا متكبرين ولا متجبرين.

وبهذه الصفات الحميدة ، استحق هؤلاء الأخيار أن ينالوا خيرنا وعطاءنا ورضانا.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الحديث عن هؤلاء الأنبياء الكرام ، بذكر جانب من قصة مريم وابنها عيسى فقال :

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾(٩١)

وقوله : ﴿أَحْصَنَتْ﴾ من الإحصان بمعنى المنع ، يقال : هذه درع حصينة أى : مانعة صاحبها من الجراحة. ويقال : هذه امرأة حصينة ، أى : مانعة نفسها من كل فاحشة بسبب عفتها أو زواجها.

أى : واذكر ـ أيضا أيها المخاطب خبر مريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ، أى : حفظته ومنعته من النكاح منعا كليا. والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها ، وتنزيهها عن السوء.

﴿فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا﴾ أى : فنفخنا فيها من جهة روحنا ، وهو جبريل ـ عليه‌السلام ـ حيث أمرناه بذلك فامتثل أمرنا ، فنفخ في جيب درعها ، فكان بذلك عيسى ابنها ، ويؤيد هذا التفسير قوله ـ تعالى ـ في سورة مريم : ﴿قالَ﴾ ـ أى جبريل لمريم ـ ﴿إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا﴾.

أى : لأكون سببا في هبة الغلام لك عن طريق النفخ في درعك فيصل هذا النفخ إلى الفرج فيكون الحمل بعيسى بإذن الله وإرادته.

والمراد بالآية في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾ : الأمر الخارق للعادة ، الذي لم يسبقه ولم يأت بعده ما يشابهه.

أى : وجعلنا مريم وابنها عيسى آية بينة ، ومعجزة واضحة دالة على كمال قدرتنا للناس جميعا ، إذ جاءت مريم بعيسى دون أن يمسها بشر ، ودون أن تكون بغيا.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : هلا قيل آيتين كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ﴾؟ (١) قلت : لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة. وهي ولادتها إياه من غير فحل» (٢).

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٢.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٣٣.

وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصص عدد كبير من الأنبياء في سورة الأنبياء ، عقب ـ سبحانه ـ على ذلك ببيان أنهم ـ عليهم السلام ـ قد جاءوا بعقيدة واحدة ، هي إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ فقال :

﴿إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(٩٢)

ولفظ الأمة يطلق بإطلاقات متعددة. يطلق على الجماعة كما في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ..﴾ [(١)]. ويطلق على الرجل الجامع للخير ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً ..﴾ [(٢)]. ويطلق على الحين والزمان ، كما في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ..﴾ [(٣)] أى وتذكر بعد حين من الزمان.

والمراد بالأمة هنا : الدين والملّة. كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ ..﴾ [(٤)] أى : على دين وملة معينة.

والمعنى : إن ملة التوحيد التي جاء بها الأنبياء جميعا. هي ملتكم ودينكم أيها الناس ، فيجب عليكم أن تتبعوا هؤلاء الأنبياء ، وأن تخلصوا لله ـ تعالى ـ العبادة والطاعة ، فهو ـ سبحانه ـ ربكم ورب كل شيء ، فاعبدوه حق العبادة لتنالوا رضاه ومحبته.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك حال الناس من الدين الواحد الذي جاء به الرسل ، وعاقبة من اتبع الرسل وعاقبة من خالفهم فقال :

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (٩٤) وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦)

---

(١) سورة القصص الآية ٢٣.

(٢) سورة النحل الآية ١٢٠.

(٣) سورة يوسف الآية ٤٥.

(٤) سورة الزخرف الآية ٢٢.

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (٩٨) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ﴾(١٠٠)

والضمير في قوله . تعالى . : ﴿وَتَقَطَّعُوا ..﴾ يعود للناس الذين تفرقوا في شأن الدين شيعا وأحزابا. أى : وافترق الناس في شأن الدين الحق فرقا متعددة ، وسنحاسبهم جميعا على أعمالهم حسابا دقيقا ، يجازى فيه المحسن خيرا ، ويعاقب فيه المسيء على إساءته.

وقال . سبحانه . : ﴿فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ﴾ بالنفي المفيد للعموم ، لبيان كمال عدالته . تعالى . وتنزيهه . عزّ وجلّ . عن ظلم أحد ، أو أخذ شيء مما يستحقه.

وعبر عن العمل بالسعي ، لإظهار الاعتداد به ، وأن صاحب هذا العمل الصالح ، قد بذل فيه جهدا مشكورا ، وسعى من أجل الحصول عليه سعيا بذل فيه طاقته.

ثم أكد . سبحانه . بعد ذلك ما سبق أن قرره من أن الكل سيرجعون إليه للحساب ، فقال : ﴿وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾.

وللمفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة أقوال منها :

أن المعنى : وحرام . أى : وممتنع امتناعا تاما . على قرية أهلكنا أهلها بسبب فسوقهم عن أمرنا ، وتكذيبهم لرسلنا أنهم لا يرجعون إلينا في الآخرة للحساب.

فالآية الكريمة تأكيد لما قررته الآيات السابقة ، من أن الذين تقطعوا أمرهم بينهم ، والذين آمنوا وعملوا صالحا في دنياهم ، الكل سيرجعون إلى الله . تعالى . ليجازيهم بما يستحقون يوم القيامة.

وقد أكدت الآية الكريمة رجوعهم إليه . تعالى . يوم القيامة بأسلوب بديع ، حيث نفت عن الأذهان ما قد يتبادر من أن هلاك الكافرين بالعذاب في الدنيا ، قد ينجيهم من الحساب

والعقاب يوم القيامة ، وأثبتت أن الرجوع يوم القيامة للحساب مؤكد.

قال صاحب فتح القدير : قوله ﴿وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها ..﴾ قرأ أهل المدينة «وحرام» ، وقرأ أهل الكوفة «وحرم» ـ بكسر الحاء وإسكان الراء ـ وهما لغتان مثل : حلال وحل.

ومعنى ﴿أَهْلَكْناها﴾ : قدرنا إهلاكها. وجملة ﴿أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ في محل رفع مبتدأ ، وقوله : «حرام» خبرها .. والمعنى : وممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء .. (١).

وقال بعض العلماء : وجعل أبو مسلم هذه الآية من تتمة ما قبلها و «لا» فيها على بابها. وهي مع لفظ «حرام» من قبيل نفى النفي. فيدل على الإثبات ، والمعنى : وحرام على القرية المهلكة. عدم رجوعها إلى الآخرة ، بل واجب رجوعها للجزاء ، فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث. وتحقيق ما تقدم من أنه لا كفران لسعى أحد وأنه ـ سبحانه ـ سيحييه وبعمله يجزيه ، (٢).

ومنهم من يرى أن «لا» زائدة ، وأن المراد بالرجوع رجوع الهالكين إلى الدنيا فيكون المعنى : وحرام على أهل قرية أهلكناهم بسبب كفرهم ومعاصيهم ، أن يرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى بعد هلاكهم.

ومنهم من يرى أن المراد بقوله ـ تعالى ـ ﴿أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ أى : لا يرجعون إلى التوبة أو إلى الإيمان.

قال صاحب الكشاف : استعير الحرام للممتنع وجوده ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ﴾ (٣) أى. منعهما منهم .. ومعنى الرجوع : الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة ، ومجاز الآية : إن قوما عزم الله ـ تعالى ـ على إهلاكهم غير متصور أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة .. (٤).

ويبدو لنا أن القول الأول هو أقرب إلى الصواب ، لأنه هو المتبادر من ظاهر الآية ، ولأنه هو المستقيم مع سياق الآيات ، ولأنه بعيد عن التكلف إذ أن الآية الكريمة واضحة في بيان أن حكمة الله قد اقتضت أن يرجع المهلكون في الدنيا بسبب كفرهم ومعاصيهم إلى الحياة يوم القيامة ليحاسبوا على أعمالهم كما قال ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ* لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (٥).

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٣ ص ٤٢٦ للشوكانى.

(٢) تفسير القاسمى ج ١٧ ص ٤٣٠٩.

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٠.

(٤) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٣٤.

(٥) سورة الواقعة الآيتان ٤٩ ، ٥٠.

ولعل مما يؤيد هذا الرأى قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : ﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ..﴾.

فإن حتى هنا ابتدائية ، وما بعدها غاية لما يدل عليه ما قبلها ، فكأنه قيل : إن هؤلاء المهلكين ممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا وإنما هم سيستمرون على هلاكهم حتى تقوم الساعة فيرجعوا إلينا للحساب ، ويقولوا عند مشاهدته : يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا.

ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان لقبيلتين من الناس ، قيل : مأخوذان من الأوجة وهي الاختلاط أو شدة الحر ، وقيل من الأوج وهو سرعة الجري.

والمراد بفتحهما : فتح السد الذي على هاتين القبيلتين ، والذي يحول بينهم وبين الاختلاط بغيرهم من بقية الناس.

﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ والحدب : المرتفع من الأرض كالجبل ونحوه.

و ﴿يَنْسِلُونَ﴾ من النسل ـ بإسكان السين ـ ، وهو مقاربة الخطو مع الإسراع في السير ، يقال : نسل الرجل في مشيته إذا أسرع ، وفعله من باب قعد وضرب.

أى : وهم ـ أى يأجوج ومأجوج من كل مرتفع من الأرض يسرعون السير إلى المحشر ، أو إلى الأماكن التي يوجههم الله ـ تعالى ـ إليها ، وقيل إن الضمير «هم» يعود إلى الناس المسوقين إلى أرض المحشر.

وقوله : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ..﴾ معطوف على ﴿فُتِحَتْ﴾ أى : فتح السد الذي كان على يأجوج ومأجوج ، وقرب موعد الحساب والجزاء.

قال الآلوسى : وهو ما بعد النفخة الثانية لا النفخة الأولى. وهذا الفتح لسد يأجوج ومأجوج يكون في زمن نزول عيسى من السماء ، وبعد قتله الدجال.

فقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث طويل : إن الله ـ تعالى ـ يوحى إلى عيسى بعد أن يقتل الدجال : أنى قد أخرجت عبادا من عبادي ، لا يدان لك بقتالهم ، فحرز عبادي إلى الطور ، فيبعث الله ـ تعالى ـ يأجوج ومأجوج وهم كما قال ـ سبحانه ـ ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ثم يرسل الله عليهم نغفا ـ في رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة» (١).

وقوله : فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا .. جواب للشرط وهو قوله : تعالى ـ قبل ذلك ﴿إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾.

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٩٢.

والضمير «هي» للقصة والشأن. و «إذا» للمفاجأة.

قال الجمل : قوله : ﴿فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ فيه وجهان : أحدهما ـ وهو الأجود ـ أن يكون هي ضمير القصة. وشاخصة : خبر مقدم. وأبصار : مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر لهى لأنها لا تفسر إلا بجملة مصرح بجزأيها ..» [(١)].

والمعنى : لقد تحقق ما أخبرنا به من أمارات الساعة ، ومن خروج يأجوج ومأجوج ، ومن عودة الخلق إلينا للحساب .. ورأى المشركون كل ذلك ، فإذا بأبصارهم مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من شدة الهول والفزع.

يقال : شخص بصر فلان يشخص شخوصا فهو شاخص ، إذا فتح عينيه وصار لا يستطيع تحريكهما.

وقوله : ﴿يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا﴾ مقول لقول محذوف.

أى : أن هؤلاء الكافرين يقولون وهم شاخصو البصر : يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك ، فإننا قد كنا في الدنيا في غفلة تامة عن هذا اليوم الذي أحضرنا فيه للحساب.

وقوله : ﴿بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ﴾ إضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة ، إلى وصفها بالظلم وتجاوز الحدود.

أى : لم نكن في الحقيقة في غفلة عن هذا اليوم وأهواله ، فقد أخبرنا رسلنا به ، بل الحقيقة أننا كنا ظالمين لهؤلاء الرسل لأننا لم نطعهم ، وكنا ظالمين لأنفسنا حيث عرضناها لهذا العذاب الأليم.

وهكذا يظهر الكافرون الندامة والحسرة في يوم لا ينفعهم فيه ذلك.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ..﴾ زيادة في تقريعهم وتوبيخهم.

والحصب ـ بفتحتين ـ ما تحصب به النار ـ أى : يلقى فيها لتزداد به اشتعالا كالحطب والخشب.

أى : إنكم ـ أيها الكافرون ـ وأصنامكم التي تعبدونها من دون الله ـ تعالى ـ وقود جهنم ، وزادها الذي تزداد به اشتعالا.

وفي إلقاء أصنامهم معهم في النار مع أنها لا تعقل ، زيادة في حسرتهم وتبكيتهم ، حيث رأوا بأعينهم مصير ما كانوا يتوهمون من ورائه المنفعة.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٤٦.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قرنوا بآلهتهم؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة ، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم ، والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب ، ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ، وينتفعون بشفاعتهم ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا ، لم يكن شيء أبغض إليهم منهم [1].

وجملة ﴿أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ﴾ بدل من ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ، أو مستأنفة.

أى : أنتم - أيها الكافرون - ومعكم أصنامكم داخلون في جهنم دخولا لا مفر لكم منه.

وجاء الخطاب بقوله ﴿أَنْتُمْ﴾ على سبيل التغليب ، وإلا فالجميع داخلون فيها.

ولا يدخل في هذه الآية ما عبده هؤلاء المشركون من الأنبياء والصالحين كعيسى والعزيز والملائكة ، فإن عبادتهم لهم كانت عن جهل وضلال منهم ، فإن هؤلاء الأخيار ما أمروهم بذلك ، وإنما أمروهم بعبادة الله - تعالى - وحده.

ثم أقام - سبحانه - لهؤلاء الكافرين الأدلة على بطلان عبادتهم لغيره فقال : ﴿لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها﴾.

أى : لو كان هؤلاء الأصنام المعبودون من دون الله آلهة حقا - كما زعمتم أيها الكافرون - ما ألقى بهم في النار ، وما قذفوا فيها كما يقذف الحطب ، وحيث تبين لكم دخولهم إياه ، فقد ثبت بطلان عبادتكم لها ، وأن هذه الآلهة المزعومة لا تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها.

وقوله ﴿وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ﴾ تذييل مقرر لما قبله. أى : وكل من العابدين والمعبودين باقون في هذه النار على سبيل الخلود الأبدى.

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان حال الكافرين في جهنم فقال : ﴿لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ﴾.

أى : لهم فيها تنفس شديد يخرج من أقصى أفواههم بصعوبة وعسر ، كما هو شأن المغموم المحزون. وأصل الزفير : تردد النفس حتى تنتفخ منه الضلوع.

﴿وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ﴾ أى : وهم في جهنم لا يسمعون ما يريحهم ، وإنما يسمعون ما فيه توبيخهم وعذابهم ، أو : وهم فيها لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة ما هم فيه من هول وخوف.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٣٦.

وبعد هذا الحديث الذي ترتجف له القلوب .. أتبع القرآن ذلك بحديث آخر تسر له النفوس ، وتنشرح له الصدور ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾(١٠٣)

والحسنى : تأنيث الأحسن ، وهي صفة لموصوف محذوف.

أى : إن الذين سبقت لهم منا في دنياهم المنزلة الحسنى بسبب إيمانهم الخالص وعملهم الصالح ، وقولهم الطيب.

﴿أُولئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿عَنْها مُبْعَدُونَ﴾ أى : عن النار وحرها وسعيرها .. مبعدون إبعادا تاما بفضل الله ـ تعالى ـ ورحمته.

وقوله : ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها﴾ تأكيد لبعدهم عن النار. وأصل الحسيس الصوت الذي تسمعه من شيء يمر قريبا منك.

أى : هؤلاء المؤمنون الصادقون الذين سبقت لهم من خالقهم الدرجة الحسنى ، لا يسمعون صوت النار ، الذي يحس من حركة لهيبها وهيجانها ، لأنهم قد استقروا في الجنة ، وصاروا في أمان واطمئنان.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ﴾ بيان لفوزهم بأقصى ما تتمناه الأنفس بعد بيان بعدهم عن صوت النار.

أى : وهم فيما تتمناه أنفسهم ، وتشتهيه أفئدتهم ، وتنشرح له صدورهم ، خالدون خلودا أبديا لا ينغصه حزن أو انقطاع.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ...﴾ بيان لنجاتهم من كل ما يفزعهم ويدخل القلق على نفوسهم.

أى : إن هؤلاء الذين سبقت لهم منا الحسنى ، لا يحزنهم ما يحزن غيرهم من أهوال

يشاهدونها ويحسونها في هذا اليوم العصيب ، وهم يوم القيامة وما يشتمل عليه من مواقف متعددة. فالمراد بالفزع الأكبر : الخوف الأكبر الذي يعترى الناس في هذا اليوم.

وفضلا عن ذلك فإن الملائكة تستقبلهم بفرح واستبشار ، فتقول لهم على سبيل التهنئة : ﴿هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ به في الدنيا من خالقكم . عزّ وجلّ . في مقابل إيمانكم وعملكم الصالح.

قالوا : وهذا الاستقبال من الملائكة للمؤمنين ، يكون على أبواب الجنة ، أو عند الخروج من القبور.

ثم ختم . سبحانه . سورة الأنبياء ببيان جانب من أحوال هذا الكون يوم القيامة ، وببيان سننه في خلقه ، وببيان نعمه على عباده ، وببيان ما أمر به نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال . تعالى . :

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (١٠٦) وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (١١١) قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾(١١٢)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ..﴾ الظرف فيه منصوب بقوله ـ تعالى ـ قبل ذلك ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ أو بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾.

وقوله : ﴿نَطْوِي﴾ من الطى وهو ضد النشر. والسجل : الصحيفة التي يكتب فيها. والمراد بالكتب : ما كتب فيها من الألفاظ والمعاني ، فالكتب بمعنى المكتوبات. واللام بمعنى على.

والمعنى : إن الملائكة تتلقى هؤلاء الأخيار الذين سبقت لهم من الله ـ تعالى ـ الحسنى بالفرح والسرور ، يوم يطوى ـ سبحانه ـ السماء طيا مثل طي الصحيفة على ما فيها من كتابات.

وفي هذا التشبيه إشعار بأن هذا الطى بالنسبة لقدرته ـ تعالى ـ في منتهى السهولة واليسر ، حيث شبه طيه السماء بطى الصحيفة على ما فيها.

وقيل : إن لفظ ﴿السِّجِلِ﴾ اسم لملك من الملائكة ، وهو الذي يطوى كتب أعمال الناس بعد موتهم.

والإضافة في قوله ﴿كَطَيِّ السِّجِلِ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله ، والجار والمجرور صفة لمصدر مقدر. أى. نطوى السماء طيا كطي الرجل أو الملك الصحيفة على ما كتب فيها.

وقرأ أكثر القراء السبعة : للكتاب بالإفراد. ومعنى القراءتين واحد لأن المراد به الجنس فيشمل كل الكتب.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ بيان لصحة الإعادة قياسا على البدء ، إذ الكل داخل تحت قدرته ـ عزّ وجلّ ـ ..

أى : نعيد أول خلق إعادة مثل بدئنا إياه ، دون أن ينالنا تعب أو يمسنا لغوب ، لأن قدرتنا لا يعجزها شيء : قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ..﴾.

قال صاحب الكشاف : «وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه؟ قلت : أوله إيجاده من العدم ، فكما أوجده أولا عن عدم. يعيده ثانيا عن عدم».

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ تأكيد للإعادة. ولفظ «وعدا» منصوب بفعل محذوف. و «علينا» في موضع الصفة له.

أى : هذه الإعادة وعدنا بها وعدا كائنا علينا باختيارنا وإرادتنا ، إنا كنا محققين هذا

الوعد ، وقادرين عليه ، والعاقل من يقدم في دنياه العمل الصالح الذي ينفعه عند بعثه للحساب.

ثم ساق . سبحانه . سنة من سننه التي لا تتخلف فقال : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ، أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

والمراد بالزبور : الكتاب المزبور أى : المكتوب ، مأخوذ من قولهم : زبرت الكتاب إذا كتبته.

ويشمل هنا جميع الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور.

والمراد بالذكر : اللوح المحفوظ الذي هو أم الكتاب.

وقيل : المراد بالزبور : كتاب داود خاصة. وبالذكر التوراة ، أو العلم ، والمقصود بالأرض هنا : أرض الجنة.

فيكون المعنى : ولقد كتبنا في الكتب السماوية ، من بعد كتابتنا في اللوح المحفوظ : أن أرض الجنة نورثها يوم القيامة لعبادنا الصالحين.

وهذا القول يؤيده قوله . تعالى . في شأن المؤمنين : ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ (١).

ومن المفسرين من يرى أن المراد بالأرض هنا : أرض الدنيا فيكون المعنى :

ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن هذه الأرض التي يعيش عليها الناس مؤمنهم وكافرهم ، ستكون في النهاية لعبادنا الصالحين.

قال الآلوسى ما ملخصه : أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن المراد بالأرض في الآية : أرض الجنة ، وإنها الأرض التي يختص بها الصالحون. لأنها لهم خلقت ، وغيرهم إذا حصلوا فيها فعلى وجه التبع ، وأن الآية ذكرت عقب ذكر الإعادة وليس بعدها أرض يستقر عليها الصالحون. ويمتن الله بها عليهم سوى أرض الجنة.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن المراد بها أرض الدنيا يرثها المؤمنون. ويستولون عليها.

أخرج مسلم وأبو داود والترمذي عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله . تعالى . زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ..» (٢).

---

(١) سورة الزمر الآية ٧٤.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٥٣.

ويبدو لنا أنه لا مانع من أن يكون المراد بالأرض التي يرثها العباد الصالحون ، ما يشمل أرض الجنة وأرض الدنيا ، لأنه لم يرد نص يخصص أحد المعنيين.

وقد سار على هذا التعميم الإمام ابن كثير فقال عند تفسيره لهذه الآية : «يقول الله ـ تعالى ـ مخبرا عما قضاه لعباده الصالحين ، من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة كقوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١] وقال ـ سبحانه ـ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ [٢].

وأخبر ـ تعالى ـ أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية ، فهو كائن لا محالة ، ولهذا قال : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ ..﴾ [٣].

واسم الإشارة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ﴾ يعود على القرآن الكريم الذي منه هذه السورة.

والبلاغ : الشيء الذي يكفى الإنسان للوصول إلى غايته. يقال : في هذا الشيء بلاغ أى : كفاية أو سبب لبلوغ المقصد.

أى : إن في هذا القرآن ، وفيما ذكر في هذه السورة من آداب وهدايات ، وعقائد وتشريعات ، لبلاغا وكفاية في الوصول إلى الحق ، لقوم عابدين.

وخص العابدين بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بتوجيهات القرآن الكريم ، إذ العابد لله ـ تعالى ـ بإخلاص ، يكون خاشع القلب ، نقى النفس ، مستعدا للتلقي والتدبر والانتفاع.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن من مظاهر فضله على الناس أن أرسل إليهم نبيه صلى‌الله‌عليه‌وسلم ليكون رحمة لهم فقال : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾.

أى : وما أرسلناك ـ أيها الرسول الكريم ـ بهذا الدين الحنيف وهو دين الإسلام ، إلا من أجل أن تكون رحمة للعالمين من الإنس والجن.

وذلك لأننا قد أرسلناك بما يسعدهم في دينهم وفي دنياهم وفي آخرتهم متى اتبعوك ، واستجابوا لما جئتهم به ، وأطاعوك فيما تأمرهم به أو تنهاهم عنه.

وفي الحديث الشريف : «إنما أنا رحمة مهداة» فرسالته صلى‌الله‌عليه‌وسلم رحمة في ذاتها ، ولكن

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٨.

(٢) سورة غافر الآية ٥١.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٨٠.

هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها ، أما من أعرض عنها فهو الذي ضيع على نفسه فرصة الانتفاع.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد وضح هذا المعنى فقال : أرسل ﷺ «رحمة للعالمين» لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع ، فإنما آتى من عند نفسه ، حيث ضيع نصيبه منها. ومثاله : أن يفجر الله عينا عذيقة . أى : كبيرة عذبة . ، فيسقى ناس زروعهم ، ومواشيهم بمائها فيفلحوا ، ويبقى ناس مفرطون فيضيعوا. فالعين المفجرة في نفسها نعمة من الله . تعالى . ورحمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه ، حيث حرمها ما ينفعها» [1].

ثم أمر الله . تعالى . نبيه ﷺ أن يخبر الناس بأن رسالته لحمتها وسداها الدعوة إلى عبادة الله . تعالى . وحده فقال : ﴿قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ ..﴾

أى : قل . يا محمد . للناس : إن الذي أوحاه الله . تعالى . إلىّ من تكاليف وهدايات وعبادات وتشريعات .. تدور كلها حول إثبات وحدانيته . سبحانه . ووجوب إخلاص العبادة له وحده.

قال الآلوسى . رحمه الله . : «ذهب جماعة إلى أن في الآية حصرين : الأول : لقصر الصفة على الموصوف. والثاني : لقصر الموصوف على الصفة.

فالأول : قصر فيه الوحى على الوحدانية. والثاني : قصر فيه الله . تعالى . على الوحدانية ، والمعنى : ما يوحى إلىّ إلا اختصاص الله بالوحدانية ، ومعنى هذا القصر أنه الأصل الأصيل وما عداه راجع إليه ، أو غير منظور إليه في جانبه ..» [2].

والاستفهام في قوله . سبحانه . : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ للتحضيض أى : مادام الأمر كما ذكر لكم فأسلموا لتسلموا.

ثم أرشد . سبحانه . النبي ﷺ إلى ما يقوله للناس في حال إعراضهم عن دعوته ، فقال : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ ..﴾.

وآذنتكم : من الإيذان بمعنى الإعلام والإخبار. ومنه الأذان للصلاة بمعنى الإعلام بدخول وقتها.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٣٨.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٠٦.

قال بعضهم : آذن منقول من أذن إذا علم ، ولكنه كثر استعماله في إجرائه مجرى الإنذار والتحذير ، [1].

أى : فإن أعرضوا عن دعوتك ـ أيها الرسول الكريم ـ فقل لهم : لقد أعلمتكم وأخبرتكم بما أمرنى ربي أن أعلمكم وأخبركم به ، ولم أخص أحدا منكم بهذا الإعلام دون غيره ، وإنما أخبرتكم جميعا «على سواء» أى : حال كونكم جميعا مستوين في العلم.

فقوله : ﴿عَلى سَواءٍ﴾ في موضع الحال من المفعول الأول لآذنتكم. أى : فقد أعلمتكم ما أمرنى ربي به حالة كونهم مستوين في هذا العلم.

ويجوز أن يكون الجار والمجرور في موضع الصفة لمصدر مقدر. أى : فقد آذنتكم إيذانا على سواء.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ﴾ إرشاد منه ـ سبحانه ـ لنبيه ﷺ إلى ما يقوله لهم ـ أيضا ـ في حال إعراضهم عن دعوته.

و «إن» نافية. أى : فإن أعرضوا عن دعوتك يا محمد ، فقل لهم : لقد أعلمتكم جميعا بما أمرنى الله بتبليغه إليكم ، وإنى بعد هذا التبليغ والتحذير ما أدرى وما أعرف ، أقريب أم بعيد ما توعدون به من العذاب ، أو من غلبة المسلمين عليكم ، أو من قيام الساعة. فإن علم ذلك وغيره إلى الله ـ تعالى ـ وحده ، وما أنا إلا مبلغ عنه.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ﴾.

فهو ـ سبحانه ـ الذي يعلم ما تجهرون به وما تسرونه من أقوال وأعمال. ويعلم ـ أيضا ـ ما تكتمونه في نفوسكم من كفر وجحود وكراهية لي ولأتباعى ، وسيعاقبكم ـ سبحانه ـ على ذلك العقاب الذي تستحقونه.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ زيادة في تأكيد أن علم ما سينزل بهم من عقاب مرده إلى الله ـ تعالى ـ وحده.

أى : وإنى ـ أيضا ـ ما أدرى ، لعل تأخير عقابكم ـ بعد أن أعرضتم عن دعوتي ـ من باب الامتحان والاختبار لكم ، أو من باب الاستدراج لكم إلى حين مقدر عنده ـ سبحانه ـ ، ثم يأخذكم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر.

وفي إسناد علم ما سينزل بهم إلى الله ـ تعالى ـ وحده ، تخويف لهم أى : تخويف ، وأدب

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٤٩.

ليس بعده أدب من النبي ﷺ مع الله . عَزَّ وَجَلَّ ..

ثم ختم . سبحانه . السورة الكريمة بقوله : ﴿قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ، وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾ أى : قال الرسول ﷺ بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهو يتضرع إلى ربه : رب احكم بيني وبين هؤلاء الذين آذنتهم على سواء بالحق ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ﴾ أى : الكثير الرحمة على عباده ﴿الْمُسْتَعانُ﴾ أى : المطلوب منه العون ﴿عَلى ما تَصِفُونَ﴾ أى : على ما تصفونه بألسنتكم من أنواع الكذب والزور والبهتان.

وقرأ أكثر القراء السبعة قل رب احكم بالحق ... بصيغة الأمر. وهذه القراءة تدل على أن الرسول ﷺ قد أمره الله . تعالى . أن يقول ذلك.

وصيغة «قال ..» تدل على أن الرسول ﷺ قد امتثل أمر ربه ، فقال ما أمره بقوله.

وبعد : فهذا تفسير لسورة الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام . نسأل الله . تعالى . أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

د. محمد سيد طنطاوى

تفسير

سورة الحجّ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، ومن والاه.

أما بعد : فهذا تفسير لسورة «الحج» نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، إنه ـ سبحانه ـ أكرم مسئول ، وأعظم مأمول.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

المؤلف

د / محمد سيد طنطاوى

١ . سورة الحج هي السورة الثانية والعشرون في ترتيب المصحف ، وعدد آياتها ثمان وتسعون آية في المصحف الكوفي ، وسبع وتسعون في المكي وخمس وتسعون في البصري ، وأربع وتسعون في الشامي.

وسميت بسورة الحج ، لحديثها بشيء من التفصيل عن أحكام الحج.

٢ . ومن العلماء من يرى أنها من السور المكية ، ومنهم من يرى أنها من السور المدنية.

والحق أن سورة الحج من السور التي فيها آيات مكية ، وفيها آيات مدنية فمثلا : الآيات التي تتحدث عن الإذن بالقتال ، من الواضح أنها آيات مدنية ، لأن القتال شرعه الله . تعالى . بالمدينة ، وكذلك الآيات التي تتحدث عن أحكام الحج ، لأن الحج فرض بعد الهجرة.

قال الآلوسى بعد أن ذكر أقوال العلماء في ذلك : «والأصح أن سورة الحج مختلطة» فيها آيات مدنية ، وفيها آيات مكية ، وإن اختلف في التعيين ، وهو قول الجمهور» (١).

وقال بعض العلماء : «والذي يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية وجو السور المكية. فموضوعات التوحيد ، والتخويف من الساعة ، وإثبات البعث ، وإنكار الشرك ، ومشاهد القيامة. وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون .. بارزة في السورة. وإلى جوارها الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال ، وحماية الشعائر ، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد العدوان ، والأمر بالجهاد في سبيل الله» (٢).

٣ . وقد افتتحت السورة الكريمة افتتاحا ترتجف له النفوس ، حيث تحدثت عن أهوال يوم القيامة ، وعن أحوال الناس فيه ...

قال . تعالى . ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها ، وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ ..

٤ . وبعد أن ساقت السورة الكريمة نماذج متنوعة لأحوال الناس في هذه الحياة ، وأقامت

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١١٠.

(٢) في ظلال القرآن ج ١٧ ص ٥٧٥.

الأدلة على أن البعث حق ... أتبعت ذلك ببشارة المؤمنين بما يشرح صدورهم.

قال ـ تعالى ـ ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ﴾.

ثم بينت السورة الكريمة أن كل شيء في هذا الكون يسجد لله ـ تعالى ـ وأن كثيرا من الناس ينال الثواب بسبب إيمانه وعمله الصالح ، وكثيرا منهم يصيبه العقاب بسبب كفره وفسوقه.

قال ـ تعالى ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ ، وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾.

٥ ـ وبعد أن عقدت السورة الكريمة مقارنة بين خصمين اختصموا في ربهم ، وبينت عاقبة كل منهما ... أتبعت ذلك بحديث مفصل عن فريضة الحج. فذكرت سوء عاقبة الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ، كما بينت أن الله ـ تعالى ـ قد أمر نبيه إبراهيم بأن يؤذن للناس بالحج ، لكي يشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ، كما بشرت الذين يعظمون حرمات الله بالخير وحسن الثواب ، ووصفت من يشرك بالله ﴿فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ﴾.

ثم ختمت حديثها عن فريضة الحج ببيان أن الهدى الذي يقدمه الحجاج هو من شعائر الله ، فعليهم أن يقدموه بإخلاص وسخاء ، وأن يشكروا الله ـ تعالى ـ على نعمه.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ ، فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ ، كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٦ ـ ثم بينت السورة أن الله ـ تعالى ـ قد شرع لعباده المؤمنين الجهاد في سبيله ، وبشرهم بأنه معهم يدافع عنهم ، ويجعل العاقبة لهم. فقال ـ تعالى ـ ﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ* أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

ثم أخذت السورة الكريمة في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من قومه ...

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ* وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ

وَقَوْمُ لُوطٍ* وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى ، فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله بأن يمضي في طريقه دون أن يهتم بأذى المشركين. وأن يجابههم بكلمة الحق بدون خوف أو وجل ، فقال ـ تعالى ـ ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ* فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ* وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾.

٧ ـ وبعد أن بين ـ سبحانه ـ مظاهر حكمته في هداية من اهتدى ، وفي ضلال من ضل ، أتبع ذلك بحديث مستفيض عن ألوان نعمه على خلقه ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ، إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ ، وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ* وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾.

٨ ـ ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ، بنداءين : أحدهما : وجهه إلى الناس جميعا ، وبين لهم فيه ، أن الذين يعبدونهم من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له.

والثاني : وجهه ـ سبحانه ـ إلى المؤمنين ، وأمرهم فيه بمداومة الركوع والسجود والعبادة له ـ عزوجل ـ وبالمواظبة على فعل الخير وعلى الجهاد في سبيله.

قال ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ. مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

٩ ـ هذا : والمتأمل في هذه السورة الكريمة ، يرى أن من أبرز ما اهتمت بالحديث عنه ما يأتي :

(ا) بيان أنواع الناس في هذه الحياة ، وعاقبة كل نوع ، ترى ذلك واضحا في قوله ـ تعالى ـ :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ

انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ...﴾.

(ب) إقامة الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وعلى أن البعث حق بأسلوب منطقي واضح. يقنع العقول ويهدى القلوب.

ترى ذلك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً ، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى ، وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

(ج) الحديث المفصل عن فريضة الحج ، وما اشتملت عليه هذه الفريضة من منافع وآداب وأحكام.

(د) المقارنة بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، نرى ذلك في آيات كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ. فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾.

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ﴾.

(هـ) بيان سنن الله في خلقه ، والتي من أعظمها : دفاعه عن المؤمنين ، ونصره لهم ، ترى ذلك في مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

والتي من أعظمها ـ أيضا ـ عدم إخلاف وعده ، قال ـ تعالى ـ : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ* وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

(و) يمتاز أسلوب السورة ـ في مجموعه ـ بالقوة والعنف ، والشدة والرهبة ، والإنذار والتحذير ، وغرس التقوى في القلوب بأسلوب تخشع له النفوس ..

نرى ذلك في كثير من آياتها ، ومن ذلك ، قوله ـ تعالى ـ :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا

أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها ، وَتَرى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ ..

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ﴾.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿... فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ* يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ* وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ ..

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ. فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ، أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ، فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ..

وبجانب هذه الشدة في الأسلوب ، نرى في السورة ـ أيضا ـ أسلوبا آخر فيه من اللين والرقة والبشارة للمؤمنين ما فيه ، ويكفيك قوله ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ* وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ﴾.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين ، وأن يحشرنا معهم.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

كتبه الراجي عفو ربه

د / محمد سيد طنطاوى

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾(٢)

افتتحت سورة الحج بهذا النداء الموجه من الخالق ـ عزّ وجلّ ـ إلى الناس جميعا ، يأمرهم فيه بامتثال أمره ، وباجتناب نهيه ، حتى يفوزوا برضاه يوم القيامة.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل للأمر بالتقوى.

قال القرطبي : الزلزلة شدة الحركة ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿... وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ ...﴾ [(١)] وأصل الكلمة من زل فلان عن الموضع ، أى : زال عنه وتحرك ، وزلزل الله قدمه ، أى : حركها وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء» [(٢)].

وقال الآلوسى : «والزلزلة : التحريك الشديد ، والإزعاج العنيف ، بطريق التكرير ، بحيث يزيل الأشياء من مقارها ، ويخرجها عن مراكزها.

وإضافتها إلى الساعة ، من إضافة المصدر إلى فاعله ، لكن على سبيل المجاز في النسبة كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ [(٣)] ؛ لأن المحرك حقيقة هو الله ـ تعالى ـ ، والمفعول الأرض أو الناس ، أو من إضافته إلى المفعول ، لكن على إجرائه مجرى المفعول به اتساعا كما في قوله : «يا سارق الليلة أهل الدار ...» [(٤)].

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٤.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٣.

(٣) سورة سبأ الآية ٣٣.

(٤) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١١٠.

والمعنى : يا أيها الناس اتقوا ربكم اتقاء تاما ، بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما لا يرضيه ، وبأن تسارعوا إلى فعل ما يحبه ، لأن ما يحدث في هذا الكون عند قيام الساعة ، شيء عظيم ، ترتجف لهوله القلوب ، وتخشع له النفوس.

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ بصيغة الإجمال والإبهام لهذا الشيء العظيم ، لزيادة التهويل والتخويف.

ثم فصل ـ سبحانه ـ هذا الشيء العظيم تفصيلا يزيد في وجل القلوب فقال : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ...﴾.

والضمير في «ترونها» ، يعود إلى الزلزلة لأنها هي المتحدث عنها والظرف «يوم» منصوب بالفعل تذهل ، والرؤية بصرية لأنهم يرون ذلك بأعينهم.

والذهول : الذهاب عن الأمر والانشغال عنه مع دهشة وحيرة وخوف ، ومنه قول عبد الله ابن رواحة ـ رضى الله عنه ـ :

ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

أى : أن هذه الزلزلة من مظاهر شدتها ورهبتها ، أنكم ترون الأم بسببها تنسى وتترك وليدها الذي ألقمته ثديها. وكأنها لا تراه ولا تحس به من شدة الفزع.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : لم قيل ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ دون مرضع؟ قلت : المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى ، والمرضع : التي من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به ، فقيل : مرضعة ، ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه ، وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ عن إرضاعها : أو عن الذي أرضعته وهو الطفل ...» (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها﴾ بيان لحالة ثانية تدل على شدة الزلزلة وعلى عنف آثارها.

أى : وترونها ـ أيضا ـ تجعل كل حامل تضع حملها قبل تمامه من شدة الفزع.

ثم بين ـ سبحانه ـ حالة ثالثة للآثار التي تدل على شدة هذه الزلزلة فقال : ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾.

أى : وترى ـ أيها المخاطب ـ الناس في هذا الوقت العصيب ، هيئتهم كهيئة السكارى

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٤٢.

من قوة الرعب والفزع. وما هم على الحقيقة بسكارى ، لأنهم لم يشربوا ما يسكرهم ولكن عذاب الله شديد. أى : ولكن شدة عذابه ـ سبحانه ـ هي التي جعلتهم بهذه الحالة التي تشبه حالة السكارى في الذهول والاضطراب.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى فقال : «وتراهم سكارى على التشبيه ، وما هم بسكارى على التحقيق ، ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله ، هو الذي أذهب عقولهم ، وطير تمييزهم ، وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه ...».

وقد علق صاحب الانتصاف على عبارة صاحب الكشاف هذه فقال : قال أحمد : والعلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق نقيضه ، كقولك : زيد حمار ، إذا وصفته بالبلادة ، ثم يصدق أن تقول : وما هو بحمار ، فتنفى عنه الحقيقة ، فكذلك الآية ، بعد أن أثبت السكر المجازى نفى الحقيقة أبلغ نفى مؤكد بالباء ، والسر في تأكيده : التنبيه على أن هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ليس من المعهود في شيء ، وإنما هو أمر لم يعهدوا مثله من قبل. والاستدراك بقوله ﴿وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ راجع إلى قوله : ﴿وَما هُمْ بِسُكارى﴾ وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازى ، فكأنه قيل : إذا لم يكونوا سكارى من الخمر فما هذا السكر الغريب وما سببه؟ فقال : شدة عذاب الله ـ تعالى ـ» [1].

هذا ، وقد اختلف العلماء في وقت هذه الزلزلة المذكورة هنا ، فمنهم من يرى أنها تكون في آخر عمر الدنيا ، وأول أحوال الساعة ومنهم من يرى أنها تكون يوم القيامة ، بعد خروج الناس من قبورهم للحساب.

وقد وفي هذه المسألة حقها الإمام ابن كثير فقال ما ملخصه : «قال قائلون : هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا. وأول أحوال الساعة.

وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال ، كائن يوم القيامة في العرصات ، بعد القيام من القبور.

ثم ساق ـ رحمه‌الله ـ سبعة أحاديث استدل بها أصحاب الرأى الثاني.

ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن أبى سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : يقول الله ـ تعالى ـ يوم القيامة : يا آدم. فيقول : لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار ، قال : يا رب ، وما بعث النار؟ قال : من كل ألف ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب

---

(١) تفسير الكشاف وحاشية ج ٣ ص ١٤٢.

الوليد ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد». فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم. فقال ﷺ : «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد ، ثم أنتم في الناس كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة . فكبرنا . ثم قال : ثلث أهل الجنة . فكبرنا . ثم قال : شطر أهل الجنة فكبرنا» [1].

وعلى الرأى الأول تكون الزلزلة بمعناها الحقيقي ، بأن تتزلزل الأرض وتضطرب ، ويعقبها طلوع الشمس من مغربها ، ثم تقوم الساعة.

وعلى الرأى الثاني تكون الزلزلة المقصود بها شدة الخوف والفزع ، كما في قوله . تعالى . في شأن المؤمنين بعد أن أحاطت بهم جيوش الأحزاب : ﴿هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً﴾ [2] فالمقصود : أصيبوا بالفزع والخوف ، وليس المقصود أن الأرض تحركت واضطربت من تحتهم.

وبعد هذا الافتتاح الذي يغرس الخوف في النفوس ، ويحملها على تقوى الله وخشيته ، ساقت السورة حال نوع من الناس يجادل بالباطل ، ويتبع خطوات الشيطان ، فقال . تعالى . :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾(٤)

و ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ للتبعيض. وقوله ﴿يُجادِلُ﴾ من الجدال بمعنى المفاوضة على سبيل المنازعة والمخاصمة والمغالبة ، مأخوذ من جدلت الحبل. أى : أحكمت فتله ، كأن المتجادلين يحاول كل واحد منهما أن يقوى رأيه ، ويضعف رأى صاحبه.

والمراد بالمجادلة في الله : المجادلة في ذاته وصفاته وتشريعاته.

وقوله : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من الفاعل في يجادل. وهي حال موضحة لما تشعر به المجادلة هنا من الجهل والعناد.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٨٦ طبعة دار الشعب.

(٢) سورة الأحزاب الآية ١١.

أى : ومن الناس قوم استولى عليهم الجهل والعناد ، لأنهم يجادلون وينازعون في ذات الله وصفاته ، وفي وحيه وفي أحكامه بغير مستند من علم عقلي أو نقلي ، وبغير دليل أو ما يشبه الدليل.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾ معطوف على ما قبله. والمريد والمتمرد : البالغ أقصى الغاية في الشر والفساد ، يقال : مرد فلان على كذا ـ من باب نصر وظرف ـ إذا عتا وتجبر واستمر على ذلك.

وأصل المادة للملاسة والتجرد ، ومنه قولهم : شجرة مرداء ، أى ملساء لا ورق لها. وغلام أمرد. أى : لم ينبت في ذقنه شعر ..

أى : يجادل في ذات الله وصفاته بغير علم يعلمه ، ويتبع في جداله وتطاوله وعناده ، كل شيطان عاد عن الخير ، متجرد للفساد ، لا يعرف الحق أو الصلاح ، ولا هما يعرفانه ، وإنما هو خالص للشر والغي والمنكر من القول والفعل.

وتقييد الجدال بكونه بغير علم ، يفهم منه أن الجدال بعلم لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، سائغ محمود ، ولذا قال الإمام الفخر الرازي : «هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة ، لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل ، يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة» ، فالمجادلة الباطلة : هي المرادة من قوله ـ تعالى ـ : ﴿ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً ..﴾ [(١)] والمجادلة الحقة هي المرادة من قوله : ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..﴾ [(٢)].

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة هذا المجادل بالباطل ، والمتبع لكل شيطان مريد ، فقال : ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾.

أى : كتب على هذا الشيطان ، وقضى عليه «أنه من تولاه» أى اتخذه وليا وقدوة له «فأنه يضله» أى : فشأن هذا الشيطان أن يضل تابعه عن كل خير «ويهديه إلى عذاب السعير» أى : وأن شأن هذا الشيطان ـ أيضا ـ أن يهدى متبعه إلى طريق النار المستعرة ، وفي التعبير بقوله : ﴿وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ تهكم بمن يتبع هذا الشيطان ، إذ سمى ـ سبحانه ـ قيادة الشيطان لأتباعه هداية ..

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن النضر بن الحارث أو العاص بن وائل ، أو أبى جهل .. وكانوا يجادلون النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم بالباطل.

ومن المعروف أن نزول هاتين الآيتين في شأن هؤلاء الأشخاص ، لا يمنع من عمومهما في

---

(١) سورة الزخرف الآية ٥٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ١٤٣.

شأن كل من كان على شاكلة هؤلاء الأشقياء ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولذا قال صاحب الكشاف : «وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز ، من الصفات والأفعال. ولا يرجع إلى علم. ولا يعض فيه بضرس قاطع ، وليس فيه اتباع للبرهان ، ولا نزول على النصفة ، فهو يخبط خبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل» (١).

ثم ساق ـ سبحانه ـ أهم القضايا التي جادل فيها المشركون بغير علم ، واتبعوا في جدالهم خطوات الشيطان ، وهي قضية البعث ، وأقام الأدلة على صحتها ، وعلى أن البعث حق وواقع فقال ـ تعالى ـ :

(يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)(٧)

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٤٣.

قال أبو حيان في البحر : لما ذكر ـ سبحانه ـ من يجادل في قدرة الله بغير علم ، وكان جدالهم في الحشر والمعاد ، ذكر دليلين واضحين على ذلك. أحدهما : في نفس الإنسان وابتداء خلقه. وتطوره في أطوار سبعة ، وهي : التراب ، والنطفة ، والعلقة ، والمضغة ، والإخراج طفلا ، وبلوغ الأشد ، والتوفي أو الرد إلى أرذل العمر.

والدليل الثاني : في الأرض التي يشاهد تنقلها من حال إلى حال فإذا اعتبر العاقل ذلك ثبت عنده جوازه عقلا ، فإذا ورد الشرع بوقوعه ، وجب التصديق به ، وأنه واقع لا محالة (١).

والمراد بالناس هنا : المشركون وكل من كان على شاكلتهم في إنكار أمر البعث واستبعاده ، لأن المؤمنين يعترفون بأن البعث حق ، وأنه واقع بلا أدنى شك أو ريب.

والمعنى : يا أيها الناس إن كنتم في شك من أمر إعادتكم الى الحياة مرة أخرى للحساب يوم القيامة ، فانظروا وتفكروا في مبدأ خلقكم ، فإن هذا التفكر من شأنه أن يزيل هذا الشك ، لأن الذي أوجدكم الإيجاد الأول. وخلقكم من التراب ، قادر على إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى ، إذ الإعادة ـ كما يعرف كل عاقل ـ أيسر من ابتداء الفعل.

وقد قرب ـ سبحانه ـ هذا المعنى في أذهانكم في آيات كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

وأتى ـ سبحانه ـ بأن المفيدة للشك فقال : ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ مع أن كونهم في ريب أمر محقق تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه ، وتنزيها لموضوع البعث عن أن يتحقق الشك فيه من أى عاقل ، وتوبيخا لهم لوضعهم الأمور في غير مواضعها.

ووجه الإتيان بفي الدالة على الظرفية ، للإشارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف.

قال الآلوسى : «وقوله ﴿فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ دليل جواب الشرط ، أو هو الجواب بتأويل ، أى : إن كنتم في ريب من البعث ، فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم ، فإنا خلقناكم من تراب ، وخلقهم من تراب في ضمن خلق أبيهم آدم منه ...» (٣).

وقال بعض العلماء ما ملخصه : والتحقيق في معنى قوله ـ تعالى ـ ﴿فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٦ ص ٣٥١.

(٢) سورة الروم الآية ٢٧.

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١١٦.

تُرابٍ﴾ : أنه ـ سبحانه ـ خلق أباهم آدم منه ، ثم خلق من آدم زوجه حواء ، ثم خلق الناس منهما عن طريق التناسل.

فلما كان أصلهم الأول من تراب ، أطلق عليهم أنه خلقهم من تراب ؛ لأن الفروع تتبع الأصل. وعلى ذلك يكون خلقهم من تراب هو الطور الأول ..» [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ الطور الثاني من أطوار خلق الإنسان فقال : ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهذا اللفظ مأخوذ من النطف ـ بفتح النون مع التشديد وإسكان الطاء ـ بمعنى السيلان والتقاطر. يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر الماء منها بقلة.

والنطفة تطلق في اللغة : على الماء القليل ، والمراد بها هنا : الماء المختلط من الرجل والمرأة عند الجماع ، والمعبر عنه بالمنى.

وقوله ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ هو الطور الثالث. والعلقة جمعها علق ، وهي قطعة من الدم جامدة ، تتحول إليها النطفة.

وقوله ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ هو الطور الرابع ، والمضغة قطعة صغيرة من اللحم تتحول إليها العلقة.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ صفة للمضغة.

والمراد بالمخلقة : التامة الخلقة ، السالمة من العيوب ، والمراد بغير المخلقة : ما ليست كذلك كأن تكون ناقصة الخلقة.

وقد اكتفى بهذا المعنى صاحب الكشاف فقال : «والمخلقة» المستواة الملساء من النقصان والعيب : يقال : خلق السواك والعود ، إذا سواه وملسه ، من قولهم : صخرة خلقاء ، إذا كانت ملساء. كأن الله ـ تعالى ـ يخلق المضغ متفاوتة. منها ، ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ، ومنها ما هو على عكس ذلك ، فيتبع ذلك التفاوت ، تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم ...» [2].

وقيل : «مخلقة» أى : مستبينة الخلق ، ظاهرة التصوير. «وغير مخلقة» أى : لم يستبن خلقها ولا ظهر تصويرها كالسقط الذي هو مضغة ولم تظهر صورته الإنسانية بعد.

وقيل : «مخلقة» أى : نفخ فيها الروح. «وغير مخلقة» أى : لم ينفخ فيها الروح.

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه صاحب الكشاف واكتفى به أولى بالقبول ، لأنه هو المشهور من

---

(١) أضواء البيان ج ٥ ص ٢٠ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى ـ رحمه‌الله ـ.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٤٤.

كلام العرب. فهم يقولون : حجر أخلق أى : أملس مصمت لا يؤثر فيه شيء ، وصخرة خلقاء ، أى : ليس بها تشويه أو كسر.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ متعلق بقوله : ﴿خَلَقْناكُمْ﴾ أى : خلقناكم على هذا النحو العجيب ، وفي تلك الأطوار البديعة. لنبين لكم كمال قدرتنا ، وبليغ حكمتنا. وأننا لا يعجزنا إعادة كل حي إلى الحياة بعد موته.

وحذف مفعول «نبين» للإشعار بأن أفعاله ـ تعالى ـ الدالة على كمال قدرته ، لا يحيط بها وصف ، ولا تمدها عبارة ..

أى : لنبين لكم عن طريق المشاهدة ، ما يدل على كمال قدرتنا دلالة يعجز الوصف عن الإحاطة بها.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أحوال الناس بعد تمام خلقهم ، وتوارد تلك الأطوار عليهم.

أى : ونقر ونثبت في أرحام الأمهات ما نشاء إقراره وثبوته فيها من الأجنة والأحمال ، إلى أجل معلوم عندنا. وهو الوقت المحدد للولادة والوضع ، وما لم نشأ إقراره من الحمل لفظته الأرحام وأسقطته ، إذ كل شيء بمشيئتنا وإرادتنا.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ بيان للطور الخامس من أطوار خلق الإنسان.

أى : ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم بعد استقراركم فيها إلى الوقت الذي حددناه ، طفلا صغيرا. أى : أطفالا صغارا ، وإنما جاء مفردا باعتبار إرادة الجنس الشامل للواحد والمتعدد ، أو باعتبار كل واحد منهم ، وهو حال من ضمير المخاطبين.

ومن الأساليب العربية المعهودة ، أن الاسم المفرد إذا كان اسم جنس. يكثر إطلاقه على الجمع ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً﴾ أى : أئمة. وقوله ـ سبحانه ـ ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً ..﴾ أى : أنفسا ، ومن هذا القبيل قول الشاعر :

وكان بنو فزارة شرّ عمّ فكنت لهم كشر بنى الأخينا

أى : شر أعمام.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ بيان للطور السادس ، والأشد : قوة الإنسان وشدته واشتعال حرارته ، من الشدة بمعنى الارتفاع والقوة ، يقال : شد النهار إذا ارتفع ، وهو

مفرد جاء بصيغة الجمع ، أو جمع لا واحد له ، أو جمع شدة . كأنعم ونعمة ..

قال الآلوسى : «والجملة علة لنخرجكم ، وهي معطوفة على علة أخرى مناسبة لها.

كأنه قيل : ثم نخرجكم لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا أشدكم ، أى كمالكم في القوة والعقل والتمييز .. وقيل : علة لمحذوف. والتقدير : ثم نمهلكم لتبلغوا أشدكم ...

وتقديم التبيين «لنبين لكم» على ما بعده ، مع أن حصوله بالفعل بعد الكل ، للإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات.

وإعادة اللام في «لتبلغوا» مع تجريد «نقر ، ونخرج» عنها ، للإشعار بأصالة البلوغ بالنسبة إلى الإقرار والإخراج إذ عليه يدور التكليف المؤدى إلى السعادة والشقاوة» [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ بيان للطور السابع والأخير.

أى : منكم ـ أيها الناس ـ من يبلغ أشده في هذه الحياة ، ومنكم من يموت قبل ذلك ، ومنكم من يعيش إلى أرذل العمر أى : أخسه وأدونه ، فيصير من بعد علمه بالأشياء وفهمه لها ، لا علم له ولا فهم ، شأنه في ذلك شأن الأطفال.

قال ـ تعالى ـ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ* ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾ فالآية الكريمة تصور أطوار خلق الإنسان ومراحل حياته أكمل تصوير ، للتنبيه على مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ وعلى أن البعث حق وصدق.

وبعد إقامة هذا الدليل من نفس الإنسان وتطور خلقه على صحة البعث ، ساق ـ سبحانه ـ الدليل الثاني عن طريق مشاهدة الأرض وتنقلها من حال إلى حال ، فقال ـ تعالى ـ ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

وقوله : ﴿هامِدَةً﴾ أى : يابسة ، يقال : همدت الأرض تهمد ـ بضم الميم ـ همودا ، إذا يبست.

ومعنى : «اهتزت» : تحركت ، يقال : هز فلان الشيء فاهتز ، إذا حركه فتحرك.

ومعنى : «ربت» زادت بسبب تداخل الماء والنبات فيها ، يقال : ربا الشيء يربو ربوا ، إذا زاد ونما ، ومنه الربا والربوة.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١١٧.

أي : وترى ـ أيها العاقل ـ ببصرك الأرض يابسة لا نبات فيها ، فإذا ما أنزلنا عليها بقدرتنا الماء ، تحركت بسبب خروج النبات منها ، وانتفخت بسبب ما يتخللها من الماء والنبات ، وأنبتت بعد ذلك من كل صنف بهيج نضر حسن المنظر.

وشبيه بهذه الآية في أن إحياء الأرض بعد موتها دليل على إحياء الناس بعد موتهم ، بقدرة الله ـ تعالى ـ وإرادته ، قوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يدل على وحدانيته وقدرته فقال : ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى ، وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

واسم الإشارة يعود إلى المذكور من خلق الإنسان وإحياء الأرض بعد موتها ..

أى : ذلك الذي ذكرناه لكم دليل واضح ، وبرهان قاطع ، على أن الله ـ تعالى ـ هو الإله الحق ، الذي يجب أن تخلصوا له العبادة والطاعة ، لأنه هو وحده الخالق لكل شيء ، ولأنه هو وحده الذي يعيد الموتى إلى الحياة ، ولأنه هو وحده الذي لا يعجزه شيء.

وخص ـ سبحانه ـ إحياء الموتى بالذكر ، مع أنه من جملة الأشياء المقدور عليها. للتصريح بما هو محل النزاع وهو البعث ، ولدحض شبه المنكرين له.

ثم أكد ـ سبحانه ـ ذلك تأكيدا دامغا فقال : ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ وما تشتمل عليه من حساب وثواب وعقاب ﴿آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها﴾ أى : لا ريب ولا شك في إتيانها في الوقت الذي يريده الله ـ تعالى ـ ..

﴿وَأَنَّ اللهَ﴾ ـ تعالى ـ وحده ﴿يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ليحاسبهم على أعمالهم.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت أعظم الأدلة وأوضحها على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، وعلى أن البعث حق وصدق وأنه آت لا ريب فيه.

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك نموذجين لصنفين من الناس ، أحدهما : متكبر مغرور ، والآخر مذبذب لا ثبات له في عقيدة فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٩.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (٨) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (٩) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾(١٣)

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : «لما ذكر ـ تعالى ـ حال الضلال الجهال المقلدين لغيرهم في الآية الثالثة من هذه السورة وهي قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾ ، ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفر والبدع ، فقال : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾ أى : بلا عقل صحيح. ولا نقل صحيح صريح بل بمجرد الرأى والهوى» [1].

ولعل مما يؤيد ما ذهب إليه ابن كثير من أن الآية الثالثة من هذه السورة في شأن المقلدين لغيرهم ، أنه ـ سبحانه ـ قال فيها في شأنهم : ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾.

أما في هذه الآية فقد قال في شأن هذا النوع من الناس : ﴿ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ...﴾ أى : ليضل غيره ويصرفه عن طاعة الله ـ تعالى ـ واتباع طريقه الحق.

وقد نفت الآية الكريمة عن هذا المجادل ، استناده إلى أى دليل أو ما يشبه الدليل ، فهو يجادل في ذات الله ـ تعالى ـ وفي صفاته «بغير علم» يستند إليه وبغير «هدى» يهديه

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٩٤.

ويرشده إلى الحق وبغير «كتاب منير» أى : وبغير وحى ينير عقله وقلبه ، ويوضح له سبيل الرشاد.

فأنت ترى أن الآية قد جردت هذا المجادل من أى مستند إليه في جداله سواء كان عقليا أم نقليا ، بل أثبتت له الجهالة من جميع الجهات.

ثم صورته السورة الكريمة بعد ذلك بتلك الصورة المزرية ، صورة الجاهل المغرور المتعجرف ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾.

وقوله ﴿ثانِيَ﴾ من الثّنى بمعنى اللّيّ والميل عن الاستقامة. يقال : فلان ثنى الشيء إذا رد بعضه على بعض فانثنى أى : مال والتوى.

والعطف ـ بكسر العين ـ الجانب ، وهذا التعبير كناية عن غروره وصلفه مع جهله. أى : أنه مع جداله بدون علم ، متكبر معجب بنفسه ، معرض عن الحق ، مجتهد في إضلال غيره عن سبيل الله ـ تعالى ـ وعن الطريق الذي يوصل إلى الرشاد.

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة هذا الجاهل المغرور المضل لغيره فقال : و ﴿لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ﴾ أى : هوان وذلة وصغار.

﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ أى : ونجعله يوم القيامة يدرك طعم العذاب المحرق. ويصطلى به جزاء غروره وشموخه في الدنيا بغير حق.

وتقول له ملائكتنا وهي تصب عليه ألوان العذاب ﴿ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ﴾ أى : ذلك الذي تتذوقه من عذاب محرق سببه : جهلك وغرورك وإصرارك على الكفر ، وحرصك على إضلالك لغيرك.

وأسند ـ سبحانه ـ سبب ما نزل بهذا الكافر من خزي وعذاب إلى يديه ، لأنهما الجارحتان اللتان يزاول بهما أكثر الأعمال.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بيان لعدله ـ تعالى ـ مع عباده ، أى : وأن الله ـ تعالى ـ ليس بذي ظلم لعباده أصلا ، حتى يعذبهم بدون ذنب ، بل هو عادل رحيم بهم ، ومن مظاهر عدله ورحمته أنه يضاعف الحسنات ، ويعاقب على السيئات ، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده.

ثم بين ـ سبحانه ـ نوعا آخر من الناس ، لا يقل جرما عن سابقه فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ ..﴾.

قال صاحب الكشاف : «على حرف» أى : على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه. وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم : لا على سكون وطمأنينة ، كالذي يكون على طرف من العسكر ، فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن ، وإلا فر وطار على وجهه ...» (١).

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال : كان الرجل يقدم المدينة ، فإذا ولدت امرأته غلاما ، ونتجت خيله. قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء ...» (٢).

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد صورت المذبذبين في عقيدتهم أكمل تصوير ، فهم يقيسون العقيدة بميزان الصفقات التجارية ، إن ربحوا من ورائها فرحوا ، وإن خسروا فيها أصابهم الغم والحزن.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ في شأن المنافقين : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (٣).

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ ﴿عَلى حَرْفٍ﴾ يصور هذا النوع من الناس ، وكأنه يترجح في عبادته كما يترجح من يكون على طرف الشيء. فهو معرض للسقوط في أية لحظة.

والمراد من الخير في قوله ـ تعالى ـ ﴿فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ الخير الدنيوي من صحة وغنى ومنافع دنيوية.

أى : فإن نزل بهذا المذبذب في عبادته خير دنيوى ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أى : ثبت على ما هو عليه من عبادة ثباتا ظاهريا ، وليس ثباتا قلبيا حقيقيا كما هو شأن المؤمنين الصادقين الذين لا يزحزحهم عن إيمانهم وعد أو وعيد.

﴿وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أى : مصيبة أو شر ﴿انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ﴾ أى : ارتد ورجع عن عبادته ودينه إلى الكفر والمعاصي.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ بيان لسوء عاقبة صنيعه.

أى : هذا الذي يعبد الله على حرف ، جمع على نفسه خسارتين ، خسارة الدنيا بسبب عدم حصوله على ما يريده منها ، وخسارة الآخرة بسبب ارتداده إلى الكفر وغشيان السيئات ،

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٤٦.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٢٤.

(٣) سورة التوبة الآية ٥٨.

وذلك الذي جمعه على نفسه هو الخسران الواضح ، الذي لا ينازع في شأنه عاقلان ، إذ لا خسران أشد وأظهر ، من الخسران الذي ضيع دنياه وآخرته.

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر خسران هذا المذبذب ، وأحواله القبيحة فقال : ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ..﴾.

أى : يعبد سوى الله ـ تعالى ـ أوثانا وأصناما ، إن ترك عبادتها لا تستطيع أن تضره ، وإن عبدها فلن تستطيع أن تنفعه.

و ﴿ذلِكَ﴾ الذي يفعله هذا الشقي من عبادته لما لا يضر ولا ينفع ﴿هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ بعدا شاسعا عن كل صواب ورشاد.

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى تبكيت هذا المذبذب وتقريعه تقريعا آخر فقال : ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾.

والمولى : هو كل من انعقد بينك وبينه سبب ، يجعلك تواليه ويواليك ، وتناصره ويناصرك. والعشير : هو من يعاشرك ويخالطك في حياتك.

أى : يعبد هذا الإنسان الجاهل المضطرب ، معبودا ضرره أقرب من منفعته ، لبئس الناصر ولبئس الصاحب هذا المعبود.

فإن قيل : كيف نجمع بين هذه الآية التي جعلت المعبود الباطل ضرره أقرب من نفعه ، وبين الآية السابقة عليها والتي نفت الضر والنفع نفيا تاما.

وقد أجاب العلماء عن هذا التساؤل بإجابات منها : أن لفظ «يدعو» في الآية الثانية بمعنى يقول.

وقد صدر الآلوسى تفسيره للآية بهذا الرأى فقال ما ملخصه : «قوله ـ تعالى ـ ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾. استئناف يبين مآل دعائه وعبادته غير الله ـ تعالى ـ ويقرر كون ذلك ضلالا بعيدا. فالدعاء هنا بمعنى القول.

أى : يقول الكافر يوم القيامة برفع صوت ، وصراخ حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه ، ولا يرى منه أثرا مما كان يتوقعه منه من نفع أو دفع ضر : والله لبئس الذي يتخذ ناصرا ـ من دون الله ـ ولبئس الذي يعاشر ويخالط ، فكيف بما هو ضرر محض ، عار عن النفع بالكلية ، وفي هذا من المبالغة في تقبيح حال الصنم والإمعان في ذمه ما لا يخفى ...» [1].

ومنها ما ذكره الإمام القرطبي فقال : قوله ـ تعالى ـ ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ١٢٥.

﴿نَفْعِهِ﴾ أى : هذا الذي انقلب على وجهه يدعو من ضره أدنى من نفعه ، أى : في الآخرة ، لأنه بعبادته دخل النار. ولم ير منه نفعا أصلا ، ولكنه قال : ضره أقرب من نفعه ، ترفيعا للكلام ، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (١).

ومنها : ما ذكره بعض العلماء من أن الآية الأولى في شأن الذين يعبدون الأصنام ، إذ الأصنام لا تنفع من عبدها ، ولا تضر من كفر بها ، ولذا قال فيها : ما لا يضره وما لا ينفعه ، والقرينة على أن المراد بذلك الأصنام : التعبير بلفظة «ما» في قوله : ﴿ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ﴾ لأن لفظ «ما» يأتى ـ غالبا ـ لما لا يعقل. والأصنام لا تعقل.

أما الآية الثانية فهي في شأن من عبد بعض الطغاة من دون الله ، كفرعون القائل لقومه : «ما علمت لكم من إله غيرى» فإن فرعون وأمثاله من الطغاة المعبودين ، قد يغدقون نعم الدنيا على عابديهم. وهذا النفع الدنيوي بالنسبة لما سيلاقونه من عذاب لا شيء. فضر هذا المعبود بخلود عابده في النار. أقرب من نفعه بعرض قليل زائل من حطام الدنيا.

والقرينة على أن المراد بالمعبود الباطل في الآية الثانية بعض الطغاة الذين هم من جنس العقلاء : هي التعبير «بمن» التي تأتى ـ غالبا ـ لمن يعقل ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ..﴾ (٢).

ويبدو لنا أن هذا القول الأخير له وجه من القبول.

وبذلك نرى السورة الكريمة قد ساقت لنا نماذج من أحوال الناس في هذه الحياة. لكي يحذرهم المؤمنون ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.

ثم بينت السورة الكريمة ما أعده الله ـ تعالى ـ للمؤمنين الصادقين من حسن الثواب ، بعد أن صرحت بما توعد به ـ سبحانه ـ المجادلين فيه بغير علم بسوء العقاب ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ﴾(١٤)

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١٨.

(٢) أضواء البيان ج ٥ ص ٤٨ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى.

أى : إن الله ـ تعالى ـ بفضله وكرمه ، يدخل عباده «الذين آمنوا» إيمانا حقا ، «وعملوا» الأعمال «الصالحات جنات تجرى من» تحت أشجارها ، «الأنهار» إن الله ـ تعالى ـ يفعل ما يريد فعله على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته دون أن ينازعه في ذلك منازع. أو يعارضه معارض ، فهو ـ سبحانه ـ لا يسأل عما يفعل.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن نصره لنبيه ﷺ آت لا شك فيه مهما كره ذلك الكارهون ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (١٥) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ (١٦)

وللعلماء في تفسير الآية الأولى أقوال :

أولها أن الضمير في قوله ﴿يَظُنُّ﴾ يعود إلى أعداء النبي ﷺ وفي قوله ﴿يَنْصُرَهُ﴾ يعود إليه ﷺ والمعنى : «من كان يظن» من الكافرين الكارهين للحق الذي جاء به محمد ﷺ «أن لن ينصره الله». أى : أن لن ينصر الله نبيه ﷺ «في الدنيا والآخرة فليمدد» هذا الكافر «بسبب» أى : بحبل إلى السماء ، أى : سقف بيته ، لأن العرب تسمى كل ما علاك فهو سماء.

«ثم ليقطع» ثم ليختنق هذا الكافر بهذا الحبل ، بأن يشده حول عنقه ويتدلى من الحبل المعلق بالسقف حتى يموت.

«فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ» أى : فليتفكر هذا الكافر في أمره ، هل يزيل فعله هذا ما امتلأت به نفسه من غيظ لنصر الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ ؟

كلا ، فإن ما يفعله بنفسه من الاختناق والغيظ ، لن يغير شيئا من نصر الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ ، فليمت هذا الكافر بغيظه وكيده.

فالمقصود بالآية الكريمة : بيان أن ما قدره الله ـ تعالى ـ من نصر لنبيه ﷺ لن

يحول بين تنفيذه حائل ، مهما فعل الكافرون ، وكره الكارهون ، فليموتوا بغيظهم ، فإن الله ـ تعالى ـ ناصر نبيه لا محالة.

وصح عود الضمير في قوله ﴿أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ﴾ إلى النبي ﷺ مع أنه لم يسبق له ذكر ، لأن الكلام دال عليه في الآيات السابقة ، إذ المراد بالإيمان في قوله ـ تعالى ـ في الآية السابقة ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ...﴾ الإيمان بصدق النبي ﷺ فيما جاء به عند ربه ـ تعالى ..

وعبر ـ سبحانه ـ عن اختناق هذا الحاقد بالحبل بقوله : ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ لأن قطع الشيء يؤدى إلى انتهائه وهلاكه ، والمفعول محذوف. والتقدير : ثم ليقطع نفسه أو حياته.

وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره للآية بهذا القول فقال : هذا كلام قد دخله اختصار.

والمعنى : إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة ، فمن كان يظن من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك .. فليستقص وسعه ، وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه. بأن يفعل ما يفعله من بلغ به الغيظ كل مبلغ ، حتى مد حبلا إلى سماء بيته فاختنق ، فلينظر ـ هذا الحاسد ـ وليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه؟

وسمى ـ سبحانه ـ فعل هذا الكافر كيدا ، لأنه وضعه موضع الكيد ، حيث لم يقدر على غيره ، أو سماه كذلك على سبيل الاستهزاء ، لأنه لم يكد به محسوده ، إنما كاد نفسه.

والمراد : إنه ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه ...» [1].

وثانيها : إن الضمير في قوله : ﴿لَنْ يَنْصُرَهُ﴾ يعود إلى «من» في قوله ﴿مَنْ كانَ يَظُنُّ﴾ وأن النصر هنا بمعنى الرزق ..

فيكون المعنى : من كان من الناس يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة فليختنق ، وليقتل نفسه ، إذ لا خير في حياة ليس فيها رزق الله وعونه ، أو فليختنق ، فإن اختناقه لن يغير شيئا مما قضاه الله ـ تعالى ..

قال الآلوسى : واستظهر أبو حيان كون الضمير في «ينصره» عائدا على «من» لأنه المذكور ، وحق الضمير أن يعود على مذكور ... وفسر النصر بالرزق.

قال أبو عبيدة : وقف علينا سائل من بنى بكر فقال : من ينصرني نصره الله ـ أى : من يرزقني رزقه الله.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٤٨.

والمعنى : أن الأرزاق بيد الله ـ تعالى ـ لا تنال إلا بمشيئته ، فمن ظن أن الله ـ تعالى ـ غير رازقه ، ولم يصبر ولم يستسلم فليختنق ، فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يرده مرزوقا.

والغرض : الحث على الرضا بما قسمه الله ـ تعالى ـ لا كمن يعبده على حرف ... [1].

وثالثها : أن الآية في قوم من المسلمين استبطئوا نصر الله ـ تعالى ـ لاستعجالهم وشدة غيظهم وحنقهم على المشركين ، فنزلت الآية لبيان أن كل شيء عند الله بمقدار.

ويكون المعنى : من كان من الناس يظن أن لن ينصره الله ، واستبطأ حدوث ذلك ، فليمت غيظا. لأن للنصر على المشركين وقتا لا يقع إلا فيه بإذن الله ومشيئته.

ويبدو أن أقرب الأقوال إلى الصواب ، القول الأول ، وعليه جمهور المفسرين ، ويؤيده قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ [2].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿... وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ [3].

ثم مدح ـ سبحانه ـ القرآن الكريم فقال : ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ ...﴾ أى : ومثل ذلك الإنزال البليغ الواضح ، أنزلنا القرآن آيات بينات الدلالة على معانيها الحكيمة ، وتوجيهاتها السديدة.

وأن الله ـ تعالى ـ يهدى من يريد هدايته إلى صراطه المستقيم ، فهو الهادي الذي ليس هناك من هاد سواه.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن مرد الفصل بين الفرق المختلفة إليه وحده. إذ هو العليم بكل ما عليه كل فرقة من حق أو باطل ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١٧)

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٢٧.

(٢) سورة غافر الآية ٥١.

(٣) سورة آل عمران الآية ١١٩.

ففي هذه الآية الكريمة حدثنا القرآن عن ست فرق من الناس : أما الفرقة الأولى ، فهي : فرقة الذين آمنوا ، والمراد بهم : الذين آمنوا بالنبي ﷺ وصدقوه واتبعوه.

وابتدأ القرآن بهم ، للإشعار بأن دين الإسلام هو الدين الحق ، القائم على أساس أن الفوز برضا الله ـ تعالى ـ لا ينال إلا بالإيمان والعمل الصالح ، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾.

وأما الفرقة الثانية فهي فرقة الذين هادوا أى : صاروا يهودا. يقال : هاد فلان وتهود أى : دخل في اليهودية.

وسموا يهودا نسبة إلى «يهوذا» أحد أولاد يعقوب ـ عليه‌السلام ـ ، وقلبت الذال دال عند التعريب. أو سموا يهودا حين تابوا من عبادة العجل مأخوذ من هاد يهود هودا بمعنى تاب. ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ﴾ أى : تبنا إليك.

والفرقة الثالثة هي فرقة «الصابئين» جمع صابئ ، وهو الخارج من دين إلى آخر.

يقال : صبأ الظّلف والناب والنجم ـ كمنع وكرم ـ إذا طلع.

والمراد بهم : الخارجون من الدين الحق إلى الدين الباطل. وهم قوم يعبدون الكواكب والملائكة ويزعمون أنهم على دين صابئ بن شيث بن آدم.

والفرقة الرابعة هي فرقة «النصارى» جمع نصران بمعنى نصراني كندامى وندمان. والياء في نصراني للمبالغة ، وهم قوم عيسى ـ عليه‌السلام ـ ، قيل : سموا بذلك لأنهم كانوا أنصارا له : وقيل : إن هذا الاسم مأخوذ من الناصرة ، وهي القرية التي كان عيسى قد نزل بها.

وأما الفرقة الخامسة فهي فرقة «المجوس» وهم قوم يعبدون الشمس والقمر والنار. وقيل : هم قوم أخذوا من دين النصارى شيئا ، ومن دين اليهود شيئا ، ويقولون : بأن للعالم أصلين : نورا وظلمة ..

وأما الفرقة السادسة والأخيرة فهي فرقة الذين أشركوا. والمشهور أنهم عبدة الأصنام والأوثان ، وقيل ما يشملهم ويشمل معهم كل من اتخذ مع الله ـ تعالى ـ إلها آخر.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بيان لما سيكون عليه حالهم جميعا يوم القيامة ، من حكم عادل سيحكم الله ـ تعالى ـ به عليهم.

أى : إن الله تعالى يحكم بين هؤلاء جميعا بحكمه العادل يوم القيامة ، إنه ـ سبحانه ـ على

كل شيء شهيد ، بحيث لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه.

قال الجمل ما ملخصه : ولهذه الآية قيل : الأديان ستة. واحد للرحمن وهو الإسلام. وخمسة للشيطان وهي ما عداه. وإنّ الثانية واسمها وخبرها في محل رفع خبر لإن الأولى.

وقوله : ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل لقوله : ﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ..﴾ وكأن قائلا قال : أهذا الفصل عن علم أو لا؟ فقيل : إن الله على كل شيء شهيد. أى : علم به علم مشاهدة» (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ أن الكون كله يخضع لسلطانه ـ تعالى ـ ويسجد لوجهه فقال :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾(١٨)

والاستفهام في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ ...﴾ للتقرير. والرؤية هنا بمعنى العلم وذلك لأن سجود هذه الكائنات لله ـ تعالى ـ آمنا به عن طريق الإخبار دون أن نرى كيفيته.

والسجود في اللغة : التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وما يشبهه. وخص في الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة.

والمراد به هنا : دخول الأشياء جميعها تحت قبضة الله ـ تعالى ـ وتسخيره وانقيادها لكل ما يريده منا انقيادا تاما ، وخضوعها له ـ عزّ وجلّ ـ بكيفية هو الذي يعلمها. فنحن نؤمن بأن هذه الكائنات تسجد لله ـ تعالى ـ ونفوض كيفية هذا السجود له ـ تعالى ..

والمعنى : لقد علمت ـ أيها العاقل ـ أن الله ـ تعالى ـ يسجد له ، ويخضع لسلطانه جميع من في السموات وجميع من في الأرض.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٥٨.

وقوله : ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ عطف خاص على قوله : ﴿مَنْ فِي السَّماواتِ﴾.

ونص ـ سبحانه ـ عليها مفردا إياها بالذكر ، لشهرتها ، ولاستبعاد بعضهم حدوث السجود منها ، ولأن آخرين كانوا يعبدون هذه الكواكب ، فبين ـ سبحانه ـ أنها عابدة وساجدة لله ، وليست معبودة.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُ﴾ عطف خاص على ﴿مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ونص ـ سبحانه ـ عليها ـ أيضا ـ لأن بعضهم كان يعبدها ، أو يعبد ما يؤخذ منها كالأصنام.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ بيان الذين اهتدوا إلى طريق الحق.

أى : ويسجد له ـ كذلك ـ كثير من الناس ، وهم الذين خلصت عقولهم من شوائب الشرك والكفر ، وطهرت نفوسهم من الأدناس والأوهام.

وقوله : ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ﴾ بيان لحال الذين استحبوا العمى على الهدى.

أى : وكثير من الناس حق وثبت عليهم العذاب ، بسبب إصرارهم على الكفر ، وإيثارهم الغي على الرشد.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بما يدل على نفاذ قدرته ، وعموم مشيئته فقال : ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ. إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾.

و «من» شرطية ، وجوابها : «فما له من مكرم» ومكرم اسم فاعل من أكرم.

أى : ومن يهنه الله ويخزه ، فما له من مكرم يكرمه ، أو منقذ ينقذه مما هو فيه من شقاء ، إن الله ـ تعالى ـ يفعل ما يشاء فعله بدون حسيب يحاسبه ، أو معقب يعقب على حكمه (١).

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾.

* * *

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك صورة فيها ما فيها من وجوه المقارنات بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين. لكي ينحاز كل ذي عقل سليم إلى فريق الإيمان لا الكفر ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُ

---

(١) سورة الرعد الآية ٤١.

مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ﴾(٢٤)

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله ـ تعالى ـ ﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ...﴾ روايات أشار الإمام ابن كثير إلى معظمها فقال : «ثبت في الصحيحين عن أبي ذر : أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية ﴿هذانِ خَصْمانِ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه. وعتبة وصاحبيه ، يوم برزوا في بدر.

وعن قتادة قال : اختصم المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : كتابنا يقضى على الكتب كلها ، ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولى بالله منكم ، فأفلج الله الإسلام على من ناوأه ـ أى فنصر الله الإسلام ـ ، وأنزل الآية.

وعن مجاهد في الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث.

وهذا القول يشمل الأقوال كلها ، وينتظم فيه قصة بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان [1].

أى : هذان خصمان اختصموا في ذات ربهم وفي صفاته ، بأن اعتقد كل فريق منهم أنه على الحق ، وأن خصمه على الباطل.

قال الجمل : والخصم في الأصل مصدر ولذلك يوحد ويذكر غالبا ، وعليه قوله

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٠١.

. تعالى . : ﴿وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ﴾ [(١)] ويجوز أن يثنى ويؤنث ، ولما كان كل خصم فريقا يجمع طوائف قال : ﴿اخْتَصَمُوا﴾ بصيغة الجمع كقوله . تعالى . : ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ فالجمع مراعاة للمعنى [(٢)].

وقوله . سبحانه . : ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ ...﴾ تفصيل وبيان لحال كل خصم وفريق.

أى : فالذين كفروا جزاؤهم أنهم قطع الله . تعالى . لهم من النار ثيابا ، وألبسهم إياها.

قال الآلوسى : أى أعد الله لهم ذلك ، وكأنه شبه إعداد النار المحيطة بهم بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر جثثهم. ففي الكلام استعارة تمثيلية تهكمية ، وليس هناك تقطيع ثياب ولا ثياب حقيقة. وكأن جمع الثياب للإيذان بتراكم النار المحيطة بهم ، وكون بعضها فوق بعض .. وعبر بالماضي ، لأن الإعداد قد وقع ، فليس من التعبير بالماضي لتحققه .. [(٣)].

وقوله : ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ زيادة في عذابهم ، أى : لم تقطع لهم ثياب من نار فحسب ، وإنما زيادة على ذلك يصب من فوق رءوسهم «الحميم» أى : الماء البالغ أقصى درجات الشدة في الحرارة.

وقوله : ﴿يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ بيان للآثار التي تترتب على هذا العذاب.

والفعل «يصهر» مأخوذ من الصهر بمعنى الإذابة. يقال : صهر فلان الشحم يصهره إذا أذابه.

أى : فذلك الحميم الذي يصب من فوق رءوسهم من آثاره أنه يذاب به ما في بطونهم من الشحوم والأحشاء. كما تذاب به جلودهم . أيضا . فقوله : ﴿وَالْجُلُودُ﴾ عطف على ﴿ما﴾ الموصولة في قوله ﴿ما فِي بُطُونِهِمْ﴾ أى : يذاب به الذي في بطونهم وتذاب به أيضا جلودهم.

وقيل : إن لفظ الجلود مرفوع بفعل محذوف معطوف على «يصهر».

والتقدير : يصهر به ما في بطونهم من أحشاء وشحوم ، وتحرق به الجلود. قالوا : وذلك لأن الجلود لا تذاب وإنما تنقبض وتنكمش إذا أصليت بالنار.

والضمير في قوله . سبحانه . : ﴿وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ يعود إلى الكفرة المعذبين بهذا الحميم الذي تصهر به البطون.

---

(١) سورة ص الآية ٢١.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٥٩.

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٣٤.

والمقامع : جمع مقمعة . بكسر الميم وسكون القاف وفتح الميم الثانية . ، وهي آلة تستعمل في القمع عن الشيء ، والزجر عنه ، يقال : قمع فلان فلانا إذا قهره وأذله.

أى : وخصصت لهؤلاء الكافرين مضارب من حديد تضربهم بها الملائكة على رءوسهم زيادة في إذلالهم وقهرهم.

وقيل : إن الضمير في «لهم» يعود على خزنة النار. أى : ولخزنة النار مضارب من حديد يضربون بها هؤلاء الكافرين.

وعلى كلا القولين فالآية الكريمة تصور هوان هؤلاء الكافرين أكمل تصوير.

وقوله . سبحانه . : ﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها﴾ بيان لما يقابلون به عند ما يريدون التزحزح عن النار.

أى : كلما أراد هؤلاء الكافرون أن يخرجوا من النار ومن غمها وكربها وسعيرها : أعيدوا فيها مرة أخرى ، كما قال . تعالى . : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾ [1].

وقوله . تعالى . : ﴿وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ مقول لقول محذوف أى : أعيدوا فيها وقيل لهم على لسان خزنة النار : ذوقوا العذاب المحرق لأبدانكم.

هذا هو حال فريق الكافرين. وهو حال يزلزل القلوب ويرهب المشاعر ، ويفزع النفوس.

ولكن القرآن كعادته في قرن الترهيب بالترغيب. لا يترك النفوس في هذا الفزع ، بل يتبع ذلك بما يمسح عنها خوفها ورعبها عن طريق بيان حسن حال المؤمنين فيقول : ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ...﴾.

وغير . سبحانه . الأسلوب فلم يقل : والذين آمنوا على سبيل العطف على الذين كفروا .. تعظيم لشأن المؤمنين ، وإشعار بمباينة حالهم لحال خصمائهم الكافرين.

أى : إن الله . تعالى . بفضله وإحسانه يدخل عباده الذين آمنوا وعملوا في دنياهم الأعمال الصالحات ، جنات عاليات تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار.

وقوله ﴿يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ﴾ بيان لما ينالون في تلك الجنات من خير وفير ، وعطاء جزيل.

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٧.

اى : يتزينون في تلك الجنات بأساور كائنة من الذهب الخالص ، ومن اللؤلؤ الثمين ، أما لباسهم الدائم فيها فهو من الحرير الناعم الفاخر.

قال الآلوسى : وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ﴾ غير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريرا ، للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان .. ثم إن الظاهر أن هذا الحكم عام في كل أهل الجنة ، وقيل هو باعتبار الأغلب ، لما أخرجه النسائي وابن حيان وغيرهما عن أبى سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة. وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه» (١).

قالوا : ومحله فيمن مات مصرا على ذلك.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ﴾ بيان لحسن خاتمتهم ، ولعظم النعم التي أنعم الله بها عليهم.

أى : وهدى الله ـ تعالى ـ هؤلاء المؤمنين إلى القول الطيب الذي يرضى الله ـ تعالى ـ عنهم ، كأن يقولوا عند دخولهم الجنة : ﴿... الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ* الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾ (٢).

وهداهم ـ أيضا ـ خالقهم إلى الصراط المحمود ، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان والإسلام ، فصاروا بسبب هذه النعمة يقولون الأقوال الطيبة ، ويفعلون الأفعال الحميدة.

قال الشوكانى : قوله : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ...﴾ أى : أرشدوا إليه. قيل : هو لا إله إلا الله. وقيل : القرآن. وقيل : هو ما يأتيهم من الله من بشارات. وقد ورد في القرآن ما يدل على هذا القول المجمل هنا ، وهو قوله ـ سبحانه ـ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ .. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا ... الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ..﴾.

ومعنى : ﴿وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ﴾ أنهم أرشدوا إلى الصراط المحمود وهو طريق الجنة ، أو صراط الله الذي هو دينه القويم وهو الإسلام (٣).

وبعد هذا الحديث المؤثر عن الخصمين وعن عاقبة كل منهما .. جاء الحديث عن المسجد

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٣٦.

(٢) سورة فاطر الآيتان ٣٤ ، ٣٥.

(٣) تفسير فتح القدير ج ٣ ص ٤٤٥.

الحرام ، وعن مكانته ، وعن الأمر ببنائه ، وعن وجوب الحج إليه ، وعن المنافع التي تعود على الحجاج ، وعن سوء مصير من يصد الناس عن هذا المسجد ، جاء قوله ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(٢٩)

قال الإمام الرازي : اعلم أنه ـ تعالى ـ بعد أن فصل بين الكفار والمؤمنين ذكر عظم حرمة البيت ، وعظم كفر هؤلاء الكافرين فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾.

قال ابن عباس : الآية نزلت في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية عن المسجد الحرام ، عن أن يحجوا ويعتمروا ، وينحروا الهدى. فكره رسول الله ﷺ قتالهم ، وكان محرما بعمرة ، ثم صالحوه على أن يعود في العام القادم .. [1].

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ١٥٤.

وصح عطف المضارع وهو «يصدون» على الماضي وهو «كفروا» لأن المضارع هنا لم يقصد به زمن معين من حال أو استقبال، وإنما المراد به مجرد الاستمرار، كما في قولهم: فلان يحسن إلى الفقراء، فإن المراد به استمرار وجود إحسانه.

ويجوز أن يكون قوله ﴿وَيَصُدُّونَ ...﴾ خبرا لمبتدأ محذوف، أى: وهم يصدون عن المسجد الحرام. وخبر إن في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾ محذوف لدلالة آخر الآية عليه.

والمعنى: إن الذين أصروا على كفرهم بما أنزله الله ـ تعالى ـ على نبيه محمد ﷺ، واستمروا على منع أهل الحق من أداء شعائر دين الله ـ تعالى ـ، ومن زيارة المسجد الحرام .. هؤلاء الكافرون سوف نذيقهم عذابا أليما.

ويصح أن يكون الخبر محذوفا للتهويل والإرهاب. وكأن وصفهم بالكفر والصد كاف في معرفة مصيرهم المهين.

قال القرطبي: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ قيل إنه المسجد نفسه وهو ظاهر القرآن، لأنه لم يذكر غيره، وقيل الحرم كله، لأن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عنه عام الحديبية، فنزل خارجا عنه ... وهذا صحيح لكنه قصد هنا بالذكر المهم المقصود من ذلك (١).

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ ..﴾ تشريف لهذا المكان حيث جعل الله ـ تعالى ـ الناس تحت سقفه سواء، وتشنيع على الكافرين الذين صدوا المؤمنين عنه.

ولفظ «سواء» قرأه جمهور القراء بالرفع على أنه خبر مقدم، والعاكف: مبتدأ، والباد معطوفة عليه أى: العاكف والباد سواء فيه. أى مستويان فيه.

وقرأه حفص عن عاصم بالنصب على أنه المفعول الثاني لقوله «جعلناه» بمعنى صيرناه. أى: جعلناه مستويا فيه العاكف والباد. ويصح أن يكون حالا من الهاء في ﴿جَعَلْناهُ﴾ أى: وضعناه للناس حال كونه سواء العاكف فيه والباد.

والمراد: بالعاكف فيه: المقيم فيه. يقال: عكف فلان على الشيء، إذا لازمه ولم يفارقه. والباد: الطارئ عليه من مكان آخر. وأصله من يكون من أهل البوادي الذين يسكنون المضارب والخيام، ويتنقلون من مكان إلى آخر.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٣٢.

أى : جعلناه للناس على العموم ، يصلون فيه ، ويطوفون به ، ويحترمونه ويستوي تحت سقفه من كان مقيما في جواره ، وملازما للتردد عليه ، ومن كان زائرا له وطارئا عليه من أهل البوادي أو من أهل البلاد الأخرى سوى مكة.

فهذا المسجد الحرام يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحد منهم ، بل الكل فوق أرضه وتحت سقفه سواء.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ تهديد لكل من يحاول ارتكاب شيء نهى الله عنه في هذا المسجد الحرام.

والإلحاد الميل. يقال : ألحد فلان في دين الله ، أى : مال وحاد عنه.

و «من» شرطية وجوابها «نذقه» ومفعول «يرد» محذوف لقصد التعميم. أى : ومن يرد فيه مرادا بإلحاد ، ويصح أن يكون المفعول قوله ﴿بِإِلْحادٍ﴾ على أن الباء زائدة.

أى : ومن يرد في هذا المسجد الحرام إلحادا ، أى : ميلا وحيدة عن أحكام الشريعة وآدابها بسبب ظلمه وخروجه عن طاعتنا ، نذقه من عذاب أليم لا يقادر قدره ، ولا يكتنه كنهه.

وقد جاء هذا التهديد في أقصى درجاته لأن القرآن توعد بالعذاب الأليم كل من ينوى ويريد الميل فيه عن دين الله ، وإذا كان الأمر كذلك ، فمن ينوى ويفعل يكون عقابه أشد ، ومصيره أقبح.

ويدخل تحت هذا التهديد كل ميل عن الحق إلى الباطل ، أو عن الخير إلى الشر كالاحتقار ، والغش.

ولذا قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال في ذلك : وأولى الأقوال التي ذكرناها في تأويل ذلك بالصواب : القول الذي ذكرناه من أن المراد بالظلم في هذا الموضع ، كل معصية لله ، وذلك لأن الله عم بقوله : ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ﴾ ولم يخصص به ظلما دون ظلم في خبر ولا عقل ، فهو على عمومه ، فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الكلام : ومن يرد في المسجد الحرام بأن يميل بظلم فيعصى الله فيه ، نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له [1].

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن بناء البيت وتطهيره فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ...﴾.

وبوأنا من التبوؤ بمعنى النزول في المكان. يقال : بوأته منزلا أى : أنزلته فيه ، وهيأته له ، ومكنته منه.

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ١٠٥.

والمعنى : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن هيأنا لنبينا إبراهيم مكان بيتنا الحرام ، وأرشدناه إليه ، لكي يبنيه بأمرنا ، ليكون مثابة للناس وأمنا.

قال بعض العلماء : والمفسرون يقولون بوأه له ، وأراه إياه ، بسبب ريح تسمى الخجوج ، كنست ما فوق الأساس : حتى ظهر الأساس الأول الذي كان مندرسا ، فبناه إبراهيم وإسماعيل عليه ... وأن محل البيت كان مربض غنم لرجل من جرهم.

وغاية ما دل عليه القرآن : أن الله بوأ مكانه لإبراهيم ، فهيأه له ، وعرفه إياه ليبنيه في محله ، وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أن أول من بناه إبراهيم ولم يبن قبله.

وظاهر قوله ـ تعالى ـ على لسان إبراهيم : ﴿رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ...﴾ يدل على أنه كان مبنيا واندرس كما يدل عليه ـ أيضا ـ قوله هنا ﴿مَكانَ الْبَيْتِ﴾ لأنه يدل على أن له مكانا سابقا كان معروفا (١).

و «أن» في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ مفسرة ، والتفسير ـ كما يقول الآلوسى ـ باعتبار أن التبوئة من أجل العبادة ، فكأنه قيل : أمرنا إبراهيم بالعبادة ، وذلك فيه معنى القول دون حروفه ، أو لأن بوأناه بمعنى قلنا له تبوأ.

والمعنى : واذكر ـ أيها المخاطب ـ وقت أن هيأنا لإبراهيم ـ **عليه‌السلام** ـ مكان بيتنا الحرام ، وأوصيناه بعدم الإشراك بنا ، وبإخلاص العبادة لنا ، كما أوصيناه ـ أيضا ـ بأن يطهر هذا البيت من الأرجاس الحسية والمعنوية الشاملة للكفر والبدع والضلالات والنجاسات ، وأن يجعله مهيأ للطائفين به ، وللقائمين فيه لأداء فريضة الصلاة.

قال الشوكانى : والمراد بالقائمين في قوله : ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ﴾ المصلون ..

وذكر ﴿الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ بعده ، لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة ، وقرن الطواف بالصلاة ، لأنهما لا يشرعان إلا في البيت ، فالطواف عنده والصلاة إليه (٢).

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أنه لا يجوز أن يترك عند بيت الله الحرام ، قذر من الأقذار ولا نجس من الأنجاس المعنوية ولا الحسية ، فلا يترك فيه أحد يرتكب مالا يرضى الله ، ولا أحد يلوثه بقذر من النجاسات.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ ما أمر به نبيه إبراهيم بعد أن بوأه مكان البيت فقال : ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ، يَأْتُوكَ رِجالاً. وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

---

(١) تفسير أضواء البيان ج ٥ ص ٦٢.

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ٤٤٨.

والآذان : الإعلام. و «رجالا» أى : مشاة على أرجلهم ، جمع راجل.

يقال : رجل بزنة فرح فلان يرجل فهو راجل إذا لم يكن معه ما يركبه.

والضامر : البعير المهزول من طول السفر ، وهو اسم فاعل من ضمر ـ بزنة قعد ـ يضمر ضمورا فهو ضامر ، إذا أصابه الهزال والتعب.

وجملة «يأتين من كل فج عميق» صفة لقوله «كل» ، والجمع باعتبار المعنى. كأنه قيل : وركبانا على ضوامر من كل طريق بعيد ..

والفج في الأصل : الفجوة بين جبلين ، ويستعمل في الطريق المتسع. والمراد به هنا : مطلق الطريق وجمعه فجاج.

والعميق : البعيد ، مأخوذ من العمق بمعنى البعد ، ومنه قولهم : بئر عميقة ، أى : بعيدة الغور.

والمعنى : وأعلم يا إبراهيم الناس بفريضة الحج يأتوك مسرعين مشاة على أقدامهم ، ويأتوك راكبين على دوابهم المهزولة ، من كل مكان بعيد.

قال ابن كثير : أى : ناد ـ يا إبراهيم ـ في الناس داعيا إياهم إلى الحج الى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه ، فذكر أنه قال : يا رب ، وكيف أبلغ الناس وصوتي لا يصل إليهم؟ فقيل : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه ، وقيل : على الحجر ، وقيل : على الصفا ، وقيل : على أبي قبيس ، وقال : يا أيها الناس ، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة : «لبيك اللهم لبيك» (١).

وقيل : إن الخطاب في قوله ـ تعالى ـ : (وَأَذِّنْ ...) للرسول صلى الله عليه وسلم وأن الكلام عن إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ قد انتهى عند قوله ـ تعالى ـ : (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ).

وجمهور المفسرين على أن الخطاب لإبراهيم ـ عليه‌السلام ـ لأن سياق الآيات يدل عليه ، ولأن التوافد على هذا البيت موجود منذ عهد إبراهيم.

وما يزال وعد الله يتحقق منذ هذا العهد الى اليوم وإلى الغد ، وما تزال أفئدة ملايين الناس تهوى إليه ، وقلوبهم تنشرح لرؤيته ، وتسعد بالطواف من حوله ...

وقوله ـ سبحانه ـ : (لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ) متعلق بقوله : (يَأْتُوكَ).

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤١٠.

أى : يأتيك الناس راجلين وراكبين من كل مكان بعيد ، ليشهدوا وليحصلوا منافع عظيمة لهم في دينهم وفي دنياهم.

ومن مظاهر منافعهم الدينية : غفران ذنوبهم ، وإجابة دعائهم ، ورضا الله ـ تعالى ـ عنهم.

ومن مظاهر منافعهم الدنيوية : اجتماعهم في هذا المكان الطاهر ، وتعارفهم وتعاونهم على البر والتقوى ، وتبادلهم المنافع فيما بينهم عن طريق البيع والشراء وغير ذلك من أنواع المعاملات التي أحلها الله ـ تعالى ..

وجاء لفظ «منافع» بصيغة التنكير ، للتعميم والتعظيم والتكثير. أى : منافع عظيمة وشاملة لأمور الدين والدنيا ، وليس في الإمكان تحديدها لكثرتها ، وقوله ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ معطوف على قوله ﴿لِيَشْهَدُوا﴾.

والمراد بالأيام المعلومات : الأيام العشر الأولى من شهر ذي الحجة ، أو هي أيام النحر ، أو يوم العيد وأيام التشريق.

والمراد ببهيمة الأنعام : الإبل والبقر والغنم.

أى : ليشهدوا منافع لهم ، وليكثروا من ذكر الله ومن طاعته في تلك الأيام المباركة. وليشكروه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام التي يتقربون إليه ـ سبحانه ـ عن طريق ذبحها وإراقة دمائها ، واستجابة لأمره ـ عزّ وجلّ ـ ..

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ﴾ إرشاد منه ـ تعالى ـ إلى كيفية التصرف فيها بعد ذبحها.

أى : فكلوا من هذه البهيمة بعد ذبحها ، وأطعموا منها الإنسان البائس ، أى : الذي أصابه بؤس ومكروه بجانب فقره واحتياجه.

قال الآلوسى : والأمر في قوله ﴿فَكُلُوا مِنْها ...﴾ للإباحة بناء على أن الأكل كان منهيا عنه شرعا ، وقد قالوا : إن الأمر بعد المنع يقتضى الإباحة ويدل على سبق النهى قوله صلّى الله عليه وسلّم : «كنت نهيتكم عن أكل لحوم الأضاحى فكلوا منها وادخروا».

وقيل : لأن أهل الجاهلية كانوا يتحرجون فيه ، أو للندب على مواساة الفقراء ومساواتهم في الأكل منها [1].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٤٦.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما يفعلونه بعد حلهم وخروجهم من الإحرام فقال : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

والمراد بالقضاء هنا : الإزالة ، وأصله القطع والفصل ، فأريد به الإزالة على سبيل المجاز.

والتفث : الوسخ والقذر ، كطول الشعر والأظفار يقال : تفث فلان ـ كفرح ـ يتفث تفثا فهو تفث ، إذا ترك الاغتسال والتطيب والتنظيف فأصابته الأوساخ.

والمراد بالطواف هنا : طواف الإفاضة ، الذي هو أحد أركان الحج ، وبه يتم التحلل.

والعتيق : القديم حيث إنه أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض ، وقيل سمى بالعتيق لأن الله ـ تعالى ـ أعتقه من أن يتسلط عليه جبار فيهدمه أو يخربه.

والمعنى : ثم بعد حلهم وبعد الإتيان بما عليهم من مناسك. فليزيلوا عنهم أدرانهم وأوساخهم ، وليوفوا نذورهم التي نذروها لله ـ تعالى ـ في حجهم ، وليطوفوا طواف الإفاضة ، بهذا البيت القديم الذي جعله الله ـ تعالى ـ أول بيت لعبادته ، وصانه من اعتداء كل جبار أثيم.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد توعدت كل من يصد الناس عن هذا البيت بأشد ألوان الوعيد ، وبينت أن الناس فيه سواء ، وتحدثت عن جانب من فضله ـ سبحانه ـ على نبيه إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ حيث أرشده إلى مكان هذا البناء ، وشرفه بتهيئته ليكون أول مكان لعبادته ـ تعالى ـ ، وأمره بأن ينادى في الناس بالحج إليه ، ليشهدوا منافع عظيمة لهم.

* * *

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك الى الحديث عن الذين يعظمون حرمات الله ، وعما أحله الله لعباده من الأنعام ، وعن سوء عاقبة من يشرك بالله ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ

السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (٣١) **ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ** (٣٢) **لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾(٣٣)

واسم الإشارة ﴿**ذلِكَ**﴾ في قوله : ﴿**ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ** ...﴾ يؤتى به في مثل هذا التركيب للفصل بين كلامين ، والمشهور في مثل هذا التركيب الإتيان بلفظ «هذا» كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿**هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ**﴾ (١).

وجيء هنا بلفظ ذلك للإشعار بتعظيم شأن المتحدث عنه ، وعلو منزلته ، وهو يعود إلى المذكور من تهيئة مكان البيت لإبراهيم ، وأمره بتطهيره ... إلخ.

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿**ذلِكَ**﴾ خبر مبتدأ محذوف أى : الأمر والشأن ذلك ، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال : هذا ، وقد كان كذا (٢).

والحرمات : جمع حرمة. والحرمة كل ما أمر الله ـ تعالى ـ باحترامه ، ونهى عن قوله أو فعله ، ويدخل في ذلك دخولا أوليا ما يتعلق بمناسك الحج كتحريم الرفث والفسوق والجدال والصيد ، وتعظيم هذه الحرمات يكون بالعلم بوجوب مراعاتها ، وبالعمل بمقتضى هذا العلم.

والمعنى : ذلك الذي ذكرناه لكم عن البيت الحرام وعن مناسك الحج ، هو جانب من أحكام الله ـ تعالى ـ في هذا الشأن فاتبعوها ، والحال أن من يعظم حرمات الله ـ تعالى ـ بأن يترك ملابستها واقترافها ، فهو أى : هذا التعظيم ، خير له عند ربه. إذ بسبب هذا التعظيم لتلك الحرمات ينال رضا ربه وثوابه.

وقد جاء النهى في هذه الجملة عن فعل هذه الحرمات بأبلغ أسلوب حيث عبر عن اجتنابها بالتعظيم وبأفعل التفضيل وهو لفظ «خير» وبإضافتها إلى ذاته.

فكأنه ـ سبحانه ـ يقول : إذا كان ترك هذا التعظيم لحرمات الله يؤدى إلى حصولكم على شيء من المتاع الدنيوي الزائل ، فإن الاستمساك بهذا التعظيم أفضل من ذلك بكثير عند ربكم وخالقكم ، فكونوا عقلاء ولا تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

---

(١) سورة ص الآية ٤٩.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٥٤.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض الأحكام التي تتعلق بالأنعام وهي الإبل والبقر والغنم فقال :

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ﴾.

أى : وأحل الله ـ تعالى ـ لكم فضلا منه ورحمة ذبح الأنعام وأكلها إلا ما يتلى عليكم تحريم ذبحه وأكله فاجتنبوه.

وهذا الإجمال هنا ، قد جاء ما فصله قبل ذلك في سورة الأنعام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾.

قال بعض العلماء : ثم إنه ليس المقصود بما يتلى ، ما ينزل في المستقبل ، كما يعطيه ظاهر الفعل المضارع ، بل المراد ما سبق نزوله مما يدل على حرمة الميتة وما أهل لغير الله به. أو ما يدل على حرمة الصيد في الحرم أو حالة الإحرام.

وعلى هذا يكون السر في التعبير بالمضارع ، التنبيه إلى أن ذلك المتلو ينبغي استحضاره والالتفات إليه .. والجملة معترضة لدفع ما عساه يقع في الوهم من أن تعظيم حرمات الله في الحج قد يقضى باجتناب الأنعام ، كما قضى باجتناب الصيد (1).

ثم أمرهم ـ سبحانه ـ باجتناب ما يغضبه ، وحضهم على الثبات على الدين الحق فقال ـ تعالى ـ : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ. حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ والفاء في قوله : ﴿فَاجْتَنِبُوا﴾ هي الفصيحة. والرجس : الشيء المستقذر الذي تعافه النفوس. و ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنَ الْأَوْثانِ﴾ بيانية ، والأوثان : الأصنام. يدخل في حكمها ومعناها عبادة كل معبود من دون الله ـ تعالى ـ كائنا من كان.

وسماها ـ سبحانه ـ رجسا ، زيادة في تقبيحها وفي التنفير منها.

والزور : الكذب والباطل وكل قول مائل عن الحق فهو زور ، لأن أصل المادة التي هي الزور من الازورار بمعنى الميل والاعوجاج ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ﴾ أى : تميل.

وقوله ﴿حُنَفاءَ﴾ جمع حنيف وهو المائل عن الأديان الباطلة الى الدين الحق.

والمعنى : مادام الأمر كما ذكرت لكم ، فاجتنبوا ـ أيها الناس عبادة الأوثان أو تعظيمها ، واجتنبوا ـ أيضا ـ القول المائل عن الحق ، وليكن شأنكم وحالكم الثبات على الدين الحق ، وعلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ الذي خلقكم ، وخلق كل شيء.

---

(1) تفسير آيات الأحكام ج ٣ ص ٧٢ لفضيلة الشيخ محمد على السائس.

وهذه الجملة الكريمة مؤكدة لما سبق من وجوب تعظيم حرمات الله ، ومن وجوب التمسك بما أحله الله والبعد عما حرمه.

قال الآلوسى : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ تعميم بعد تخصيص ، فإن عبادة الأوثان رأس الزور ، لما فيها من ادعاء الاستحقاق ، كأنه ـ تعالى ـ لما حث على تعظيم الحرمات ، أتبع ذلك بما فيه رد لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما ، والافتراء على الله ـ تعالى ـ بأنه حكم بذلك. ولم يعطف قول الزور على الرجس ، بل أعاد العامل لمزيد الاعتناء. والإضافة بيانية .. "[1].

وجملة ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ وجملة ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ حالان مؤكدتان لما قبلهما من وجوب اجتناب عبادة الأوثان ، واجتناب قول الزور.

أى : اجتنبوا ما أمرناكم باجتنابه حال كونكم ثابتين على الدين الحق ، مخلصين لله العبادة.

ثم صور ـ سبحانه ـ حال من يشرك بالله تصويرا تنخلع له القلوب ، ويحمل كل عاقل على اجتناب هذا الرجس فقال : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ﴾.

أى : ومن يشرك بالله ـ تعالى ـ في عبادته ، ومات على ذلك ، فكأنما سقط من السماء إلى الأرض ، فاختطفته جوارح الطير بسرعة فمزقت أوصاله ، أو تسقطه الريح في مكان بعيد أشد البعد بحيث لا يعثر له على أثر.

والمقصود من هذه الجملة تقبيح حال الشرك والمشركين ، وبيان أن الوقوع في الشرك يؤدى إلى الهلاك الذي لا نجاة معه بحال ، لأن من يسقط من السماء فتتمزق أوصاله ، وتتخطفه الطير أو تلقى به الريح في مكان بعيد لا يطمع له في نجاة ، بل هو هالك لا محالة.

فالجملة الكريمة مقررة لوجوب اجتناب الشرك بأبلغ صورة.

قال صاحب الكشاف : يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا ـ أى قطعا ـ في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح ـ أى المقاذف ـ البعيدة.

وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٤٨.

من السماء ، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة ، بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوى المتلفة [١].

ثم أمر . سبحانه . بتعظيم شعائره بعد أن أمر بتعظيم حرماته فقال : ﴿ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

قال القرطبي : والشعائر : جمع شعيرة ، وهي كل شيء لله . تعالى . فيه أمر أشعر به وأعلم. ومنه شعار القوم في الحرب ، أى : علامتهم التي يتعارفون بها. ومنه إشعار البدنة وهو الطعن في جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة لها .. فشعائر الله : إعلان دينه لا سيما ما يتعلق بالمناسك. وقال قوم : المراد هنا تسمين البدن. والاهتمام بأمرها .. [٢].

والمعنى : ذلك الذي أمرناكم به أو نهيناكم عنه عليكم امتثاله وطاعته ، والحال أن من يعظم شعائر الله ، التي من بينها الذبائح التي يتقرب بها إليه . تعالى . يكون تعظيمه إياها عن طريق تسمينها ، وحسن اختيارها يكون دليلا على تقوى القلوب ، وحسن صلتها بالله . سبحانه . وخشيتها منه ، وحرصها على رضاه . عزّ وجلّ ..

قال الآلوسى : وتعظيمها أن تختار حسانا سمانا غالية الأثمان. روى أنه صلّى الله عليه وسلّم أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل في أنفه برة . أى حلقة . من ذهب. وعن عمر أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار ، فسأل النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك ، وقال له : بل أهدها .. [٣].

وفي إضافة هذه الشعائر إلى الله . تعالى . : حض على الاهتمام بها وفعل ما يرضى الله . تعالى . بالنسبة لها.

والضمير المؤنث في قوله ﴿فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ يعود على الفعلة التي يتضمنها الكلام ، أو إلى الشعائر بحذف المضاف ، أى : فإن تعظيمها أى الشعائر من تقوى القلوب ، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه.

وقوله . سبحانه . : ﴿لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ بيان لبعض مظاهر نعم الله . تعالى . عليهم في هذه الأنعام.

أى : لكم . أيها المؤمنون . في تلك الأنعام التي تقدمونها قربة لله . تعالى . «منافع» تصل إليكم عن طريق ركوبها ولبنها ونسلها .. وهذه المنافع موقوتة إلى وقت معين ، هو وقت

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٥٥.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٥٦.

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٥٠.

ذبحها أو وقت تعيينها وتسميتها هديا ، أما بعد ذلك فاتركوا الانتفاع بها للفقراء والمحتاجين ، فهذا أكثر ثوابا لكم عند الله ـ تعالى ..

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ بيان لمكان ذبحها.

والمحل مأخوذ من حل الشيء يحل ـ بالكسر ـ حلولا إذا وجب أو انتهى أجله. والمراد به في الآية مكان الحلول ، أى : المكان الذي ينتهى فيه أجل تلك الأنعام ، أو المكان الذي يجب ذبحها فيه.

والمعنى : لكم في تلك الانعام منافع إلى أجل مسمى ثم المكان الذي تذبح فيه منته إلى البيت العتيق. ومتصل به.

والمقصود بهذا المحل الحرم كله ، لأن البيت ليس مكانا للذبح.

وبعضهم يرى أن المراد بالمحل في قوله : ﴿ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ : تحلل الحجاج من إحرامهم بعد أداء شعائر الحج المعبر عنها بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ ...﴾.

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ يريد أنها تنتهي إلى البيت ، وهو الطواف فقوله : ﴿مَحِلُّها﴾ مأخوذ من إحلال المحرم.

والمعنى : أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى ينتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق. فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه .. (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه قد شرع لكل أمة الذبائح التي ينتفعون بها ، لكي يذكروه ـ سبحانه ـ ويشكروه ويخلصوا له العبادة ، ولكي يطعموا منها السائل والمحتاج ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٥٦.

رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣٧)

والمنسك ـ بفتح السين وكسرها ـ مأخوذ من النسك بمعنى العبادة ، فيجوز أن يراد به النسك نفسه ، ويجوز أن يراد به مكانه أو زمانه.

ويبدو أن المراد به هنا عبادة خاصة وهي الذبح تقربا إلى الله ـ تعالى ـ.

قال الآلوسى : والمنسك موضع النسك إذا كان اسم مكان ، أو النسك إذا كان مصدرا. وفسره مجاهد هنا بالذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه ـ تعالى ـ فجعله مصدرا ، وحمل النسك على عبادة خاصة ، وهو أحد استعمالاته وإن كان في الأصل بمعنى العبادة مطلقا ، وشاع في أعمال الحج .. [1].

وجملة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ...﴾ معطوفة على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

والمعنى : جعلنا لكم ـ أيها المؤمنون ـ منافع كثيرة في هذه الأنعام الى وقت معين ، ثم تكون نهايتها ذبحها عند البيت الحرام ، كما جعلنا وشرعنا لمن قبلكم من الأمم شعيرة الذبح ليتقربوا بها إلينا ، وأرشدناهم إلى المكان الذي يذبحون فيه ، وإلى أفضل الطرق التي تجعل ، ذبائحهم مقبولة عندنا.

وفي هذه الجملة الكريمة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً﴾ ، تحريك لنفوسهم نحو الإقدام على إراقة الدم تقربا إلى الله ، لأن هذه الذبائح ليست من شعائر هذه الأمة وحدها ، وإنما هي من شعائرها ومن شعائر الأمم التي سبقتها.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٥٣.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ بيان للعلة التي من أجلها شرعت تلك الذبائح.

أى : شرعناها لكم وللأمم السابقة عليكم للإكثار من ذكر الله عند ذبحها فهو ـ سبحانه ـ الذي رزقكم إياها بفضله وإحسانه ، فعليكم أن تكثروا من ذكره وشكره ، ليزيدكم من خيره ورزقه.

وفي هذه الجملة الكريمة تقريع وتوبيخ لمن يذكرون غير اسم الله ـ تعالى ـ عند الذبح ، وتأكيد لوجوب ذكر اسمه ـ تعالى ـ ، حتى لكأن المقصود الأعظم من وراء ذبح هذه الأنعام ، هو المداومة على ذكر اسم الله ـ عزّ وجلّ ـ وعلى شكره ـ سبحانه ـ على نعمه ، أما ما سوى ذلك كالأكل منها ، والانتفاع بها .. فهي مقاصد فرعية.

ثم عقب ـ سبحانه ـ على ذلك بتقرير وحدانيته ، وبوجوب إسلام الوجه إليه ، فقال : ﴿فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾.

أى : شرعنا لكم ذلك لأن إلهكم إله واحد لا شريك له لا في ذاته ولا في صفاته ، فله وحده أسلموا وجوهكم ، وأخلصوها لعبادته وطاعته.

فجملة ﴿فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ بمثابة العلة لما قبلها من تخصيص اسمه الكريم بالذكر عند الذبح ، لأن تفرده ـ سبحانه ـ بالألوهية يستلزم هذا التخصيص.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ مرتب على ما قبله ، لأنه متى ثبت أن المستحق للعبادة والطاعة هو الله الواحد الأحد ، فعليهم أن يسلموا وجوههم إليه.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يبشر المخبتين برضاه ـ سبحانه ـ وبمثوبته فقال : ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ أى : المتواضعين لله ـ تعالى ـ المطمئنين إلى عدالة قضائه فيهم ، ولفظ ﴿الْمُخْبِتِينَ﴾ من الإخبات. وهو في الأصل نزول الخبت ـ بفتح الخاء وسكون الباء.

أى : المكان المنخفض ، ثم استعمل في اللين والتواضع. يقال : فلان مخبت ، أى : متواضع خاشع لله رب العالمين.

وحذف ـ سبحانه ـ المبشر به لتهويله وتعظيمه ، أى : وبشر ـ أيها الرسول الكريم ـ هؤلاء المتواضعين لله ـ تعالى ـ بالثواب العظيم ، والأجر الكبير الذي لا تحيط بوصفه عبارة.

ثم مدحهم ـ سبحانه ـ بأربع صفات فقال : ﴿الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ..﴾.

أى : بشر هؤلاء المخبتين الذين من صفاتهم أنهم إذا سمعوا ذكر الله ـ تعالى ـ وصفاته ،

وحسابه لعباده يوم القيامة ، خافت قلوبهم ، وحذرت معصيته ـ تعالى ..

والذين من صفاتهم كذلك : الصبر على ما يصيبهم من مصائب ومحن في هذه الحياة ، والمداومة على أداء الصلاة في مواقيتها بإخلاص وخشوع ، والإنفاق مما رزقهم الله ـ تعالى ـ على الفقراء والمحتاجين.

فإن قيل : كيف نجمع بين هذه الآية التي وصفت المؤمنين الصادقين بأنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم. وبين قوله ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

فالجواب : أنه لا تنافى بين الآيتين ، لأن من شأن المؤمن الصادق أنه إذا استحضر وعيد الله وحسابه لعباده يوم القيامة ، امتلأ قلبه بالخشية والخوف والوجل.

فإذا ما استحضر بعد ذلك رحمته ـ سبحانه ـ وسعة عفوه ، اطمأن قلبه وسكن روعه ، وثبت يقينه ، وانشرح صدره ، واستسلم لقضاء الله وقدره بدون تردد أو تشكك أو جزع.

فالوجل والاطمئنان أمران يجدهما المؤمن في قلبه ، في وقتين مختلفين. وفي حالتين متمايزتين.

ويؤخذ من هاتين الآيتين : أن التواضع لله ـ تعالى ـ ، والمراقبة له ـ سبحانه ـ والصبر على بلائه ، والمحافظة على فرائضه .. كل ذلك يؤدى إلى رضاه ـ عزوجل ـ ، وإلى السعادة الدنيوية والأخروية.

ثم أكد سبحانه ـ ما سبق الحديث عنه من وجوب ذكر اسمه ـ تعالى ـ عند الذبح ، ومن وجوب شكره على نعمه فقال : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾.

والبدن : جمع بدنة. وهي الإبل خاصة التي تهدى إلى البيت الحرام للتقرب بها إلى الله ـ تعالى ـ وقيل : البدن تطلق على الإبل والبقر.

وسميت بهذا الاسم لبدانتها وضخامتها. يقال : بدن الرجل ـ بوزن كرم ـ إذا كثر لحمه ، وضخم جسمه.

أى : وشرعنا لكم ـ أيها المؤمنون ـ التقرب إلينا بالإبل البدينة السمينة وجعلنا ذلك شعيرة من شعائر ديننا ، وعلامة من العلامات الدالة على قوة إيمان من ينفذ هذه الشعيرة بتواضع وإخلاص.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿لَكُمْ فِيها خَيْرٌ﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها. أى : لكم فيه خير في الدنيا عن طريق الانتفاع بألبانها ووبرها .. ولكم فيها خير في الآخرة عن طريق الثواب الجزيل الذي تنالونه من خالقكم بسبب استجابتكم لما أرشدكم إليه.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَ﴾ إرشاد لما يقوله الذابح عند ذبحها. وصواف : جمع صافة. أى : قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن استعدادا للذبح!.

أى : إذا ما هيأتم هذه الإبل للذبح ، فاذكروا اسم الله عليها ، بأن تقولوا عند نحرها : بسم الله والله أكبر ، اللهم منك وإليك.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ بيان لما ينبغي عليهم فعله بعد ذبحها.

ووجبت بمعنى سقطت : وهو كناية عن موتها. يقال : وجب الجدار إذا سقط ، ووجبت الشمس إذا غابت.

والقانع : هو الراضي بما قدره الله ـ تعالى ـ له ، فلا يتعرض لسؤال الناس مأخوذ من قنع يقنع ـ كرضى يرضى ـ وزنا ومعنى.

والمعتر : هو الذي يسأل غيره ليعطيه. يقال : فلان يعترى الأغنياء ، أى : يذهب إليهم طالبا عطاءهم.

وقيل : القانع هو الطامع الذي يسأل غيره ، والمعتر : هو الذي يتعرض للعطاء من غير سؤال وطلب.

أى : فإذا ما سقطت جنوب هذه الإبل على الأرض ، وأعددتموها للأكل فكلوا منها ، وأطعموا الفقير القانع الذي لا يسألكم ، والفقير المعتر الذي يتعرض لكم بالسؤال والطلب.

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر فضله عليهم ، حيث ذلل هذه الأنعام لهم فقال : ﴿كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقوله ﴿كَذلِكَ﴾ نعت لمصدر محذوف. أى : مثل ذلك التسخير البديع سخرنا لكم هذه الأنعام ، وذللناها لكم ، وجعلناها منقادة لأمركم ، لعلكم بعد أن شاهدتم هذه النعم ، وانتفعتم بها ، تكونون من الشاكرين لنا ، والمستجيبين لتوجيهاتنا وإرشادنا.

قال صاحب الكشاف : منّ الله على عباده واستحمد إليهم ، بأن سخر لهم البدن مثل التسخير الذي رأوا وعلموا. يأخذونها منقادة للأخذ طيعة ، فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها ، ثم يطعنون في لباتها. ولو لا تسخير الله لم تطعن ، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرما ، وأقل قوة ، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهدا على ذلك.[1]

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٥٩.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الحديث عن شعائر الحج ، بتوجيه عباده إلى وجوب الإخلاص له ، والاستجابة لأمره ، وشكره على نعمه ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ ...﴾.

أى : لن يصل إلى الله ـ تعالى ـ لحم هذه الأنعام ودماؤها ، من حيث هي لحوم ودماء ، ولكن الذي يصل إليه ـ سبحانه ـ ويثيبكم عليه ، هو تقواكم ومراقبتكم له ـ سبحانه ـ وخوفكم منه ، واستقامتكم على أمره وإخلاصكم العبادة له.

قالوا : وفي هذا إشارة إلى قبح ما كان يفعله المشركون ، من تقطيعهم للحوم الأنعام ، ونشرها حول الكعبة ، وتلطيخها بالدماء ، وتحذير للمسلمين من أن يفعلوا فعل هؤلاء الجهلاء ، إذ رضا الله ـ تعالى ـ لا ينال بذلك ، وإنما ينال بتقوى القلوب.

ثم كرر ـ سبحانه ـ تذكيره إياهم بنعمه ، ليكون أدعى إلى شكره وطاعته فقال : ﴿كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ ، لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أى : كهذا التسخير العجيب الذي ترونه سخرنا لكم هذه الأنعام لكي تكبروا الله وتعظموه وتقدسوه بسبب هدايته لكم إلى الإيمان.

وبشر ـ أيها الرسول الكريم ـ المحسنين لأقوالهم وأفعالهم ، بثوابنا الجزيل وبعطائنا الواسع.

وبذلك ترى أن سورة الحج قد سبحت بنا سبحا طويلا في حديثها عن البيت الحرام ، وعن آداب الحج ومناسكه وأحكامه ، وعن الجزاء الحسن الذي أعده ـ تعالى ـ للمستجيبين لأمره.

وبعد هذا الحديث عن الشعائر والمناسك ، أذن ـ سبحانه ـ للمؤمنين بالقتال في سبيله ، للدفاع عن دينه وشعائره ، ووعدهم ـ عزوجل ـ بالنصر متى نصروه وحافظوا على فرائضه ... فقال ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ

يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾(٤١)

قال الفخر الرازي : اعلم أنه ـ تعالى ـ لما بين ما يلزم في الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، وما كان من صد الكفار عنه ، أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد. ويؤمن معه التمكن من الحج فقال ـ تعالى ـ ﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ [1].

ومفعول «يدافع» محذوف. وجاء التعبير بقوله ـ تعالى ـ ﴿يُدافِعُ﴾ بصيغة المفاعلة ، للمبالغة في الدفاع والدفع ، أو للدلالة على أن ذلك حاصل للمؤمنين كلما حصل من الكافرين عدوان عليهم.

أى : إن الله ـ تعالى ـ بفضله وكرمه يدافع عن المؤمنين أعداءهم وخصومهم ، فيرد كيدهم في نحورهم.

ويصح أن يكون ﴿يُدافِعُ﴾ بمعنى يدفع ، ويؤيده قراءة ابن كثير وأبى عمرو. أى : أن الله ـ تعالى ـ يدفع السوء عن عباده المؤمنين الصادقين ، ويجعل العاقبة لهم على أعدائهم.

فالجملة الكريمة بشارة للمؤمنين ، وتقوية لعزائمهم حتى يقبلوا على ما شرعه الله لهم من جهاد أعدائهم ، بثبات لا تردد معه ، وبأمل عظيم في نصر الله وتأييده.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ تعليل لوعده ـ سبحانه ـ للمؤمنين بالدفاع عنهم ، وبجعل العاقبة لهم.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ١٦٢.

والخوان : هو الشديد الخيانة ، والكفور : هو المبالغ في كفره وجحوده ، فاللفظان كلاهما صيغة مبالغة.

قال الآلوسى : وصيغة المبالغة فيهما لبيان أن المشركين كذلك ، لا للتقييد المشعر بمحبة الخائن والكافر ... [1].

أى : إن الله ـ تعالى ـ يدافع عن المؤمنين لمحبته لهم ، ويبغض هؤلاء الكافرين الذين بلغوا في الخيانة والكفر أقصى الدركات.

وأوثر التعبير بقوله ـ تعالى ـ ﴿لا يُحِبُ﴾ على قوله : يبغض أو يكره ، للإشعار بأن المؤمنين هم أحباء الله ـ تعالى ـ ، وللتعريض بهؤلاء الكافرين الذين تجاوزوا كل حد في كراهيتهم لأهل الحق.

ثم رخص ـ سبحانه ـ للمؤمنين بأن يقاتلوا في سبيله فقال : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ...﴾.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿أُذِنَ﴾ فعل ماض مبنى للمجهول مأخوذ من الإذن بمعنى الإباحة والرخصة. والمقصود إباحة مشروعية القتال ، وقد قالوا : بأن هذه الآيات أول ما نزل في شأن مشروعية القتال.

أخرج الإمام أحمد والترمذي عن ابن عباس قال : لما خرج النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن ، فنزلت هذه الآيات.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿أُذِنَ﴾ بالبناء الفاعل. والمأذون لهم فيه هو القتال ، وهو محذوف في قوة المذكور بدليل قوله ﴿يُقاتَلُونَ﴾ والباء في قوله ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ للسببية.

أى : أذن الله ـ تعالى ـ للمؤمنين ، ورخص لهم ، بأن يقاتلوا أعداءهم الذين ظلموهم ، وآذوهم ، واعتدوا عليه ، بعد أن صبر هؤلاء المؤمنون على أذى أعدائهم صبرا طويلا.

قال الآلوسى : والمراد بالموصول أصحاب النبي ﷺ الذين في مكة ، فقد نقل الواحدي وغيره ، أن المشركين كانوا يؤذونهم ، وكانوا يأتون النبي ﷺ بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بالقتال حتى هاجر ﷺ فنزلت

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٦١.

هذه الآية. وهي أول آية نزلت في القتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية (١).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وعد منه ـ سبحانه ـ للمؤمنين بالنصر وحض لهم على الإقدام على الجهاد في سبيله بدون تردد أو وهن.

أى : وإن الله ـ تعالى ـ لقادر على أن ينصر عباده المؤمنين. وعلى أن يمكن لهم في الأرض ، وعلى أن يجعلهم الوارثين لأعدائهم الكافرين.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أى : هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكنه يريد من عباده أن يبلوا جهدهم في طاعته ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ ، حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ، ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ..﴾ (٢).

وإنما شرع ـ سبحانه ـ الجهاد في الوقت الأليق به ، لأنهم لما كانوا بمكة ، كان المشركون أكثر عددا. فلو أمر المسلمون بالقتال لشق ذلك عليهم ...

فلما استقروا بالمدينة. وصارت لهم دار إسلام ، ومعقلا يلجئون إليه شرع الله جهاد الأعداء ، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك .. (٣).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ..﴾ بيان لبعض الأسباب التي من أجلها شرع الله الجهاد في سبيله.

أى : إن الله ـ تعالى ـ لقدير على نصر المؤمنين الذين أخرجهم الكافرون من ديارهم بغير حق ، وبغير أى سبب من الأسباب ، سوى أنهم كانوا يقولون ربنا الله ـ تعالى ـ وحده ، ولن نعبد من دونه إلها آخر.

أى : ليس هناك ما يوجب إخراجهم ـ في زعم المشركين ـ سوى قولهم ربنا الله.

ثم حرض ـ سبحانه ـ المؤمنين على القتال في سبيله ، بأن بين لهم أن هذا القتال يقتضيه نظام هذا العالم وصلاحه ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾.

والمراد بالدفع : إذن الله المؤمنين في قتال المشركين. والمراد بقوله : ﴿بَعْضَهُمْ﴾

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٦٢.

(٢) سورة محمد الآية ٤.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٣١.

الكافرون. وبقوله : ﴿بِبَعْضٍ﴾ المؤمنون.

والصوامع : جمع صومعة ، وهي بناء مرتفع يتخذه الرهبان معابد لهم.

والبيع : جمع بيعة ـ بكسر الباء ـ وهي كنائس النصارى التي لا تختص بالرهبان.

والصلوات : أماكن العبادة لليهود.

أى : ولو لا أن الله ـ تعالى ـ أباح للمؤمنين قتال المشركين ، لعاث المشركون في الأرض فسادا ، ولهدموا في زمن موسى وعيسى أماكن العبادة الخاصة بأتباعهما ، ولهدموا في زمن الرسول ﷺ المساجد التي تقام فيها الصلاة.

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ...﴾ أى : ولو لا ما شرعه الله ـ تعالى ـ للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك. وعطلوا ما بناه أهل الديانات من مواضع العبادات ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة. فالجهاد أمر متقدم في الأمم. وبه صلحت الشرائع ، واجتمعت المتعبدات ، فكأنه قال : أذن في القتال فليقاتل المؤمنون. ثم قوى هذا الأمر في القتال بقوله : ﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ ...﴾ الآية أى : لو لا الجهاد والقتال لتغلب أهل الباطل على أهل الحق في كل أمة ... [1].

فالآية الكريمة تفيد أن الله ـ تعالى ـ قد شرع القتال لإعلاء الحق وإزهاق الباطل ، ولو لا ذلك لاختل هذا العالم ، وانتشر فيه الفساد.

والتعبير بقوله ـ تعالى ـ : ﴿لَهُدِّمَتْ﴾ بالتشديد للإشعار بأن عدم مشروعية القتال ، يؤدى إلى فساد ذريع ، وإلى تحطيم شديد لأماكن العبادة والطاعة لله ـ عزّ وجلّ ـ ..

وقدم الصوامع والبيع والصلوات على المساجد ، باعتبار أنها أقدم منها في الوجود ، أو للانتقال من الشريف إلى الأشرف.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بأسلوب مؤكد سنة من سننه التي لا تتخلف فقال : ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

أى : والله لينصرن ـ سبحانه ـ من ينصر دينه وأولياءه ، لأنه ـ تعالى ـ هو القوى على كل فعل يريده ، العزيز الذي لا يغالبه مغالب ، ولا ينازعه منازع.

وقد أنجز ـ سبحانه ـ وعده وسنته ، فسلط عباده المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، على

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٧٠.

أعدائه ، فأذلوا الشرك والمشركين وحطموا دولتي الأكاسرة والقياصرة ، وأورثهم أرضهم وديارهم.

ثم وصف . سبحانه . هؤلاء المؤمنين الذين وعدهم بنصره بأكرم الصفات ليميزهم عن غيرهم فقال : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ ، وَآتَوُا الزَّكاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

أى : ولينصرن الله . تعالى . هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، والذين من صفاتهم أنهم إذا ما مكنا لهم في الأرض ، ونصرناهم على أعدائهم ، شكروا لنا ما أكرمناهم به ، فأقاموا الصلاة في مواقيتها بخشوع وإخلاص ، وقدموا زكاة أموالهم للمحتاجين ، وأمروا غيرهم بالمعروف ونهوه عن المنكر ، ولله . تعالى . وحده عاقبة الأمور ومردها ومرجعها في الآخرة ، فيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

فالآية الكريمة تبين أن أولى الناس بنصر الله ، هم هؤلاء المؤمنون الصادقون ، الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ...

وشبيه بهذه الآية قوله . تعالى . : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ [1].

وقوله . تعالى . : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ ..﴾ [2].

وبعد أن أذن الله . تعالى . لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين في القتال ، وبشرهم بالنصر .. أتبع ذلك بتسليته صلى الله عليه وسلم عما أصابه من حزن بسبب تكذيب المشركين له ووبخ . سبحانه . أولئك المشركين على عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال . تعالى . :

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها

---

(١) سورة غافر الآية ٥١.

(٢) سورة محمد الآية ٧.

وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾(٥١)

والمعنى : لا تحزن . أيها الرسول الكريم . لأن هؤلاء المشركين قد كذبوك فيما جئتهم به من عند ربك ، وأعرضوا عنه ، فإن قوم نوح ، وقوم هود. وقوم صالح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وقوم موسى ، قد كذبوا هؤلاء الأنبياء الكرام ، وما يقال لك من هؤلاء المشركين ، قد قيل للرسل من قبلك.

قال . تعالى . : ﴿كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ* أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ* فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ* وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [(١)].

واستغنى في عاد وثمود عن ذكر القوم ، لاشتهارهم بهذا الاسم الذي يدل دلالة واضحة على هؤلاء الظالمين.

وقال . سبحانه . : ﴿وَأَصْحابُ مَدْيَنَ﴾ ولم يقل وقوم شعيب ، لأنهم هم الأسبق في التكذيب له . عليه‌السلام . على أصحاب الأيكة ، ولأنهم هم أهله أما أصحاب الأيكة فكانوا غرباء عنه.

---

(١) سورة الذاريات الآيات من ٥٢ . ٥٥.

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَكُذِّبَ مُوسى﴾ لأنه لم يكذّب من جميع قومه وهم بنو إسرائيل. وإنما كان المكذب له هو فرعون وملأه، وللإشارة إلى أن موسى ـ عليه السلام ـ قد جاء إلى الناس بآيات واضحات تدل على صدقه، ومع ذلك فقد قوبل بالتكذيب من فرعون وملئه.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما حل بهؤلاء من عقوبات فقال : ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾.

والإملاء : الإمهال وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته».

والنكير : اسم مصدر بمعنى الإنكار، يقال : أنكرت على فلان فعله، إذا ردعته وزجرته عنه.

أى : هؤلاء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم، لم أعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلتهم وأمليت لهم، ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر، فانظر ـ أيها العاقل ـ كيف كان إنكارى عليهم؟ لقد كان إنكارا مخيفا مهلكا ﴿فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً. وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا، وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١).

وقال ـ سبحانه ـ ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ﴾ بالإظهار دون الإضمار، لزيادة التشنيع عليهم والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ للتهويل والتعجيب. أى : لقد كان إنكارا فظيعا حول حياتهم إلى موت، وعمرانهم إلى خراب، وغرورهم إلى ذلة وهوان .. فعلى مشركي قريش أن يعتبروا بذلك ويتعظوا .. وإلا فالعاقبة معروفة لهم.

وبعد هذا البيان المشتمل على سوء عاقبة هذه الأمم التي كذبت رسلها .. أتبع ذلك ـ سبحانه ـ ببيان مصير كثير من الأمم الظالمة فقال : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ، فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ، وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾.

وكلمة «كأين» مركبة من كاف التشبيه، ومن أى الاستفهامية المنونة، ثم هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية المفيدة للتكثير، ويكنى بها عن عدد مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها. ومميزها غالبا ما يجر بمن كما في الآية وفي غيرها. قال ـ تعالى ـ : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ...﴾ (٢)، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾ (٣).

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٠.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٦.

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٥.

قال الآلوسى : وقوله : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَهْلَكْناها﴾ أى : فأهلكنا كثيرا من القرى أهلكناها .. أو مرفوع على الابتداء ، وجملة ﴿أَهْلَكْناها﴾ خبره.

أى : فكثير من القرى أهلكناها .. وقوله : ﴿وَهِيَ ظالِمَةٌ﴾ جملة حالية من مفعول أهلكنا .. [(1)].

ولفظ ﴿خاوِيَةٌ﴾ بمعنى ساقطة أو خالية. يقال خوى البيت يخوى إذا سقط أو خلا ممن يسكنه.

والعروش : جمع عرش وهو سقف البيت ، ويسمى العريش : وكل ما يهيأ ليستظل به فهو عريش.

وبئر معطلة أى : مهجورة لهلاك أهلها ، يقال : بأر فلان الأرض إذا حفرها ليستخرج منها الماء.

والمشيد : المحصص بالشّيد وهو الجصّ. يقال : شاد فلان بيته يشيده ، إذا طلاه بالشّيد.

والمعنى : وكثير من القوى أهلكناها بسبب ظلمهم وكفرهم ، فإذا ما نظرت إليها وجدتها خالية من أهلها ، وقد سقطت سقوفها على جدرانها. وكثير من الآبار التي كانت تتفجر بالماء عطلناها وصارت مهجورة ، وكثير ـ أيضا ـ من القصور المشيدة الفخمة أخليناها من أهلها. وذلك لأنهم كذبوا رسلنا ، وجحدوا نعمنا ، فدمرناهم تدميرا. وجعلنا مساكنهم من بعدهم أثرا بعد عين.

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أشد ألوان الوعيد والتهديد لكفار قريش الذين كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأعرضوا عن دعوته.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً* فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً﴾ [(2)].

ثم ينتقل القرآن الكريم من هذا التهديد الشديد ، إلى التوبيخ والتقريع لهؤلاء المشركين ، الذين لا يعتبرون ولا يتعظون فيقول : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ، أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ..﴾.

---

(1) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٦٦.

(2) سورة الطلاق الآيتان ٨ ، ٩.

والاستفهام للتوبيخ والإنكار ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام.

والمعنى : إن مصارع الغابرين وديارهم ، يمر بها كفار قريش ، ويعرفونها ، فهم يرون في طريقهم إلى الشام قرى صالح وقرى قوم لوط .. قال ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ* وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (1).

والشأن في هذه الرؤية أن تجعل صاحبها يعتبر ويتعظ ، متى كان عنده قلب يعقل ما يجب فهمه ، أو أذن تسمع ما يجب سماعه وتنفيذه ، ولكن هؤلاء الجاهلين يرون مصارع الغابرين فلا يعقلون ، ولا يعتبرون ، ويسمعون الأحاديث عن تلك الآبار المعطلة ، والقصور الخالية من سكانها ، والمنازل المهدمة ، فلا يتعظون.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ بيان لسبب انطماس بصائرهم ، وقسوة قلوبهم.

والضمير في قوله ﴿فَإِنَّها﴾ للقصة. أى : فإن الحال أنه لا يعتد بعمى الأبصار ، ولكن الذي يعتد به هو عمى القلوب التي في الصدور ، وهؤلاء المشركون قد أصيبوا بالعمى الذي هو أشنع عمى وأقبحه. وهو عمى القلوب عن الفهم وقبول الحق.

وذكر ـ سبحانه ـ أن مواضع القلوب في الصدور ، لزيادة التأكيد ، ولزيادة إثبات العمى لتلك القلوب التي حدد ـ سبحانه ـ موضعها تحديدا دقيقا.

قال الآلوسى : فالكلام تذييل لتهويل ما نزل بهم من عدم فقه القلب ، وأنه العمى الذي لا عمى بعده ، بل لا عمى إلا هو ، أو المعنى : إن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها. وإن العمى بقلوبهم ، فكأنه قيل : أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب ذات بصائر ، فإن الآفة ببصائر قلوبهم لا بأبصار عيونهم ، وهي الآفة التي كل آفة دونها. كأنه يحثهم على إزالة المرض وينعى عليهم تقاعدهم عنها (2).

ثم أكد ـ سبحانه ـ انطماس بصائرهم ، حيث بين أنهم بدل أن يتوبوا إلى الله ويستغفروه ، استعجلوا العذاب فقال : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ. وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

أى : أن هؤلاء الطغاة بدل أن يسيروا في الأرض فيعتبروا ويتعظوا ، أخذوا يطلبون منك ـ أيها الرسول الكريم ـ نزول العذاب عاجلا ، على سبيل الاستهزاء بك والاستخفاف بما هددناهم به ، ويقولون لك : متى هو؟.

---

(1) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨.

(2) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٦٧.

فالجملة الكريمة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ﴾ خبرية في اللفظ ، استفهامية في المعنى.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾ جملة حالية جيء بها لتهديدهم على استعجالهم العذاب ، أى : والحال أن الله ـ تعالى ـ لن يخلف ما وعدهم به من العذاب ، بل هو منجزه في الوقت الذي يريده هو وليس الذي يريدونه هم.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان أن حساب الأزمان في تقدير الله ـ تعالى ـ يخالف ما يقدره البشر.

أى : دعهم ـ أيها الرسول الكريم ـ يستعجلون العذاب ، فذلك دأب الظالمين في كل حين ، وسبيل الجاهلين في كل زمان ، وأعلمهم أن الله ـ تعالى ـ لن يخلف وعده إياهم به في الوقت المحدد لذلك ، وإن يوما عنده ـ تعالى ـ كألف سنة مما يعده هؤلاء في دنياهم ، وسيأتيهم هذا اليوم الذي يطول عليهم طولا شديدا ، لما يرون فيه من عذاب مهين.

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : يعنى من الأيام التي خلق فيها السموات والأرض. وقال عكرمة : يعنى من أيام الآخرة ، أعلمهم الله إذ استعجلوه بالعذاب في أيام قصيرة أنه يأتيهم به في أيام طويلة. وقال الفراء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة.

وقيل المعنى : وإن يوما في الخوف والشدة في الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة .. [١].

ثم أكد ـ سبحانه ـ أن إملاءه للظالمين ، سيعقبه العذاب الأليم ، فقال : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

أى : وكثير من القرى الظالمة أمهلت عقوبة أهلها إلى أجل مسمى ، ثم أخذتها بعد ذلك أخذا شديدا ، جعلهم في قراهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ، وسيرجعون إلينا فيجدون عذابا أشد وأبقى ، إذ أن مصيرهم إلىّ لا إلى غيرى.

وبعد هذا العرض لمصارع الغابرين وبيان سنة الله ـ تعالى ـ في المكذبين ، يأمر ـ سبحانه ـ نبيه صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يرشد الناس إلى مصيرهم فيقول : ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ للناس ، إن وظيفتي أن أنذركم وأخوفكم من عذاب الله ، بدون التباس أو غموض.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٧٨.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وعملوا الأعمال الصالحات لهم من ربهم مغفرة واسعة ، ورزق كريم ، لا انقطاع معه ولا امتناع.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ﴾ أى : والذين بذلوا كل جهودهم في إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسلنا ، وأسرعوا في تكذيبها وغالبوا المؤمنين وعارضوهم ليظهروهم بمظهر العاجز عن الدفاع عن دينهم وعن عقيدتهم.

﴿أُولئِكَ﴾ الموصوفون بهذا السعى الأثيم ﴿أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾ أى : الملازمون للنار المتأججة ملازمة المالك لما يملكه.

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك الى الحديث عن فضل الله ـ تعالى ـ على أنبيائه ورسله حيث عصمهم من كيد الشيطان ووسوسته وحفظ دعوتهم من تكذيب المكذبين ، وعبث العابثين .. فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٥٤)

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق [1] ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ، ظنا منهم أن مشركي

---

(١) الغرانيق : المراد بها هنا الأصنام. وهي في الأصل تطلق على الذكور من طير الماء ، واحدها : غرنوق ـ بضم فسكون فضم ـ سمى به الطائر لبياضه. وقد كان المشركون يزعمون أن الأصنام تشفع لهم عند الله ـ تعالى ـ فسموها بالغرانيق تشبيها لها بالطيور التي ترتفع نحو السماء.

قريش قد أسلموا.

ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح.

ثم قال ـ رحمه الله ـ : قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة سورة النجم ، فلما بلغ هذا الموضع : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى﴾.

قال : فألقى الشيطان على لسانه : «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن ترتجى».

قالوا : ـ أى المشركون ـ : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد وسجدوا ، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ..﴾ (١).

وجمع ـ سبحانه ـ بين الرسول والنبي ، لأن المقصود بالرسول من بعث بكتاب ، وبالنبي من بعث بغير كتاب ، أو المقصود بالرسول من بعث بشرع جديد ، وبالنبي من بعث لتقرير شرع من قبله.

ولفظة ﴿تَمَنَّى﴾ هنا : فسره العلماء بتفسيرين :

أولهما : أنه من التّمنّي ، بمعنى محبة الشيء ، وشدة الرغبة في الحصول عليه ، ومفعول «ألقى» محذوف والمراد بإلقاء الشيطان في أمنيته : محاولته صرف الناس عن دعوة الحق ، عن طريق إلقاء الأباطيل في نفوسهم ، وتثبيتهم على ما هم فيه من ضلال.

والمعنى : وما أرسلنا من قبلك ـ يا محمد ـ من رسول ولا نبي ، إلا إذا تمنى هداية قومه إلى الدين الحق الذي جاءهم به من عند ربه ، ألقى الشيطان الوساوس والشبهات في طريق أمنيته لكي لا تتحقق هذه الأمنية ، بأن يوهم الشيطان الناس بأن هذا الرسول أو النبي ساحر أو مجنون ، أو غير ذلك من الصفات القبيحة التي برأ الله ـ تعالى ـ منها رسله وأنبياءه.

قال ـ تعالى ـ : ﴿كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ* أَتَواصَوْا بِهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ﴾ (٢).

والآية الكريمة على هذا التفسير واضحة المعنى ، ويؤيدها الواقع ، إذ أن كل رسول أو نبي بعثه الله ـ تعالى ـ كان حريصا على هداية قومه ، وكان يتمنى أن يؤمنوا جميعا ، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم كاد يهلك نفسه هما وغما بسبب إصرار قومه على الكفر.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٢٨ طبعة دار الشعب.

(٢) سورة الذاريات الآيتان ٥٢ ، ٥٣.

قال ـ تعالى ـ : ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ (١).

إلا أن قوم كل رسول أو نبي منهم من آمن به. ومنهم من أعرض عنه بسبب إغراء الشيطان لهم ، وإيهامهم بأن ما هم عليه من ضلال هو عين الهدى.

وإلى هذا التفسير أشار صاحب الكشاف بقوله : «قوله ـ تعالى ـ : ﴿مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍ﴾ دليل بين على تغاير الرسول والنبي. والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء : من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبي غير الرسول : من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله.

والسبب في نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ لما أعرض عنه قومه وشاقوه ، وخالفته عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به : تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ، ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم (٢).

أما التفسير الثاني للفظ ﴿تَمَنَّى﴾ فهو أنه بمعنى قرأ وتلا. ومنه قول حسان بن ثابت ، في رثاء عثمان بن عفان رضى الله عنه :

تمنى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حمام المقادر

أى : قرأ وتلا كتاب الله في أول الليل. وفي آخر الليل وافاه أجله.

ومفعول ﴿أَلْقَى﴾ على هذا المعنى محذوف ـ أيضا ـ والمراد بما يلقيه الشيطان في قراءته : ما يلقيه في معناها من أكاذيب وأباطيل ، ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه الرسول وما يتلوه ، وليس المراد أنه يلقى فيها ما ليس منها بالزيادة أو بالنقص ، فإن ذلك محال بالنسبة لكتاب الله ـ تعالى ـ الذي تكفل ـ سبحانه ـ بحفظه فقال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ (٣).

والمعنى : وما أرسلنا من قبلك ـ أيها الرسول الكريم ـ من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ شيئا مما أنزلناه عليه ، ألقى الشيطان في معنى قراءته الشبه والأباطيل ، ليصد الناس عن اتباع ما يتلوه عليهم هذا الرسول أو النبي.

قال الآلوسى ـ رحمه‌الله ـ : والمعنى : وما أرسلنا من قبلك رسولا ولا نبيا ، إلا وحاله أنه

---

(١) سورة الكهف الآية ٦.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٦٤.

(٣) سورة الحجر الآية ٩.

إذا قرأ شيئا من الآيات ، ألقى الشيطان الشبه والتخيلات فيما يقرؤه على أوليائه ، ليجادلوه بالباطل ، ويردوا ما جاء به ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿... وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ ...﴾ (١). وقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ..﴾ (٢).

وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول ﷺ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ : إن محمدا يحل ذبيحة نفسه ويحرم ما ذبحه الله. وكقولهم عند سماع قراءته لقوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ. حَصَبُ جَهَنَّمَ ..﴾ (٣) إن عيسى قد عبد من دون الله ، وكذلك الملائكة قد عبدوا من دون الله. (٤).

والآية الكريمة ﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ﴾ على هذا التفسير ـ أيضا ـ واضحة المعنى ، إذ المراد بما يلقيه الشيطان في قراءة الرسول أو النبي ، تلك الشبه والأباطيل التي يلقيها في عقول الضالين ، فيجعلهم يؤولونها تأويلا سقيما ويفهمونها فهما خاطئا.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بيان لسنته ـ سبحانه ـ التي لا تتخلف في إحقاق الحق. وإبطال الباطل.

وقوله ﴿فَيَنْسَخُ﴾ من النسخ بمعنى الإزالة. يقال : نسخت الشمس الظل إذا أزالته.

أى : فيزيل ـ سبحانه ـ بمقتضى قدرته وحكمته ما ألقاه الشيطان في القلوب التي شاء الله ـ تعالى ـ لها الإيمان والثبات على الحق ثم يحكم ـ سبحانه ـ آياته بأن يجعلها متقنة ، لا تقبل الرد ، ولا تحتمل الشك في كونها من عنده ـ عزّ وجلّ ـ والله عليم بجميع شئون خلقه ، حكيم في كل أقواله وأفعاله وتصرفاته.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك أن الحكمة في إلقاء الشيطان لشبهه وضلالته هي امتحان الناس فقال : ﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ...﴾.

أى : فعل ما فعل ـ سبحانه ـ ليجعل ما يلقيه الشيطان من تلك الشبه في القلوب فتنة واختبارا وامتحانا ، للذين في قلوبهم مرض ، أى : شك وارتياب ، وهم المنافقون ، وللذين قست قلوبهم ، وهم الكافرون المجاهرون بالجحود والعناد.

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿لِيَجْعَلَ ..﴾ متعلق ب ﴿أَلْقَى﴾ أى : ألقى الشيطان في أمنية الرسل والأنبياء ليجعل الله ـ تعالى ـ ذلك الإلقاء فتنة للذين في قلوبهم مرض.

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢١.

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٢.

(٣) سورة الأنبياء الآية ٩٨.

(٤) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٧٣.

ومعنى كونه فتنة لهم : أنه سبب لتماديهم في الضلال ، وفي إصرارهم على الفسوق والعصيان.

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة الفريقين فقال : ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ، وهم من في قلوبهم مرض ، ومن قست قلوبهم ﴿لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى لفي خلاف للحق شديد. بسبب نفاقهم وكفرهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ حكمة أخرى لما فعله الشيطان من إلقاء الشبه والوساوس في القلوب فقال :

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾.

والضمير في ﴿أَنَّهُ﴾ يعود إلى ما جاء به الرسل والأنبياء من عند ربهم.

أى : وفعل ما فعل ـ سبحانه ـ أيضا ، ليعلم العلماء من عباده ، الذين حبب ـ سبحانه ـ إليهم الإيمان ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، أن ما جاء به الرسل والأنبياء هو الحق الثابت من ربك ، فيزدادوا إيمانا به ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أى : فتخضع وتسكن وتطمئن إليه نفوسهم.

و ﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ ـ تعالى ـ ﴿لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ به وصدقوا أنبياءه ورسله ﴿إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يوصلهم إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

هذا ، وقد أبطل العلماء ـ قديما وحديثا ـ قصة الغرانيق ، ومن العلماء القدماء الذين تصدوا لهذا الإبطال الإمام الفخر الرازي ، فقد قال ما ملخصه : قصة الغرانيق باطلة عند أهل التحقيق ، واستدلوا على بطلانها بالقرآن والسنة والمعقول.

أما القرآن فمن وجوه منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ * لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (١) وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾ (٢) ، وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ ..﴾ (٣).

وأما السنة ، فقد قال الإمام البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل وأيضا فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة «والنجم» وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن ، وليس فيه حديث الغرانيق. وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الغرانيق.

---

(١) سورة الحاقة الآيات ٤٤ ـ ٤٦.

(٢) سورة النجم الآيتان ٣ ، ٤.

(٣) سورة يونس الآية ١٥.

وأما المعقول فمن وجوه منها : أن من جوز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر ، لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه ﷺ كان نفى الأوثان.

ومنها : أننا لو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن شرعه .. فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحى وبين الزيادة فيه.

فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة. أكثر ما في الباب أن جمعا من المفسرين ذكرها. لكنهم ما بلغوا حد التواتر. وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة [1].

وقال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم أن مسألة الغرانيق مع استحالتها شرعا ، ودلالة القرآن على بطلانها ، لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج به ، وصرح بعد ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب.

والحاصل : أن القرآن دل على بطلانها ، ولم تثبت من جهة النقل ، مع استحالة الإلقاء على لسانه ﷺ شرعا ولو على سبيل السهو.

والذي يظهر لنا أنه الصواب : هو أن ما يلقيه الشيطان في قراءة النبي : الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها ، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر أو أساطير الأولين ..

والدليل على هذا المعنى : أن الله . تعالى . بين أن الحكمة في الإلقاء المذكور امتحان الخلق ، لأنه قال : ﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ...﴾ ثم قال : ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ...﴾ فهذا يدل على أن الشيطان يلقى عليهم ، أن الذي يقرؤه النبي ليس بحق ، فيصدقه الأشقياء ، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم ، ويعلمون أنه الحق لا الكذب ، كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه ...» [2].

ثم بين . سبحانه . أن الكافرين سيستمرون على شكهم في القرآن حتى تأتيهم الساعة ، وأنه . تعالى . سيحكم بين الناس يوم القيامة ، فيجازى الذين أساءوا بما عملوا. ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى. فقال . عزّ وجلّ . :

﴿وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ(٥٥)

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ١٦٧.

(٢) تفسير أضواء البيان ج ٥ ص ٧٣١ لفضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطى وراجع تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٧٥.

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾(٥٩)

قال الجمل : «لما ذكر . سبحانه . حال الكافرين أولا ، ثم حال المؤمنين ثانيا ، عاد إلى شرح حال الكافرين ، فهو رجوع لقوله : ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ والمرية بالكسر والضم. لغتان مشهورتان [1].

والضمير في قوله : ﴿مِنْهُ﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، أو إلى ما جاء به الرسول من عند ربه ، وقيل إلى ما ألقاه الشيطان.

وقد رجح ابن جرير كونه للقرآن فقال : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : هي كناية من ذكر القرآن الذي أحكم الله آياته وذلك أن لك من ذكر قوله : ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ..﴾ أقرب منه من ذكر قوله ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ..﴾ [2].

والمعنى ولا يزال الذين كفروا في شك وريب مما أوحاه الله إليك من قرآن ، بسبب قسوة قلوبهم ، واستيلاء الجحود والعناد على نفوسهم.

وسيستمرون على هذه الحال ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ أى : القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ أى : فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أى : لا مثل له في هوله وشدة عذابه ولا يوم بعده ، إذ كل يوم يلد ما بعده عن الأيام إلا هذا اليوم وهو يوم القيامة فإنه لا يوم بعده.

قال ابن كثير : «وقوله : ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قال مجاهد : قال أبى بن كعب : هو يوم بدر.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٧٦.

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ١٣٥.

وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير.

وفي رواية عن عكرمة ومجاهد هو يوم القيامة لا ليلة له ، وكذا قال الضحاك والحسن.

وهذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أو عدوا به ، لكن هذا هو المراد ، ولهذا قال : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ كقوله : ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [(١)].

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر قدرته ، وشمول قهره لغيره فقال : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ..﴾ والتنوين في قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عوض عن جملة.

أى : السلطان القاهر ، والتصرف الكامل ، يوم تأتيهم الساعة بغتة ، أو يوم يأتيهم عذابها يكون لله ـ تعالى ـ وحده ، كما أن الحكم بين الناس جميعا يكون له وحده ـ سبحانه ـ ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحاتِ﴾ يكونون في هذا اليوم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ التي جاءتهم بها رسلنا ﴿فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ أى : لهم عذاب ينالون بسببه ما ينالون من هوان وذل.

﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا﴾ من ديارهم ﴿فِي سَبِيلِ﴾ إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ أى : قتلهم الكفار في الجهاد ﴿أَوْ ماتُوا﴾ أى : على فراشهم.

هؤلاء وهؤلاء ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ﴾ ـ تعالى ـ بفضله وكرمه ﴿رِزْقاً حَسَناً﴾ يرضيهم ويسرهم يوم يلقونه. حيث يبوئهم جنته.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ..﴾ [(٢)].

وقال ـ سبحانه ـ ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [(٣)].

وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ تذييل قصد به بيان أن عطاءه ـ سبحانه ـ فوق كل عطاء ، لأنه يرزق من يشاء بغير حساب ، ويعطى من يشاء دون أن ينازعه منازع ، أو يعارضه معارض ، أو ينقص مما عنده شيء.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ..﴾ استئناف مقرر لما قبله.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٤٢.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٩.

(٣) سورة النساء آية ١٠٠.

و «مدخلا» أى : إدخالا ، من أدخل يدخل ـ بضم الياء ـ وهو مصدر ميمى للفعل الذي قبله ، والمفعول محذوف.

أى : ليدخلنهم الجنة إدخالا يرضونه.

وقرأ نافع ﴿مُدْخَلاً﴾ ـ بفتح الميم ـ على أنه اسم مكان أريد به الجنة ، أى : ليدخلنهم مكانا يرضونه وهو الجنة.

﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ ـ تعالى ـ ﴿لَعَلِيمٌ﴾ بالذي يرضيهم ، وبالذي يستحقه كل إنسان من خير أو شر ﴿حَلِيمٌ﴾ فلا يعاجل بالعقوبة ، بل يستر ويعفو عن كثير.

ثم بشر ـ سبحانه ـ عباده الذين يقع عليهم العدوان بالنصر على من ظلمهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(٦٢)

واسم الإشارة ذلك ، في قوله ـ تعالى ـ ﴿ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ﴾.

يعود إلى ما ذكره ـ سبحانه ـ قبل ذلك من أن الملك له يوم القيامة ، ومن الرزق الحسن الذي منحه للمهاجرين في سبيله ثم قتلوا أو ماتوا.

والعقاب : مأخوذ من التعاقب ، وهو مجيء الشيء بعد غيره. والمراد به هنا : مجازاة الظالم بمثل ظلمه.

قال القرطبي : قال مقاتل : نزلت هذه الآية في قوم من مشركي مكة. لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم : فقالوا : إن أصحاب محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام. فأبى

المشركون إلا القتال ، فحملوا عليهم فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين ، وحصل في أنفس المسلمين شيء من القتال في الشهر الحرام ، فأنزل الله الآية.

فمعنى ﴿مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ﴾ أى : من جازى الظالم بمثل ما ظلمه ، فسمى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين في الصورة فهي مثل : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ (١).

وقوله ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ أى : أن الظالم المبتدئ بالظلم عاد مرة أخرى فبغى على المظلوم وآذاه.

وقوله ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ﴾ وعد مؤكد منه - سبحانه - بنصرة المظلوم ، والجملة جواب قسم محذوف. أى والله لينصرن - سبحانه - المظلوم على الظالم في الحال أو المآل.

قوله : ﴿إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ تعليل للنصرة ، وبيان بأن المظلوم عند ما ترك العفو عن الظالم ، لا يؤاخذه - سبحانه - على ذلك ، مادام لم يتجاوز في رد العدوان الحدود المشروعة ، وهي الانتصار على القصاص بالمثل.

أى : إن الله - تعالى - لكثير العفو عن عباده ، وكثير المغفرة لذنوبهم وخطاياهم.

ثم بين - سبحانه - أن نصره للمظلوم مرجعه إلى شمول قدرته على كل شيء ، فقال - تعالى - : ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾.

ومعنى : يولج : يدخل. يقال : ولج فلان منزله ، إذا دخله.

أى : ذلك الذين فعلناه من نصرة المبغى عليه على الباغي ، كائن بسبب أن قدرتنا لا يعجزها شيء ، ومن مظاهر ذلك أننا ندخل جزءا من الليل في النهار فيقصر الليل ويزيد النهار ، وندخل جزءا من النهار في الليل فيحصل العكس. وأنتم ترون ذلك بأعينكم ، وتشاهدون كيف يسيران بهذا النظام البديع.

﴿وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى : وأن الله - تعالى - سميع لكل المسموعات ، بصير بكل المبصرات ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وقوله - سبحانه - : ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ ..﴾ بيان لحقيته - عزّ وجلّ - للعبادة والطاعة والخضوع التام.

واسم الإشارة يعود إلى ما وصف به نفسه قبل ذلك من صفات القدرة الباهرة والعلم التام.

أى : ذلك الذي تراه - أيها العاقل - في هذا الكون من مخلوقات ، ومن نصر للمظلوم ، ومن إدخال الليل في النهار وإدخال النهار في الليل ، سببه أن الله - تعالى - هو الإله الحق

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٩٠.

الذي يجب أن تعنو له الوجوه. وأن ما عداه من معبودات آلهة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان.

﴿وَأَنَّ اللهَ﴾ ـ تعالى ـ وحده ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ أى : العالي على جميع الكائنات بقدرته ، وكل شيء دونه ﴿الْكَبِيرُ﴾ أى : العظيم الذي لا يدانيه في عظمته أحد.

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة ، قد وصفت الله ـ تعالى ـ بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يدل على سعة فضله ورحمته بعباده فقال :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾(٦٦)

والاستفهام في قوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ..﴾ للتقرير.

وقوله : ﴿مُخْضَرَّةً﴾ أى : ذات خضرة بسبب النبات الذي ينبته الله فيها بعد نزول المطر عليها.

والمعنى : لقد رأيت ببصرك وعلمت ببصيرتك أيها المخاطب أن الله ـ تعالى ـ قد أنزل من السماء ماء ، فتصير الأرض بسببه ذات خضرة ، وفي ذلك أعظم الأدلة على كمال قدرته ، وعظيم رحمته بعباده.

وقال ـ سبحانه ـ ﴿فَتُصْبِحُ﴾ بصيغة المضارع ، لاستحضار صورة الاخضرار ، الذي

اتصفت به الأرض بعد نزول المطر عليها ، وصيغة الماضي لا تفيد دوام استحضارها ، لأن الفعل الماضي يفيد انقطاع الشيء.

ولم ينصب هذا الفعل المضارع في جواب الاستفهام ، لأن الاستفهام تقريرى فهو في معنى الخبر ، والخبر لا جواب له ، فكأنه قيل : لقد رأيت ، ولأن السببية هنا غير متحققة ، إذ الرؤية لا يتسبب عنها اخضرار الأرض ، وإنما اخضرارها يكون بسبب نزول المطر.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى ذلك فقال : فإن قلت : هلا قيل : فأصبحت؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع؟.

قلت : لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان ، كما تقول : أنعم علىّ فلان عام كذا ، فأروح وأغدو شاكرا له. ولو قلت : فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع.

فإن قلت : فما له رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام؟.

قلت : لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض ، لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفى الاخضرار. مثاله أن تقول لصاحبك ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكر. إن نصبته فأنت ناف لشكره. شاك تفريطه فيه ، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله. (1).

وقال بعض العلماء ما ملخصه : فإن قيل : كيف قال فتصبح مع أن اخضرار الأرض قد يتأخر عن صبيحة المطر.

فالجواب : أن تصبح هنا بمعنى تصير ، والعرب تقول : فلان أصبح غنيا ، أى : صار غنيا ، أو أن الفاء للتعقيب ، وتعقيب كل شيء بحسبه ، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً ...﴾ (2) مع أن بين كل شيئين أربعين يوما ، كما جاء في الحديث الصحيح .. (3).

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله : ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أى : إن الله ـ تعالى ـ لطيف بعباده.

ومن مظاهر لطفه بهم ، إنزاله المطر على الأرض للانتفاع بما تنبته من كل زوج بهيج ، وهو ـ تعالى ـ خبير بأحوال عباده ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة من هذه الأحوال.

فإنه ـ سبحانه ـ ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ خلقا وملكا وتصرفا ﴿وَإِنَّ اللهَ

---

(1) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٦٨.

(2) سورة المؤمنين الآية ١٤.

(3) تفسير أضواء البيان ج ٥ ص ٧٤٢.

لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن كل ما سواه ﴿الْحَمِيدُ﴾ أى : المستوجب للحمد من كل خلقه.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ ، وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ...﴾ بيان لألوان أخرى من النعم التي أنعم بها على بنى آدم.

أى : لقد علمت ـ أيضا ـ أيها العاقل ، أن الله ـ تعالى ـ سخر لكم يا بنى آدم ـ ما في الأرض من دواب وشجر وأنهار ، وغير ذلك مما تحتاجونه لحياتكم ، وسخر لمنفعتكم السفن التي تجرى في البحر بتقديره وإرادته وإذنه.

وهو ـ سبحانه ـ الذي يمسك السماء ويمنعها من أن تقع على الأرض ، فتهلك من فيها ، ولو شاء لأذن لها في الوقوع فسقطت على الأرض فأهلكت من عليها.

قال الجمل : وقوله : ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ : الظاهر أنه استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، وهو لا يقع إلا في الكلام الموجب إلا أن قوله : ﴿وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ في قوة النفي. أى : لا يتركها تقع في حالة من الأحوال إلا في حالة كونها ملتبسة بمشيئة الله ـ تعالى ـ فالباء للملابسة [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ أى : لكثير الرأفة والرحمة بهم ، ومن علامات ذلك أنه سخر لهم ما في الأرض وسخر لهم الفلك ، وأمسك السماء عنهم ، ولم يسقطها عليهم.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [2].

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه النعم بما هو أجلها وأعظمها فقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ﴾ أى : بعد أن كنتم أمواتا في بطون أمهاتكم ، وقبل أن ينفخ بقدرته الروح فيكم. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أى : بعد انقضاء آجالكم في هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أى : عند البعث والحساب.

﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾ أى : لكثير الجحود والكفران لنعم ربه التي لا تحصى.

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أنواعا متعددة من الأدلة على قدرته ـ سبحانه ـ ، كما ذكرت ألوانا من نعمه على عباده ، ومن ذلك إنزال الماء من السماء فتصبح

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٧٨.

(٢) سورة فاطر الآية ٤١.

الأرض مخضرة بعد أن كانت يابسة. وتسخير ما في الأرض للإنسان ، وتسخير الفلك لخدمته ومنفعته ، وإمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بمشيئته . تعالى . وإيجادنا من العدم بقدرته ورحمته.

وبعد أن عرضت السورة الكريمة دلائل قدرة الله . تعالى . ورحمته بعباده أتبعت ذلك ببيان أنه . سبحانه . قد جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا ، وأمرت النبي ﷺ أن يمضى في طريقه لتبليغ رسالة الله . تعالى . دون أن يلتفت إلى ممارات المشركين له ، وأن يفوض الحكم فيهم إليه . سبحانه . فهو العليم بكل شيء ، فقال . تعالى . :

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (٦٨) اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ (٧٠)

قال الآلوسى : قوله . تعالى . : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ ...﴾ كلام مستأنف جيء به لزجر معاصريه ﷺ من أهل الأديان السماوية عن منازعته ، ببيان حال ما تمسكوا به من الشرائع ، وإظهار خطئهم [١].

والمراد بالأمة هنا : القوم الذين يدينون بشريعة معينة. والمراد بالمنسك المنهج والشريعة التي يتبعونها في عقيدتهم وفي معاملاتهم ...

أى : شرعنا لكل أمة من الأمم السابقة منهجا يسيرون عليه في اعتقادهم وفي طريقة حياتهم ، فالأمة التي وجدت من مبعث موسى الى مبعث عيسى . عليه‌السلام . شريعتها التوراة ، والأمة التي وجدت من مبعث عيسى حتى مبعث محمد ﷺ شريعتها الإنجيل ، والأمة التي وجدت منذ مبعث محمد ﷺ إلى يوم القيامة شريعتها القرآن.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٩٥.

وعلى كل أمة أدركت بعثة محمد ﷺ أن تتبعه فيما جاء به من عند ربه ، لأن شريعته هي الشريعة الناسخة لما قبلها ، والمهيمنة عليها.

ويرى بعضهم أن المراد بالمنسك هنا : المكان الذي يذبحون فيه ذبائحهم تقربا إلى الله . تعالى ..

وقد رجح الإمام ابن جرير ذلك فقال ما ملخصه : وأصل المنسك في كلام العرب : الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شر. يقال : إن لفلان منسكا يعتاده ، يراد مكانا يغشاه ويألفه لخير أو شر. وقد اختلف أهل التأويل في معنى المنسك هنا ، فقيل : عيد ، وقيل : إراقة الدم .. والصواب من القول في ذلك أن يقال : عنى بذلك إراقة الدم أيام النحر بمنى ، لأن المناسك التي كان المشركون جادلوا فيها رسول الله ﷺ كانت إراقة الدم في هذه الأيام ... ولذلك قلنا : عنى بالمنسك في هذا الموضع : الذبح .. [1].

ويبدو لنا أن القول الأول ، وهو تفسير المنسك بالشريعة الخاصة أقرب إلى الصواب لشموله للذبح وغيره.

والضمير في قوله : ﴿هُمْ ناسِكُوهُ﴾ يعود لكل أمة.

أى : جعلنا لكل أمة شريعة تسير على تعاليمها ، وتنهج على نهجها ..

والفاء في قوله . تعالى . : ﴿فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ لترتيب النهى على ما قبلها.

والمنازعة : المجادلة والمخاصمة. والمراد بالأمر : ما جاء به النبي ﷺ من عند ربه . تعالى . من تشريعات وأحكام.

أى : قد جعلنا لكل أمة من الأمم السابقة شريعة تتبع تعاليمها ، وما دام الأمر كذلك ، فاسلك أنت وأتباعك . أيها الرسول الكريم . الشريعة التي أوحيناها إليك ، وأمرناك باتباعها ، ولا تلتفت إلى مخاصمة من ينازعك في ذلك من اليهود أو النصارى أو غيرهم ، فإن منازعتهم لك فيما جئت به من عند ربك ، يدل على جهلهم وسوء تفكيرهم ، لأن ما جئت به من عند ربك مصدق لشريعتهم ، ومهيمن عليها وناسخ لها.

ثم أرشده . سبحانه . إلى ما يجب عليه نحو دينه فقال : ﴿وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾.

أى : وادع هؤلاء الذين ينازعونك فيما جئتهم به من الحق ، وأدع غيرهم معهم إلى ترك التنازع والتخاصم ، وإلى الدخول في دين الإسلام : فإنك أنت على الصراط المستقيم ، الذي

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ١٣٨.

لا اعوجاج فيه ولا التباس.

ثم بين له ـ سبحانه ـ ما يفعله إذا ما لجّوا في منازعتهم له فقال : ﴿وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ﴾.

أى : وإن أبوا إلا مجادلتك بعد أن ظهر الحق ، ولزمتهم الحجة ، فقل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ أمرى وأمركم إلى الله ـ تعالى ـ ، فهو الذي يتولى الحكم بيني وبينكم يوم القيامة ، لأنه ـ سبحانه ـ هو العليم بحالي وحالكم.

وهذه الجملة الكريمة قد تضمنت تهديدهم على استمرارهم في جدالهم بعد أن تبين لهم الحق ، كما تضمنت وجوب إعراض الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم عنهم.

ثم أكد ـ سبحانه ـ هذا التهديد والإعراض فقال : ﴿اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المسلمون وبين هؤلاء الكافرين ﴿يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ﴾ في الدنيا ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمرنا هذا الدين ، وحينئذ يتبين من هو على الحق ومن هو على الباطل ، وسيجازى ـ سبحانه ـ كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات بتأكيد علمه بكل شيء فقال : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ ..﴾.

أى : لقد علمت ـ أيها الرسول الكريم ـ وتيقنت ، أن الله ـ تعالى ـ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة مما يحصل في السموات والأرض من أقوال أو أفعال.

﴿إِنَّ ذلِكَ﴾ الذي يجرى في السموات والأرض كائن وثابت ﴿فِي كِتابٍ﴾ هو اللوح المحفوظ المشتمل على جميع أحوال الخلق.

﴿إِنَّ ذلِكَ﴾ الذي ذكرناه لك من الحكم بين الناس ، ومن العلم بأحوالهم ومن تسجيل أعمالهم ﴿عَلَى اللهِ﴾ ـ تعالى ـ ﴿يَسِيرٌ﴾ وهين ، لأنه ـ سبحانه ـ له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين.

ثم وبخ ـ سبحانه ـ الكافرين على جهلهم ، حيث عبدوا من دونه مالا ينفعهم ولا يضرهم ، وحيث كرهوا الحق وأصحابه ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي

وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٧٢)

أى : أن هؤلاء المشركين الذين ينازعونك فيما جئتهم به من عند ربك ، يتركون ما تدعوهم إليه ـ أيها الرسول الكريم ـ من إخلاص للعبادة لله ـ تعالى ـ ويعبدون من دونه ـ سبحانه ـ آلهة أخرى لا دليل لهم على عبادتها من عقل أو نقل.

إذ قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً﴾ نفى لأن يكون لهم دليل سمعي على عبادتها وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ نفى لأن يكون لهم دليل عقلي على عبادتها.

والتنكير في قوله : «سلطانا ، وعلم» للتقليل. أى : لا دليل لهم أصلا لا من جهة السمع ، ولا من جهة العقل ، ومع ذلك يتمسكون بهذه العبادة الباطلة.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ تهديد بسوء المصير لهؤلاء المشركين.

أى : وما للظالمين الذين وضعوا العبادة في غير موضعها ، من نصير ينصرهم من عقاب الله وعذابه ، لأنهم بسبب عبادتهم لغير الله ـ تعالى ـ ، قد قطعوا عن أنفسهم كل رحمة ومغفرة.

ثم بين ـ سبحانه ـ أنهم بجانب ضلالهم ، تأخذهم العزة بالإثم إذا ما نصحهم الناصحون بالإقلاع عن هذا الضلال فقال : ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ، يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا ..﴾.

وقوله ﴿يَسْطُونَ﴾ من السطو ، بمعنى الوثب والبطش بالغير. يقال : سطا فلان على فلان ، إذا بطش به بضرب أو شتم أو سرقة أو ما يشبه ذلك.

أى : وإذا تتلى على هؤلاء الظالمين ، آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، من قبل عبادنا المؤمنين ﴿تَعْرِفُ﴾ ـ أيها الرسول الكريم ـ ﴿فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بهذه الآيات البينات ﴿الْمُنْكَرَ﴾ أى : ترى في وجوههم الإنكار لها ، والغضب منها ومن قارئها ، والكراهية والعبوس عند سماعها.

بل ويكادون فوق ذلك ، يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم آياتنا ، ويعتدون عليهم بالسب تارة ، وبالضرب تارة أخرى.

وذلك لأن هؤلاء الظالمين ، حين عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة لجئوا إلى السطو والعدوان ، وهذا شأن الطغاة الجاهلين في كل زمان ومكان.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء الطغاة على سبيل التهديد والوعيد ، ما من شأنه أن يردعهم عن سطوهم وبغيهم فقال : ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ﴾.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الظالمين ألا أخبركم بما هو أشد ألما من غيظكم على من يتلو عليكم آياته ، ومن همكم بالسطو عليه؟.

أشد من كل ذلك ﴿النَّارُ﴾ التي ﴿وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى : وعدهم بدخولها ، وبالاصطلاء بسعيرها ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ مصير هؤلاء الكافرين.

قال الجمل : وقوله : ﴿النَّارُ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، كأن سائلا سأل فقال : وما الأشر؟ فقيل : النار ، أى : هو النار. وحينئذ فالوقف على ذلكم ، أو على النار.

ويصح أن يكون لفظ النار مبتدأ ، والخبر : وعدها الله. وعلى هذا فالوقف على : كفروا .. [1].

ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء إلى الناس. بين فيه أن كل آلهة تعبد من دونه ـ عزّ وجلّ ـ فهي باطلة وهي أعجز من أن تدافع عن نفسها ، وأن كل عابد لها هو جاهل ظالم. فقال ـ تعالى ـ :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٨٠.

﴿رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾(٧٦)

والمثل : الشبيه والنظير ، ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه ـ وهو الذي يضرب فيه ـ بمورده ـ وهو الذي ورد فيه أولا ـ ولا يكون إلا لما فيه غرابة.

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب الشيء المعقول من الشيء المحسوس ، وعرض الغائب في صورة المشاهد ، فيكون المعنى الذي ضرب له المثل أوقع في القلوب ، وأثبت في النفوس.

وسمى الله ـ تعالى ـ ما ساقه في هذه الآية الكريمة مثلا ، لأن ما يفعله المشركون من عبادتهم لآلهة عاجزة ، يشبه المثل في غرابته وفي التعجب من فعله.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : الذي جاء به ـ سبحانه ـ ليس بمثل فكيف سماه مثلا؟.

قلت : قد سميت الصفة أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستغراب مثلا ، تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة ، لكونها مستحسنة مستغربة عندهم [1].

والمعنى : يا أيها الناس لقد بينا لكم قصة مستغربة وحالا عجيبة. لما يعبد من دون الله ـ تعالى ـ فاستمعوا إليها بتدبر وتعقل.

وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ..﴾ بيان للمثل وتفسير له.

والذباب : اسم جنس واحده ذبابة ـ وهي حشرة معروفة بطيشها وضعفها وقذارتها.

أى : إن المعبودات الباطلة التي تعبدونها أيها المشركون ، لن تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة ، حتى لو اشتركت جميعها في محاولة خلق هذه الذبابة.

قال صاحب الكشاف : وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش ، واستركاك عقولهم. والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه ـ أى قد ربطهم برباطه ، حيث وصفوا بالإلهية ـ التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها ـ صورا وتماثيل ، يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره ، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا .. [2].

(١ ، ٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٧١.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ بيان لعجز تلك الآلهة الباطلة من أمر آخر سوى الخلق.

أى : وفضلا عن عجز تلك الأصنام مجتمعة عن خلق ذبابة ، فإنها إذا اختطف الذباب منها شيئا من الأشياء لا تستطيع استرداده منه لعجزها عن ذلك.

قال القرطبي : وخص الذباب لأربعة أمور تخصه : لمهانته وضعفه ، ولاستقذاره وكثرته ، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره ، لا يقدر من عبدوه من دون الله ـ تعالى ـ على خلق مثله ، ودفع أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين ، وأربابا مطاعين ، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان(١).

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بما يدل على عجز الخاطف والمخطوف منه فقال : ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

قال الآلوسى : والطالب : عابد غير الله ـ تعالى ـ والمطلوب : الآلهة ، وكون عابد ذلك طالب لدعائه إياه ، واعتقاده نفعه ، وضعفه لطلبه النفع من غير جهته ، وكون الآخر مطلوبا ظاهرا كضعفه.

وقيل : «الطالب الذباب يطلب ما يسلبه من الآلهة ، والمطلوب : الآلهة ، على معنى المطلوب منه ما يسلب ..» (٢).

وعلى أية حال فإن هذا التعليل يدل دلالة واضحة على عجز كل معبود باطل ، وأنه قد تساوى في عجزه مع أضعف مخلوقات الله وأحقرها.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك أن هؤلاء المشركين ، قد وضعوا الأمور في غير موضعها ، لجهلهم وغبائهم فقال : ﴿ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ...﴾.

أى : ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته ، حيث تركوا عبادة الواحد القهار ، وعبدوا ما يعجز عن رد ما سلبه الذباب منه.

﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ﴾ على خلق كل شيء ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب ، ولا يدافعه مدافع.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن له مطلق التصرف في اختيار رسله فقال : ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ...﴾.

أى : الله ـ تعالى ـ وحده هو الذي يختار من بين ملائكته رسلا يرسلهم لتبليغ وحيه إلى

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٩٧.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٢٠٢.

أنبيائه ، كما اختار جبريل ـ عليه السلام ـ لهذه الوظيفة ، وهو الذي يختار من بين الناس رسلا ، كما اختار إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم لهذه المهمة ، فهو ـ سبحانه ـ أعلم حيث يجعل رسالته.

﴿إِنَّ اللهَ﴾ ـ تعالى ـ ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ بأحوالهم ، لا تخفى عليه خافية من شئونهم.

﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ أى : يعلم ما قدموا من أعمال ، وما يعملون الآن ، وما سيعملونه في المستقبل إذ أن علمه ـ سبحانه ـ ليس مقيدا بزمان أو مكان ﴿وَإِلَى اللهِ﴾ تعالى وحده ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كلها لا إلى غيره.

ثم وجه ـ سبحانه ـ في نهاية السورة نداء إلى عباده المؤمنين ، أمرهم فيه بالمداومة على طاعته ، وبالإخلاص في عبادته ، وبالجهاد في سبيله ، وبالاعتصام بحبله ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٧٨)

والمراد بالركوع والسجود هنا : الصلاة ، وعبر عنها بهما ، لأنهما أهم أركانها ، وناداهم ـ سبحانه ـ بصفة الإيمان ، لحضهم على الامتثال لما أمروا به.

أى : يا من آمنتم بالله ـ تعالى ـ وبملائكته وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر حافظوا على أداء الصلاة في مواقيتها بخشوع وإخلاص ، لأن هذه الصلاة من شأنها أن تنهاكم عن الفحشاء والمنكر ، وأن ترفع درجاتكم عند خالقكم.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أى : واعبدوا ربكم الذي تولاكم برعايته وتربيته في كل مراحل حياتكم ، عبادة خالصة لوجهه الكريم.

وقوله : ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ تعميم بعد التخصيص ، إذ فعل الخير يشمل كل قول وعمل يرضى الله ـ تعالى ـ : كإنفاق المال في وجوه البر ، وكصلة الرحم وكالإحسان إلى الجار وكغير ذلك من الأفعال التي حضت عليها تعاليم الإسلام.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تذييل قصد به التحريض على امتثال ما أمرهم الله ـ تعالى ـ به ، والفلاح : الظفر بالمطلوب.

أى : أدوا الصلاة بخشوع ومواظبة ، واعبدوا ربكم عبادة خالصة ، وافعلوا الخير الذي يقربكم من خالقكم ، لكي تنالوا رضاه وثوابه ـ عزّ وجلّ ـ ..

فكلمة «لعل» للتعليل ، ويصح أن تكون على معناها الحقيقي وهو الرجاء ، ولكن على تقدير صدوره من العباد ، فيكون المعنى : وافعلوا الخير حالة كونكم راجين الفلاح ، ومتوقعين الفوز والنجاح.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها أنها قد جمعت أنواع التكاليف الشرعية ، وأحاطت بها من كل جوانبها.

قال الآلوسى ما ملخصه : وهذه الآية آية سجدة عند الشافعي وأحمد ، لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ، ولحديث عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال : نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما.

وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنها ليست آية سجدة ، لأنها مقرونة بالأمر بالركوع ، والمعهود في مثله من القرآن ، كونه أمرا بما هو ركن للصلاة ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ وما روى من حديث عقبة إسناده ليس بالقوى [1].

وبعد أن أمر ـ سبحانه ـ بالصلاة وبالعبادة وبفعل الخير ، أتبع ذلك بالأمر بالجهاد فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ﴾.

والجهاد مأخوذ من الجهد ، وهو بذل أقصى الطاقة في مدافعة العدو.

وهي أنواع ، أعظمها : جهاد أعداء الله ـ تعالى ـ من الكفار والمنافقين والظالمين والمبتدعين في دين الله ـ تعالى ـ ما ليس منه.

كذلك من أنواع الجهاد : جهاد النفس الأمارة بالسوء ، وجهاد الشيطان.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٢٠٨.

وإضافة «حق» إلى «جهاد» في قوله : ﴿حَقَّ جِهادِهِ﴾ من إضافة الصفة الى الموصوف أى : وجاهدوا ـ أيها المؤمنون ـ في سبيل الله ـ تعالى ـ ومن أجل إعلاء كلمته ، ونصر شريعته ، جهادا كاملا صادقا لا تردد معه ولا تراجع.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿وَجاهِدُوا ...﴾ أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى. وهو الجهاد الأكبر. عن النبي ﷺ أنه رجع من بعض غزواته فقال : «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» ﴿فِي اللهِ﴾ أى : في ذات الله ومن أجله. يقال : هو حق عالم ، وجد عالم ، ومنه ﴿حَقَّ جِهادِهِ﴾.

فإن قلت : ما وجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد فيه ، أو حق جهادكم فيه ، كما قال : ﴿وَجاهِدُوا فِي اللهِ﴾؟.

قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص. فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت إضافته إليه .. [١].

وجملة «هو اجتباكم» مستأنفة ، لبيان علة الأمر بالجهاد ، والاجتباء : الاختيار والاصطفاء.

أى : جاهدوا ـ أيها المؤمنون ـ من أجل إعلاء كلمة الله ، لأنه ـ سبحانه ـ هو الذي اختاركم للذب عن دينه ، واصطفاكم لحرب أعدائه ، وجدير بمن اختاره الله واصطفاه أن يكون مطيعا له.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض مظاهر لطفه بعباده فقال : ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

أى : ومن مظاهر رحمته بكم ـ أيها المؤمنون ـ أنه سبحانه لم يشرع في هذا الدين الذي تدينون به ما فيه مشقة بكم ، أو ضيق عليكم : وإنما جعل أمر هذا الدين ، مبنى على اليسر والتخفيف ورفع الحرج ، ومن قواعده التي تدل على ذلك : أن الضرر يزال. وأن المشقة تجلب التيسير : وأن اليقين لا يرفع بالشك ، وأن الأمور تتبع مقاصدها ، وأن التوبة الصادقة النصوح تجب ما قبلها من ذنوب.

ومن الآيات التي تدل على أن هذا الدين مبنى على التيسير ورفع الحرج قوله ـ تعالى ـ : ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها ...﴾ [٢] وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿... يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ...﴾ [٣].

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٧٣.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥.

وفي الحديث الشريف : «بعثت بالحنيفية السمحاء».

قال بعض العلماء : وأنت خبير بأن هناك فرقا كبيرا ، بين المشقة في الأحكام الشرعية ، وبين الحرج والعسر فيها ، فإن الأولى حاصلة وقلما يخلو منها تكليف شرعي ، إذ التكليف هو التزام ما فيه كلفة ومشقة ، أما المشقة الزائدة عن الحد التي تصل إلى حد الحرج ، فهي المرفوعة عن المكلفين.

فقد فرض الله الصلاة على المكلف ، وأوجب عليه أداءها ، وهذا شيء لا حرج فيه. ثم هو إذا لم يستطع الصلاة من قيام ، فله أن يؤديها وهو قاعد أو بالإيماء .. وهكذا جميع التكاليف الشرعية (١).

والخلاصة : أن هذا الدين الذي جاءنا به محمد ﷺ من عند ربه ـ عزّ وجلّ ـ مبنى على التخفيف والتيسير ، لا على الضيق والحرج ، والذين يجدون فيه ضيقا وحرجا ، هم الناكبون عن هديه ، الخارجون على تعاليمه.

ورحم الله الإمام القرطبي فقد قال : «رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع ، وأما السراق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين ..» (٢).

والمراد بالملة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾ الدين والشريعة ، ولفظ «ملة» هنا منصوب بنزع الخافض.

أى : ما جعل عليكم ـ أيها المؤمنون ـ في دينكم من حرج ، كما لم يجعل ذلك ـ أيضا ـ في ملة أبيكم إبراهيم.

ويصح أن يكون منصوبا على المصدرية بفعل دل عليه ما قبله من نفى الحرج بعد حذف المصدر المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. أى : وسع عليكم في دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم.

ووصف ـ سبحانه ـ إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالأبوة لهذه الأمة ، لأن رسول هذه الأمة ﷺ ينتهى نسبه إلى إبراهيم ، ورسول هذه الأمة ﷺ كالأب لها ، من حيث إنه ﷺ جاءها من عند ربه ـ عزّ وجلّ ـ بما يحييها ويسعدها.

والضمير «هو» في قوله ـ تعالى ـ : ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا ..﴾ يعود

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٣ ص ٩٨ للمرحوم الشيخ محمد على السائس.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١٠١.

إلى الله ـ تعالى ـ أى : هو ـ سبحانه ـ الذي سماكم المسلمين من قبل نزول هذا القرآن. وسماكم ـ أيضا ـ بهذا الإسلام في هذا القرآن.

وقيل : الضمير «هو» يعود إلى إبراهيم أى : إبراهيم هو الذي سماكم المسلمين.

ومن وجوه ضعف هذا القول : أن الله ـ تعالى ـ قال : ﴿وَفِي هذا﴾ أى سماكم المسلمين.

في هذا القرآن ، وإبراهيم ـ عليه‌السلام ـ لحق بربه قبل نزول هذا القرآن بأزمان طويلة ، وأيضا فإن السياق يؤيد أن الضمير «هو» يعود إلى الله ـ تعالى ـ لأن الأفعال السابقة كقوله ﴿هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ تعود إليه ـ عزوجل ـ.

ثم بين ـ سبحانه ـ أسباب هذا الاجتباء والاصطفاء فقال : ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

والمراد بشهادة الرسول على أمته : الإخبار بأنه قد بلغهم رسالة ربه.

والمراد بشهادة هذه الأمة على غيرها من الناس : الإخبار بأن الرسل الذين أرسلهم الله ـ تعالى ـ إلى هؤلاء الناس ، قد بلغوهم رسالة ربهم ، ونصحوهم بإخلاص العبادة لله وحده.

ويؤيد ذلك ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : يدعى نوح ـ عليه‌السلام ـ يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب. فيقال له : هل بلغت ما أرسلت به؟ فيقول : نعم. فيقال لأمته : هل بلغكم؟ فيقولون : ما أتانا من نذير. فيقال له : من يشهد لك؟ فيقول : محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم وأمته ، فيشهدون أنه قد بلغ».

وشبيه بهذه الجملة قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (١).

والمعنى : فعلنا ما فعلنا من اجتبائكم ، والتيسير عليكم ، وتسميتكم بالمسلمين ، ليكون الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم شهيدا عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم ما أمر بتبليغه إليكم ، ولتكونوا أنتم شهداء على الناس بأن رسلهم قد بلغوهم رسالة ربهم.

وما دام الأمر كذلك ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أيها المؤمنون بأن تؤدوها في أوقاتها بإخلاص وخشوع ﴿وَآتُوا الزَّكاةَ﴾ التي كلفكم الله ـ تعالى ـ بإيتائها إلى مستحقيها ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ أى : التجئوا إليه ، واستعينوا به في كل أموركم فإنه ـ سبحانه ـ ﴿هُوَ مَوْلاكُمْ﴾

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣.

أى : ناصركم ومتولى شئونكم ، ومالك أمركم ، وهو . تعالى . ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أى : هو . عَزَّجَلَّ . نعم المالك لأمركم ، ونعم النصير القوى لشأنكم.

وبعد : فهذه سورة الحج ، وهذا تفسير محرر لها.

نسأل الله . تعالى . أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. محمد سيد طنطاوى

فهرس إجمالى لتفسير سورة مريم

مقدمة ٥

تعريف بسورة مريم ٩

١ . كهيعص ذكر رحمة ربك ١٢

٧ . يا زكريا إنا نبشرك بغلام ١٦

١٢ . يا يحيى خذ الكتاب بقوة...................................... ٢٠

١٦ . واذكر في الكتاب مريم.. ٢٢

٢٢ . فحملته فانتبذت به مكانا...................................... ٢٧

٢٧ . فأتت به قومها تحمله ٣٢

٣٤ . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق............................... ٣٥

٤١ . واذكر في الكتاب إبراهيم...................................... ٤٠

٥١ . واذكر في الكتاب موسى ٤٤

٥٤ . واذكر في الكتاب إسماعيل.................................... ٤٦

٥٦ . واذكر في الكتاب إدريس...................................... ٤٧

٥٨ . أولئك الذين أنعم الله عليهم..................................... ٤٨

٦٤ . وما نتنزل إلا بأمر ربك ٥٤

٦٦ . ويقول الإنسان أإذا ما مت..................................... ٥٦

٧٣ . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ٦٢

٧٧ . أفرأيت الذي كفر بآياتنا ٦٧

٨١ . واتخذوا من دون الله آلهة ٦٩

٨٨ . وقالوا اتخذ الرحمن ولدا...................................... ٧٣

٩٦ . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ٧٦

فهرس إجمالى لتفسير «سورة طه»

مقدمة ٨١

تعريف بسورة طه..٨٣

١ . طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ٨٥

٩ . وهل أتاك حديث موسى ٨٩

١٧ . وما تلك بيمينك يا موسى ٩٤

٣٦ . قال قد أوتيت سؤلك يا موسى.. ١٠٠

٤٢ . اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا ١٠٦

٤٩ . قال فمن ربكما يا موسى ١١١

٦١ . قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا ١٢٠

٧١ . قال آمنتم له قبل أن آذن لكم..١٢٧

٧٧ . ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي.. ١٣١

٨٣ . وما أعجلك عن قومك يا موسى ١٣٥

٩٠ . ولقد قال لهم هارون من قبل ١٤١

٩٢ . قال يا هارون ما منعك.. ١٤٢

٩٥ . قال فما خطبك يا سامرى.. ١٤٤

٩٩ .كذلك نقص عليك من أنباء ١٤٨

١٠٥ . ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها.. ١٥١

١١٣ . وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا ١٥٥

١١٥ . ولقد عهدنا إلى آدم من قبل..١٥٧

١٢٤ . ومن أعرض عن ذكرى فإن له.. ١٦٤

١٣٠ . فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك..١٦٧

١٣٣ . وقالوا لو لا يأتينا بآية من ربه ١٧١

فهرس إجمالى لتفسير «سورة الأنبياء»

مقدمة ١٧٧

تمهيد بين يدي السورة ١٧٩

١ . اقترب للناس حسابهم ١٨٢

٧ . وما أرسلنا قبلك إلا رجالا ١٨٧

١٠ . لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ١٨٩

١٦ . وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما ١٩٣

٢١ . أم اتخذوا آلهة من الأرض ١٩٦

٢٦ . وقالوا اتخذوا الرحمن ولدا ٢٠٠

٣٠ . أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض ٢٠٢

٣٤ . وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ٢٠٦

٤٢ . قل من يكلؤكم بالليل والنهار ٢١٢

٤٨ . ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ٢١٨

٥١ . ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ٢٢٠

٥٩ . قالوا من فعل هذا بآلهتنا ٢٢٤

٦٦ . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم ٢٢٧

٧٤ . ولوطا آتيناه حكما وعلما ٢٣١

٧٦ . ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ٢٣٢

٧٨ . وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث ٢٣٣

٨٣ . وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ٢٤٠

٨٥ . وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ٢٤٢

٨٧ . وذا النون إذ ذهب مغاضبا ٢٤٣

٨٩ . وزكريا إذ نادى ربه ٢٤٦

٩١ . والتي أحصنت فرجها ٢٤٧

٩٢ . إن هذه أمتكم أمة واحدة.. ٢٤٨
٩٣ . وتقطعوا أمرهم بينهم ٢٤٨
١٠١ . إن الذين سبقت لهم منا الحسنى.. ٢٥٤
١٠٤ . يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب ٢٥٥

فهرس إجمالى لتفسير «سورة الحج»

مقدمة ٢٦٥

تعريف بسورة الحج ٢٦٧

١ . يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة.. ٢٧٢

٣ . ومن الناس من يجادل في الله بغير علم.. ٢٧٥

٥ . يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث.. ٢٧٧

٨ . ومن الناس من يجادل في الله بغير علم.. ٢٨٣

١٤ . إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. ٢٨٧

١٥ . من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة.. ٢٨٨

١٧ . إن الذين آمنوا والذين هادوا ٢٩٠

١٨ . ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض.. ٢٩٢

١٩ . هذان خصمان اختصموا في ربهم ٢٩٣

٢٥ . إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ٢٩٨

٣٠ . ذلك ومن يعظم حرمات الله ٣٠٤

٣٤ . ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا.. ٣٠٩

٣٨ . إن الله يدافع عن الذين آمنوا ٣١٤

٤٢ . وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم.. ٣١٩

٥٢ . وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ٣٢٥

٥٥ . ولا يزال الذين كفروا في مرية منه ٣٣٠

٦٠ . ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به.. ٣٣٣

٦٣ . ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء.. ٣٣٥

٦٧ . لكل أمة جعلنا منسكا ٣٣٨

٧١ . ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا.. ٣٤٠

٧٣ . يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له.. ٣٤٢

٧٧ . يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ٣٤٥